دكتور
حسين مؤنس



حكاية سوق الخميس

دار المعارف

دكتور حسين مؤنس

حكاية
سوق الخميس

إعداد دكتوره منى حسين مؤنس

دار المعارف

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

تتلمذت على الدكتور حسين مؤنس دون أن يدرى..!

ونسج القدر خيوط علاقتى به..

وكانت البداية عن طريق أستاذ كبير هو الدكتور عبد العزيز كامل، وكان نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للأوقاف، وكنت صحفيا فى الأهرام مسؤولا عن متابعة نشاط الوزارة، وكان طبيعيا أن تتكرر اللقاءات بيننا يوميا، وتطورت العلاقة إلى أن أصبحت صداقة شخصية، وكانت أجمل لحظاتى حين يفرغ الدكتور عبد العزيز كامل من أعمال الوزارة، وأجلس معه فى هدوء أستمع إلى علمه الغزير.. وكنت أجد متعة فى الحوار مع عقلية كبيرة ومتميزة مثل عقلية هذا الرجل الذى لن أنساه أبدا.. وكان الحوار يمتد من الجغرافيا وكان أحد علمائها القلائل فى العالم العربى، إلى التاريخ القديم والحديث، وإلى قضايا الدين والمجتمع وتعلمت من الدكتور عبد العزيز كامل الكثير.. فقد كان يمثل بالنسبة لى نموذجا للعالم المتواضع الذى جعله الإيمان أقرب إلى روح التصوف، مع اعتماده على العقل والمنطق فى تفسير القرآن والحديث، ومع دقته الشديدة فى التعبير وتحوطه فى إصدار الأحكام.

وكان الدكتور عبد العزيز كامل صديقا للدكتور حسين مؤنس، ولذلك كان يتحدث عنه معى كثيرا، ويشير إلى آرائه ومؤلفاته، ولمست كيف تقوم الصداقة بين العلماء وكبار المفكرين على الاحترام المتبادل، وعلى حوار فكرى عميق مستمر يكشف عمق المعرفة لديهما، والتعاون فى البحث عن الحقيقة فى ذاتها دون غرور، أو ادعاء، أو انشغال بمن منهما اكتشفها قبل الآخر، أو أى منهما كان على صواب، فالمهم أن يصل الجدل إلى غايته المنشودة وهى الوصول إلى الحقيقة والصواب.. ورأيت عن قرب كيف

يكون التعـاون بين الكبـار، وكلاهما كان زاهدا، ومنقطعا للعلم والفكـر، ولا يريد من الدنيا ومن فيها شيئا يضطره إلى الخضوع أو التملق.

وأثارتنى أحاديث الدكتور عبد العزيز كامل عن الدكتور حسين مؤنـس فأخذت أبحث عن كتبه وأقرأها وأناقش الدكتور عبـد العزيـز كـامل فيما جاء فيها.. وفتحت لى هـذه الكتـب عالمـا رحبـا أطـل منـه علـى التـاريخ والحضارة الإسلامية.

وحين التقيت بالدكتور حسين مؤنس بعد ذلك بسنوات كرئيس لمجلس إدارة دار المعارف التى تنشر مؤلفاته، ورئيسا لتحرير مجلـة أكتوبر التـى ظل ينشر فيها مقالا أسبوعيا بانتظام لسنوات طويلة، وكانت دهشتنا نحن الاثنين أن أول لقاء بدا وكأنه استكمال للقاءات سابقة، فبدأنا فى مناقشة طالت عن بعض أفكاره وكتبه ومواقفه. وبعدها ظللت انتظر مقاله وأنا فى عجب مـن هـذا المفكـر الكبير الـذى تجـاوز السبعين والمشـغول بأبحاثـه ومؤلفاته ومؤتمراته وأسفاره فى مهام علمية، كيف يجد وقتا لكتابة مقالـه بانتظام وعناية بالغة، وكيف يستطيع مـن كـان مثلـه غارقـا فـى الكتـب والأسفار القديمة أن يظل بمثل هذه اليقظة الفكرية، والحساسية فى رصـد الظواهر الاجتماعية بما يطرأ عليها من تغير!

وفى رأيى أن شخصية الدكتور حسين مؤنس كباحث وأستاذ تختلـف عن شخصيته ككاتب مقال سياسـى واجتماعى فـى مجلـة أكتوبر، فـهو بالشخصية الأولى عـالم، مدقـق، منقطـع الصلـة بالحـاضر تقريبـا : وهـو بالشخصية الثانية مفكر وناقد وأديب غارق فى هموم المجتمـع، ومعـايش للناس العاديين فى الحارة والقرية والمدينة، يشعر بمشـاعرهم، ويشـاركهم همومهم وأحلامهـم، ويرصد شكواهم وتطلعاتهم، ويجعل قلمه صوتا للحق لا يحيد، ولا يجامل، ولا ينافق.

وفى مناخ الحرية الذى تحقق للصحافة المصرية، أطلق الدكتور حسـين مؤنس لقلمه العنان، فلم يعد يحاذر، أو يكتفى بالإشارة والتلميح، فأصبح

صريحا إلى درجة جارحة في بعض الأحيان، وناقدا إلى درجة الهجوم، وكاشفا لما في المجتمع من مشكلات وعيوب دون مواربة، ثم امتدت صراحته إلى الحديث عن نفسه وذكرياته، فقال كل شيء حتى عن خصوصياته وأسراره الشخصية، وأصبح بذلك نموذجا للكاتب الذى لا يخشى شيئا، ولا يتردد في قول الكلمة والتعبير عن رأيه كما يراه دون اعتبار لصدى ما يقول وكان من حين لآخر يسألني: هل أسبب لك حرجا بهذه الصراحة ؟! فأقول له: بل أنني سعيد بها.. فهذا هو وقت الكلمة الصريحة.. ولعنة الله على من يكتم كلمة الحق.

ورحل الدكتور حسين مؤنس وقد ترك ثروة لم يحتمل ضميرى إهمالها أو تجاهلها، وتوافق تفكيرى في جمعها مع رغبة ابنته البارة الدكتورة منى حسين مؤنس أستاذ الأدب الإنجليزى بآداب القاهرة، وفيها من صفاته الكثير.. صفات المقاتل العنيد.. والمحارب من أجل ما يعتقد.. والزهد في الأضواء والشهرة.. وفي دأب واخلاص شديدين قامت بجمع هذه المقالات في سلسلة كتب أقدمها للقارئ العربي فخورا بأن تكون ضمن إصدارات دار المعارف التي ارتبط بها وجدان أستاذنا منذ أكثر من نصف قرن حتى أصبحت بيته وله فيها تلاميذ ومريدون يعرفون قدره، ويحملون رسالته، ويحرصون على إحياء ذكراه.

ولا أعرف كيف ساقني القدر إلى يوم أرد فيه لأستاذى فيه بعض الدين الذى علىّ، وأعبر به عن عرفاني بالجميل والتقدير لذكرى رجل من رجال مصر العظام.

وأترك للقارئ الكريم أن يستمتع بما في هذا الكتاب من تجليات الفكر العميق، والتفكير الناضج، والروح الشابة لرجل عاش حياته بالطول والعرض كما يقول، وسافر إلى أركان الدنيا، وتعرف على ألوان مختلفة من الثقافات والبشر.. وتولى أعلى المناصب العلمية.. وحصل على أرفع

الأوسمة من مصر وغيرها، ومع ذلك ظل فى داخله مصريا حميمـا، و«ابن بلد» لا يتردد في ذكر النكتة، و «القفشـة».. ويتبسط مع قارئه وكأنهما صديقان في جلسة صافية مسترخية.. ولذلك جاءت هذه المقالات أقرب إلى «أحاديث الأصدقاء».. وجاء الأسلوب فيها متميزا وفريدا، سهلا وعميقا في نفس الوقت. يختلف كل الاختلاف عن أسلوب الدكتور حسين مؤنس في مؤلفاته العلمية.

وأرجو أن تكون هذه السلسلة من الكتب التى تصدر بعد رحيله وردة على قبره.. وتحية لذكراه.

رجب البنا

(١)
هـذا هـو المـربـط .. فأيـن الفـرس* ؟

مربط الفرس كناية شائعة الاستعمال يراد بها الغاية المنشودة أو لباب الموضوع، وفى أيامنا هذه مربط الفرس هو الخروج بالبلاد من أزمتها الراهنة، وهى فى الظاهر أزمة اقتصادية، ولكن الحقيقة أنها أزمة أخلاقية، ولا أريد بالأخلاقية هنا ما يشيع بين الناس من أن قواعدنا الأخلاقية قد وهنت وضعفت، ومقاييسنا الأخلاقية قد اهتزت، لأن الأمر – إذا أنعمت الفكر فيه – وجدته أعمق وأبعد مما يظنون، فإن الأخلاق أو الأخلاقيات شىء واسع، يضم قواعد المعاملات من أدب وأمانة وصدق وحياء وما يدخل فى معناها، وتدخل فى الأخلاقيات مواقف الناس بعضهم من بعض، ومواقفهم من العمل الذى يعملونه، ومواقفهم من المسئوليات الموكولة إليهم، ومواقفهم من أوطانهم التى هى أمانات فى أعناقهم، وهذه كلها دخلتها علل وأمراض شتى، جعلت الأزمة فى الحقيقة أزمات أخلاقية..

وعن هذه الأزمات نشأت أزمة نفسية أو حالة اكتئاب نعيشها جميعا على درجات وأشكال متفاوتة، وهى حالة اكتئاب معدية انتقلت من إنسان إلى آخر، حتى عمت الجميع، حتى الذين لا يملكون مبررا واحدا من مبررات الاكتئاب، بل هم سبب من أسباب الاكتئاب القومى العام، حتى هؤلاء أصبحوا هم الآخرون يشكون من الاكتئاب، وقد رفقت صاحبا إلى فى زيارة لرجل من الذين يسببون الاكتئاب للناس، فهو يملك – فيما يملك – عمارة جميلة من اثنى عشر طابقا فرغ من بنائها، توقف عند مظهر من مظاهر التشطيب، فالحكومة لا تستطيع إرغامه على إسكانها،

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٨٦م .

لأن بناءها - فيما يقول هو ومهندسه - لم يفرغ بعد، وهي من ثم لا تصلح للسكنى بحالتها الراهنة، ولكنك إذا ذهبت تفاوضه فى شقة أو دكان، ورضيت بالثمن الذى يفرضه عليك، ودفعت المبلغ المطلوب مقدما وكاملا، وقع معك العقد، وتسلمت منه الشقة في بحر أسبوعين، والمبلغ الذى طلبه الرجل أصابنا نحن الاثنين بالاكتئاب، لأنه باهظ جدا، ولكن صاحبي معلق القلب بالشقة، فهى لابنه الذى تخرج طبيبا من عشر سنوات، وقد توقف في كل ميادين حياته، ولم يعد يستطيع حراكا، فهو يريد الشقة ليتخذ من نصفها عيادة، ومن نصفها الثانى مسكنا، فهو خاطب ولا يستطيع زواجا، وسنه تجاوزت الثلاثين، وفى النهاية ينتصر صاحب البيت، وفي حالة الاكتئاب التى أصابت صاحبي دفع خمسة وخمسين ألف جنيه مقدما في شقة مساحتها مائة وعشرون مترا فى الدور فوق الأرضى، فهى ملقف تراب الشارع ومجمع ضوضائه، ولكن البيت يقوم فى شارع تجارى مطلوب، وقد ركز الرجل فخامة المبنى كلها فى المدخل، فهو بديع واسع فيه درجات ورخام أبيض ومجزع وعمدان وأنوار مباشرة وأخرى غير مباشرة، وهناك مصعدان آخر طراز (لن يستفيد منهما ابن صاحبي لأن شقته في الدور فوق الأرضى، ولكنهما قطعا سيضفيان على العيادة رواء وفخامة يرفعان قيمة الكشف!) وفيما كان صاحب العمارة يتخذ إجراءات توقيع العقد، بعد أن ذابت الثلوج بيننا وبينه، فتح لنا قلبه - إن كان له قلب - وجعل يشكو من الحكومة والإجراءات والموظفين والأسعار والاستيراد، حتى شرق صوته بالدموع وكاد يبكينا، وإذا بهذا الرجل الذى أصابنا بالاكتئاب العنيف عندما قبض المبلغ الرهيب أشد اكتئابا، وتبينا أن عدوى الاكتئاب قد أصابته، لأنها في الحقيقة أصبحت مرضا قوميا عاما، خاصا بنا نحن المصريين، يمكن أن نسميه باكتئاب المصرى، كما نقول الحصبة الألمانية أو الحمى المالطية، وأقترح على أصحابنا الأطباء أن يكتبوا عنه أبحاثا يلقونها في المؤتمرات العلمية التى يشاركون فيها بلاد الله، وأقترح عليهم أن يطلقوا عليها اسما علميا لاتينيا

هو Egyptian Depression ورمزه العلمي .D. E ، أو Pscudo Deprescio ورمزه العلمي .P. D ، أما اسمه العلمي القومي العام فهو Egyptian Depression Syndrome .

وأعود إلى مربط الفرس، فأقول إن المراد بالمربط معروف لنا جميعا، وهو الخروج من تلك الأزمة المعقدة العجيبة التي ذكرتها آنفا، والمشكلة لا تكمن في المربط وكنها تكمن في الفرس الذي يمكن أن يخرج بنا منها، وقد تحيرت في أمره، فإن لدينا في مناصب الوزراء فرسانا لاشك في فروسيتهم وقدراتهم ومواهبهم وإخلاصهم، وهم فيما يقولون لنا في التصريحات الصحفية والبيانات التي تعرض علينا ليل نهار في التلفاز حينا وفي المذياع حينا آخر، إنهم يبذلون أقصى ما يستطيعون من جهد في الخروج بنا من الأزمة، وقد سبقهم إلى هذه المناصب فرسان آخرون لا يقلون عنهم فروسية ومهارة وكفاية وأمانة، فكيف لم نخرج من الوهدة بعد؟ولماذا نغوص فيها كل يوم أكثر فأكثر؟..

سأقص عليك هنا حكاية من تجاربي ربما أعانتنا على الاقتراب من الحل..

أثناء فترة عملي أستاذا في جامعة الكويت، كان علي في سنة من السنوات أن ألقي دروس الحضارة الإسلامية – وهي هناك متطلب جامعي عام لابد أن يدرسه كل طلاب الجامعة – كان علي أن ألقيها في كلية التجارة، وكان درسي يقع بعد درس في علم من علوم الاقتصاد يلقيه دكتور مصري همام، وكنت إذا دخلت الفصل بعده راعني منظر السبورة الخضراء، فدكتورنا الاقتصادي الهمام يملؤها أرقاما ومعادلات ومصطلحات لا أفهم منها شيئا، وكان منظرها يعجبني، فإن الخط جميل كأنه سلاسل الذهب فعلا، والسطور متراصة في تناسق، والسبورة كلها مشحونة من راسها لساسها، حتى الإشارات الرياضية والجبرية بما في ذلك إشارة

الجذر، مرسومة بإتقان بالغ، حتى إن بعض الطلاب كانوا يصورونها بدلا من نقلها بخطهم؛ فقد كانت سبورات سيادته تحفا فنيا، وأتحف ما فيها كان إمضاء سيادته في آخر السبورة، ومع أن التوقيع على السبورات ليس أمرا معروفا في عالمنا - نحن معاشر العاملين في التدريس - فإنني كنت استظرفها منه لأنها كانت تعرفني باسمه مرة كل أسبوع، وتلاقينا مرة وهو خارج وأنا داخل، والتقينا بعد ذلك وتحدثنا، فإذا بسيادته فعلا بحر من العلم، أو هكذا بدا لي..

وكنا في نهاية كل عام دراسي نحول مدخراتنا إلى مصر، والعقلاء منا كانوا يحولونها عن طريق واحد من المصارف المعترف بها رسميا في الكويت ومصر، والتحويل عن طريقها سليم ومعقول وقانوني، وبعضنا كان يحسب نفسه أذكى وامهر، فهم يلجأون إلى طرق «دكاكينية» ملتوية كلها أخطار ومعاطب وسكك مخوفة، ولكنها تعطيهم إذا نفعت مكاسب مضاعفة، كلها سرقة ولا يبارك الله فيها أبدا.

وعدنا إلى القاهرة في الإجازة مرة، فإذا نحن في مصطافنا نلقى صديقا من العاملين معنا هناك، يقص علينا حكاية مأساة مضحكة وقعت: لقد هرب أحد أصحاب طرق التحويل الملتوية بكل المال الذى عهد إليه في تحويله المغفلون والأغبياء واللصوص المتظاهرون بالسذاجة والبراءة وحسن النية، دون أن يكون أمامهم سبيل لاسترداد ما ضاع أو مقاضاة السارق، وفي مقدمة هؤلاء الضحايا كان صاحبنا الأستاذ العظيم ذو السبورات الأنيقة والعلم الغزير، وكانت مصيبته أثقل المصائب، لأنه إلى جانب عمله في الجامعة كان منشارا يجرى في خدمة التجار ويجمع المال أكواما دون رحمة أو حياء، ثم فجأة وقعت الكارثة وغرق الجمل بما حمل، وصاحبنا خسر فيما بلغنا على وجه التحقيق ما يصل إلى خمسة وعشرين ألفا من الجنيهات، هي مكسبه المتواضع في عام.

وحققت السلطات هناك فـي الموضـوع وتنبـهت إلى أن صاحبنـا دكتـور الاقتصاد منشار كهربائي أصيل، واختلف مع الجامعة في شيء يبيح لهم إلغاء عقده ففعلوا، وعاد أخونا إلى مصر يتحدث عن سوء المعاملة والتعصب والغيرة والحسد، ومضت السنوات ونسيته، حتى ذكرته فجأة عندما قرأت اسمه رئيسًا لمجلس إدارة بنك، وأعلم بعد ذلك أنه بعد العودة المخجلة من الخارج أصبح عميدًا لإحدى كليات الاقتصاد، فوزيرًا ثلاث مرات، فرئيس مجلس إدارة مصرف..

وهذا يا سيدي واحد من الفرسان الذين رأيناهم يظهرون ويختفون خلال العشرين ثلاثين سـنة الماضيـة، لكـي يصلـوا بنـا إلى مربـط الفرس، ومـن الطبيعي ألا نصل، فدون دراسة، ودون تحقيق في الماضي،ودون تأكد من الملكات، ولأسـباب مغيبة في أطواء مــا يسـمي بالأسـرار العليـا، يفتحـون أمامهم أبواب مصـاعد السلطان والقوة والغنى، ويصلـون تسـبقهم مقدمـات تقول هذا هو بطل الاقتصاد، هذا هو المعجزة، هـذا هـو لودفيـج ايرهـارت الشرق، ودقي يا مزيكة الحزب، واكتبي يا صحفنا، وصفقوا أيها الناس، ودوري يا دوارة، وسيادة الوزير قـال: وسـيادة الوزيـر سـيقول، وسـيادته مسافر إلى جنيف لحضور مؤتمر الجات أو مجلس القات، وسيادته مسافر إلى نيويورك أو موسكو ليجري مباحثات مع آلهة العصر والأوان، وسيادته يعود إلينا بعقود ديون هي أحكام على هذا الوطن بالسجن سنوات..

وفي ذات مرة نكون في مطار جنيف ننتظـر الأذن فـي صـعود الطـائرة عائدين إلى الوطن العزيز الذي لا يبكيه سوانا، ويناودننا ويقولون لنا معذرة عن عدم استطاعتنا شحنكم إلى مصر اليوم لأسباب فنية، ولا بـأس عليكـم فسـتقضون هذه الليلة في فندق من أعظم فنادق سويسرا، والشـركة سـتبلغ ذويكم في مصر عن هذا التعطل، وغدا ن شاء الله تعودون إلى أرض الوطن بسلامة الله، ويحملوننا في تكسبات، وكان عددنا قرابة الستين رأسا مـن

الغنم. إلى فندق البريزيدنت على شاطئ بحيرة جان جاك روسو أو بحيرة ليمان أو بحيرة جنيف، ومن باب الاحتياط اتصلت بأسرتى فى القاهرة لأبلغهم الخبر. فأجدهم على وشك الخروج للقائى فى المطار، وبالطبع لم يكن أحد قد اتصل بهم، على العادة لا أهمية للمواطن العادى ولا أهله، والمهم هو السيد الوزير مادام وزيرا يستحم فى الأضواء، وفى قاعة الطعام فى اليوم التالى نعرف أن «الأسباب الفنية» التى جعلتهم يتصرفون فينا على هذا النحو. هى أن حاشية السيد الوزير قد اشترت من البضائع مازاد وزن الطائرة ضعفين. وسلطات المطار هناك قالت إما البضاعة وإما الناس، والجواب طبعا البضاعة قبل كل شىء، البضاعة لا يمكن أن تنتظر ساعة ولكن الناس يمكن أن ينتظروا سنة لو أردتم. وفكرت وأنا أتمشى على ضفة بحيرة صاحب العقد الاجتماعى، وجعلت أسأل نفسى: ترى كم دفعت الدولة لحمل عفش حاشية السيد الوزير ما بين تكسيات وفندق وطعام؟ من المؤكد أن السفارة دفعت الحساب، فنحن هنا فى أوروبا، والفواتير لابد أن تسدد، ولو كنا فى مصر لحولونا إلى فندق قطاع عام حيث لا تدفع الفواتير الحكومية أبدا، ثم يتساءلون لماذا تخسر فنادق القطاع العام؟ ومن المؤكد أنه فى الوقت الذى دفعت فيه السفارة ربما مئات الألوف من الفرنكات ترفض القنصلية نقل جثة مواطن يموت فى المنطقة مفلسا، والرئيس السادات تدارك هذه المأساة، وأمر بأن تنقل جثة أى مصرى يموت فى الخارج، قادرا كان أم غير قادر، على نفقة الدولة، ولكن هذا كلام الليل الذى قال شاعر ألف ليلة إنه مدهون بزبد إذا طلع النهار عليه ساح، وفى نوفمبر الماضى ١٩٨٥م فقط رفض قنصلنا فى ميلانو نقل جثمان مواطن مصرى مات، بحجة أن اسمه غير مقيد فى القنصلية، واللوائح تقول إن المواطن الذى ينطبق عليه أمر الرئيس السادات لابد أن يكون قد قيد فى القنصلية قبل موته بستة شهور..

والسيد الوزير وصل إلى أرض الوطن فى طائرة أخرى سبقت طائرة الحاشية أو طائرة عفش الحاشية التى كانت طائرتنا، وأدلى وهو فى المطار

بتصريحات بعد تصريحات إلى الصحف، وتكلم فى التليفزيون مرات، ومصر عقدت أعظم صفقات تصدير عرفتها فى تاريخها، ودقى يا مزيكة، ودقت المزيكة ودقت ودقت، ثم توقفت عن الدق، والوزارة تغيرت، وزير جديد ظهر تحت الأضواء، ويخرج الوزير السابق من دار الوزارة ليحصد ثمرات جهاده الطويل فى سبيل مصر، ويأخذ مكانه رئيسا لمجلس إدارة شركة كذا أو بنك كذا، وفى صمت البنوك ووقارها يدخل سيادة رئيس مجلس الإدارة، ويدخل إليه مدير الشئون المالية: هذا مرتبك يا سيدى رئيس مجلس الإدارة وهذا بدل التمثيل وهذا بدل طبيعة العمل وهذا بدل التنقلات وهذا وهذا وهذا.. هنا لا أضواء ولا دعاية وإنما أموال فقط، وكما أننا نحن المواطنين العاديين لنا الحرية فى أن نشرب الشاى باللبن أو بغير لبن، فإن سادتنا الحيتان لهم الحرية فى أن يتناولوا الألوف بأضواء أو بدون أضواء، وماذا يهم؟ إن الحيتان تأخذ دائما، ومصر تدفع دائما، وديون مصر زادت بليونا آخر، وماذا يهم؟..

والوزير الجديد سيسدد بعبقريته كل ديون مصر، والسياسة التى وضعها وأقرها مجلس كذا ولجنة كذا ومؤتمر كذا، كفيلة بعلاج كل أدوائنا، وتدق الموسيقى، وتتلألأ الأضواء ثم تخبو، وديون مصر زادت بليون آخر.

والديون كلها ستدفع فى النهاية، والذين سيدفعون الديون كلها هم نحن المجاهيل الذين يملكون الحرية فى تناول الشاى بلبن أو بغير لبن، وفى يوم من الأيام سنتناول الشاى بدون سكر بل بدون شاى، ويومها سنملأ الكوب بالدموع، وساعتها سيتردد فى آذاننا صوت أبى البقاء صالح ابن شريف الرندى فى رثاء الأندلس:

لكل شىء إذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان

□□□

أظنك يا سيدي القارئ قد فهمت لماذا تساءلت في عنوان مقالي هذا عن الفرس؟ والمراد بداهة هو الفارس. وهذا هو المربط. فأين الفارس؟..

ربما كان السبب أننا ننسى دائما أن عظائم الأعمال ليس لها إلا عظام الرجال. إننا ننسى دائما قول أبي الطيب:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغار صغارها
وتصغر في عين العظام العظائم

لأن الذي يدور في خاطري أن وظائف المسئوليات الكبيرة لا يجوز أن توكل إلى أى شخص، لا تكفي عضوية الحزب ولا الصداقة أو الثقة الشخصية، لأن القدرة على حمل المسئوليات وحل المسائل القومية لا تتيسر لكل إنسان، وقد حضرت في أسفارى مجالس يتحدث فيها وزراء كبار، وكنت أحس من مجرد أصواتهم وطرائق أحاديثهم أنهم ليسوا أى إنسان. وكلامهم ليس أى كلام، بل هناك قوة في الكلام، ونبرة سيادة في الصوت. وهناك روح سيادة في الهيئة العامة، ولا أقصد بالسيادة هنا ما نجده في الكثيرين من المسئولين عندنا من الكبرياء و(النفخة) فالرجل الكبير أو العظيم حقا لا يمكن أن يكون متكبرا، وإنما سيادة الإنسان تتأتى من شخصه وعقله وكلامه، ولابد كذلك من لمسة من الموهبة كبيرة أو صغيرة، ولابد أن يكون هناك اتساع ملموس في الأفق والذهن، لأن المطلوب من كبار المسئولين كثير، وليس من الصالح قط أن تضع رجلا تحت حمل المسئولية الضخم لمجرد أنه من حزبنا مثلا.. فنحن بهذا نظلمه ونظلم الحزب ونظلم الوطن، وفي الغالب يضطر الرجل الذى وضع في ذلك الموضع دون كفاية حقيقية إلى الكذب والتحايل والتصنع.

ولكني أقول إنني كنت في العام الماضي في بريطانيا، وزرت مجلس العموم، لأنني كنت أريد أن أرى المسز تاتشر، وأسمع صوتها في البرلمان،

ومسز تاتشر* بلا شك قائدة تتميز بسيادة وقدرة على الإمساك بزمام الحوادث وتوجيهها على النحو الذى تراه أنه الأصح، ومن حسن الحظ أنه كان من بين المتحدثين فى تلك الجلسة السيد جفرى هاو وزير الخارجية والمستر نيل كينوك رئيس الفرع الرئيسى فى حزب العمال، وأقول الحق إن أحدا من هؤلاء الثلاثة لم يقل كلاما فيه إلهام أو شىء باهر، ولكن كلامهم فيه سيادة وعلو همة ورقة صوت فيها رياسة وثقة فى النفس، ولم أقتنع بكل الكلام الذى قالوا لأن كلامهم لم يخل من «تقنية» السياسة وتحايلها، ولكنى أحسست وأنا أستمع أن هؤلاء ناس فرسان يمكن جدا أن يقودوا أممهم أو أتباعهم على الأقل إلى المربط، وأن المواطن الإنجليزى - سواء كان من حزبهم أو لم يكن - يشعر أن وطنه آمن مادام أمثال هؤلاء على الدفة، لأن الأمم اليوم ليست بحاجة إلى عباقرة تقودها، لأن الأمم تخطت مرحلة النمو الحضارى والوعى السياسى التى تجعلها تسلم زمامها إلى رجال مستبدين من طراز تشيرشيل أو ديجول، والإنجليز رفضوا تشيرشيل وأنزلوه من مركز القيادة فى انتخابات حرة، كما فعل الفرنسيون مع ديجول، حتى الديجوليون الفرنسيون الذين يمثلهم جاك شيراك لو سئلوا إن كانوا يريدون أن يعود إليهم شارل ديجول بلحمه وعظمه لأجابوا بالنفى لأنهم ديجوليون سبقوا ديجول، وهو بالنسبة لهم كالوالد بالنسبة لكل منا: نحن إلى ذكره ونفخر به ونقتفى آثاره، ولكننا لا نتمنى عودته لكى يجلس منا مجلس المربى والموجه المطاع، حتى هنا فى مصر: لو أننا سئلنا إن كنا نتمنى أن يعود سعد زغلول ليقودنا بشخصيته القاهرة وأبوته الطاغية، لأجبنا بالنفى، لأننا تخطينا هذه المرحلة، وأصبحنا نفضل أن نخطئ ونحن نقود أنفسنا على أن نصيب ونحن فى قيادة سعد زغلول، إننا نحب ذكراه ونعجب به من بعيد، نعجب به على أنه كان قائد عصره ولكنه ليس قائد عصرنا، ولكل زمان دولة ورجال، وهذا زماننا ونحن رجاله، أو ينبغى أن نكون رجاله..

---

* كانت رئيس الوزارة البريطانى فى ذلك الفترة .

أرجو أن يكون سيدى القارئ قد فهم عنى ما أريد أن أقوله بكلامى عن المربط والفرس أو المربط والفارس..

من حسن حظى أننى لا أعرف أحـد من وزراء اليـوم أو نوابـه معرفـة شخصية، وأننى بهذا أنظر إليـه نظـرة واحد من عامة الناس، ومع أننى لا أشك فى أنهم أهل أمانة وإخلاص فإننى- لأمر ما - لا أشعر أن فيـهم الفرسـان الذين يمكن أن يقودونا إلى الهـدف المنشـود أو الغايـة المرجـوة أو مربط الفرس، ولولا أن الرئيس مبارك هنـاك لما كنـت أدرى كيـف يكـون حالى، فهنا أجد العقل الراجح والقلب الطاهر ولسان الميزان وصمام الأمان وضمان الحرية التى هى نور الحياة. أما فيما عدا ذلك فإننى أرى المربـط ولا أرى الفرس أو الفارس، ونحن اليوم فى عصر خطـر مخـوف، ورجـال الحكومة يقولون مثلا إنهم يحاربون الغلاء، وهـم فـى الواقـع يحاربونـه، ولكن سيوفهم فى المعركة ليست بواتر، فهم ليسوا بفرسـان هـذه المعركـة، ونحن نشكو من الغلاء، والوزراء أيضا يشكون مـن الغـلاء، وحكايـة عبـد المعين الذى أتينا به ليعيننا فإذا هو أحـوج إلى العـون.. تتكـرر كـل يـوم، ودون اتهام أو قلة أدب أقول: هذا هو المربط فأين الفرسان يا جدعان؟

(٢)

الحياة في عالم مريض*

أنا واثق من أننا نستطيع تحقيق غاياتنا القومية إذا أردنا، فلدينا الديموقراطية والقيادة الحرة المؤمنة، والذى ينقصنا اليوم هو العلم وأخلاق العلم، وهي الدقة والعمل والحزم والنظام والخيال، بدون العلم وهذه الأخلاق سيكون عسيرا جدا أن نبلغ الصحة في عالم مريض.

نحن نعيش في عالم مريض، كل شعوب الدنيا تعاني أمراضا خطرة لا يشذ عن ذلك الولايات المتحدة أو روسيا، فأمريكا تعاني من التضخم والفساد الخلقي والمخدرات وكل مساوئ الغنى المفرط، هناك يظهر كل يوم مليونير جديد، فإن طموح الناس إلى الغنى شديد جدا، والناس يستهلكون أنفسهم في جمع المال، والجمهور هناك غني يشترى كل شيء، والغالبية العظمى من الناس متخصصون، كل منهم يتقن عمله ويؤديه بسرور لأنه متأكد من المكسب، ولكنه ينصرف بعد ذلك إلى أنواع من الفساد رذيلة جدا، فإن المرأة هناك عاملة وكاسبة وحرة، وهى لهذا طرف نشيط فى الفساد، والسكرتيرة التى تعمل ثماني ساعات بكل مهارة على الحاسب الألكتروني تذهب إلى بيتها وتستحم وتتعطر ثم تمضى إلى حيث يخلو بها عشيقها - وهو فى الغالب رئيسها - للترفيه، كلهن على هذا الحال ولم يعد فيه هناك غرابة وهذا عادى جدا لا يشذ عنه الشيوخ، ولهذا فإن استهلاك الخمر رهيب، والمخدرات تنتشر والجريمة تزيد، وباستثناء قليلات من الزوجات الصالحات، فإن الفساد يطغى ويصعب إيقافه.

---

* نشرت هذه المقالة في ١٩ أكتوبر ١٩٨٦م.

وفي روسيا يعلن ميخائيل جورباتشوف الحرب على الفساد، وألوف الموظفين الذين كانوا فوق المساءلة لمراكزهم في الحزب يفصلون اليوم ويحالون للمحاكمة. وأحيانا يعدمون بسبب السرقة والإهمال والفساد الأخلاقي أيضا. والناس في روسيا سئموا التقشف واستبداد الحزب وطغيان آراء ماركس ولينين وستالين، ويطالبون بطعام أحسن ومسكن أحسن ومعاملة إنسانية، ولكن سلطان الحزب رهيب، والعداوة للأديان ظالمة وكافرة. وفي الجمهوريات السوفيتية الإسلامية الآسيوية صراع حقيقي بين الإسلام والماركسية يصل إلى مستوى خطر في جمهورية طاجيكستان. والدولة تنفق نصف الدخل على التسلح والاستعداد للحرب. والمواطن الروسي لا يدري لماذا لابد له من الانتظار ساعتين في طابور الطعام ليحصل على رطل لحم خنزير، ثم يعمل بعد ذلك ثماني ساعات في إنتاج مواسير تدخل في تركيب الصواريخ، والفساد هناك بلا حدود، والزنا بالغ حده، والمواطن لا يكتفي بزجاجة واحدة من الفودكا في اليوم، وندع هذين العالمين الأول والثاني لكي ننظر في أحوال عالمنا الثالث، هنا نجد كل الدول مريضة بأمراض عضال، وبلاد ليس لها الحق أبدا في أن تشكو أصبحت اليوم تعاني من أمراض غير معقولة، فالبرازيل التي تملك من موارد الدنيا فوق ما تملكه الولايات المتحدة يشكو أكثر من ثلثي سكانها من الفقر، بل المجاعة، وفي مقاطعة بورتو دوسول في الجنوب أكثر من ١٢٠ مليون فدان أرض لا تجد من يزرعها، وهي مسجلة باسم عائلات إقطاعية يعيش أفرادها في ميامي ويطلبون إلى الحكومة أن تمنع الزراع من الدخول فيها وزراعتها والحكومة تستجيب لذلك وتمنع الزراع من الزراعة وترميهم بالرصاص، والبلد مدين بألف مليون دولار أنفق نصفها في مشروعات والباقي في ترف وفساد، لأن الموسرين هناك يعيشون في ضياع يخدمهم فيها عشرات الخدم، والنسوان فاسدات، وهن ينفقن بلا حساب ويشترين الفستان الفرنسي بخمسة آلاف دولار، وفي آخر السهرة لا ينمن في بيوتهن، بل يخرجن مع العشيق إلى فندق أمريكي أجر الغرفة

فيه ثلاثمائة دولار، وقبل النوم تستهلك الواحدة مع صاحبها زجاجتي كونياك فرنسي يحسبهما الفندق بمائتي دولار..

وفي نيكاراجوا يقف الرئيس الشيوعي دانييل أورتيجا ينادي بآراء أوجوستو سانديتو المعادية للولايات المتحدة التي تمول جيشا لمحاربة الحكومة يسمي جيش الكونتراس أي المعارضين للدولة، والحرب تدور في المزارع، والفلاحون يموتون من الجوع لأن الحرب لا تسمح لهم بالزراعة، والولايات المتحدة تعرف هذه الحقيقة، ولكنها تحارب في سبيل رأس مال أمريكي يتمثل في شركة شيطانة هي الأمريكان فروت التي تصر على أن تحكم أمريكا الوسطى بالحديد والنار، لكي يستمر سيل الفواكه والعصائر يتدفق في الولايات المتحدة..

وفي المكسيك أمراض أخرى كثيرة يشكو منها رئيسها ميجيل دي لا مدريد، وهو رئيس طيب مصلح يواجه دينا قدره تسعون ألف مليون دولار وشعبا لا يريد أن يعمل، والمكسيكي إنسان لطيف فنان يعتقد أن المكسيك أعظم بلاد الدنيا، ولكنه لا يعمل ما يبرر هذا الادعاء، وقد أنشأوا بالقروض مجموعة من أعظم الشوارع العالمية في الدنيا وجامعات هي أعاجيب في هندستها، ولكن الطلاب لا يتعلمون فيها إلا القليل، وهناك كل شيء بثمنه، فالمواطن يدفع غرامة مخالفة المرور، ولكنه يستطيع أن يدفع نصف قيمتها للحارس ويأخذ سيارته ويمضي، وكل إمضاء في المكاتب له ثمن، والرشوة لا تعرف المستحيل، والموظف راتبه مثلا ألف بيسو، ولكنه يحتاج لكي يعيش مع أسرته إلى خمسة آلاف في الشهر، وبدلا من أن يحصل خمسة آلاف فهو يحصل عشرة آلاف، لأنه رجل مترف منفوخ، يلبس بدلة أمريكية، وامرأته ترتدي فستانا فرنسيا، ويتعشيان في مطعم أنيق، والأولاد في البيت لديهم تليفزيون يعرض على عشرين قناة أفلاما أخف وزنا من أفلام إسماعيل ياسين.

وكل هذا تحققه الحكومة بالقروض، وأصحاب الديون هم أصحاب المصارف الأمريكية والكندية والأوروبية، وأرباح الديون تصل أحيانا إلى ٢٣

في المائة في السنة وهذه الأرباح كلها سرقة لأن رجال تلك البنوك يعيشون حياة من وراء المعقول. وقد استمعت في الإذاعة إلى ملخص كتاب عن الديون وأصحابها وبعثت أطلبه، والذى يقال فيه يثير الأعصاب ويثبت بالبرهان الثابت أن لعنة الإسلام للربا حق، فمرتبات أعضاء مجالس الإدارات تصل إلى مائتى ألف دولار فى العام، وكما كانت مصر أيام الاحتلال تدفع نفقات جيش الاحتلال ومرتبات القادة والجنود، فكذلك مدين اليوم يدفع تكاليف سهرة المدير فى البنك مع سكرتيرته ولوازم السهرة. وقد قسموا الدنيا إلى أغنياء وفقراء، والأغنياء يعيشون على دم الفقراء ويحرصون على أن يزدادوا فقرا، وإذا شكت الدول المدينة من ثقل الديون والعجز عن أداء الأرباح عرضوا ديونا أخرى والحساب يجمع، وهم كل يوم مجتمعون فى عاصمة كبرى ليروا كيف يحافظون على العز الذى هم فيه، وكل ما نسمع من جهود الدول الغنية لمعاونى الدول الفقيرة كلام فارغ. فالدول الغنية تحارب لكى تظل غنية، وهى تعرف أنها لن تظل غنية إلا إذا ظل الآخرون أفقر وأفقر، ولعلك سمعت عن أزمة جنوب السودان، فإن هذه الأزمة واحدة من نتائج المرض الأكبر الذى يعانيه السودان، وهو الفقر، والفقر هناك ناتج - ودعنى والله أقولها - من أن السودانى العادى لا يحب العمل، الأرض أمامه والنيل تحت بصره، ولكنه لا يحب أن يزرع، والقمح ساكن فى بطن الأرض، ولكن أحدا لا يمسك الفأس ليفتح له ليخرج ويطعم الناس، وأسهل من ذلك أن نطلب المعونة، وجون جارانج مواطن سودانى خائن بلاشك، فهو يخدم فى النهاية أطماع مجلس الكنائس العالمى والذين وراءه - وهم أوروبا وأمريكا - يريدون أن يروا دولة سودانية مسيحية فى جنوب بحر الغزال وهى أغنى أقاليم السودان، وقد كان هذا الرجل طالبا يدرس الطب فى الجامعات الأمريكية، عندما فقد صبره من فساد جعفر النميرى، وكسل كل من كان حوله، فدخل فى خدمة أعداء السودان وأنشأ ما يسمى بجيش تحرير السودان، والحكومة هناك لا تستطيع القضاء عليه لقلة ذات اليد، واليد

تفيض بالمال إذا فتح الناس أمخاخهم وعواطفهم، وفتحوا الأبواب لليد العاملة من خارج السودان، ولكن هذا مستحيل، لأن تقاليد لا يفهمها أحد تجعلهم يفضلون موت مواطنيهم جوعا وضياع جنوب السودان على فتح الأبواب للعاملين الذين يتصورون أنهم مستعمرون، وهذه هى فكرة طلبة جامعة القاهرة فرع الخرطوم يتعلمون على حساب مصر ويلعنون ابا خاش مصر، ومصر تستحق - إذا جئت إلى الحق - لأنها أولا ليست ملزمة بفتح هذا الفرع، وثانيا ترسل أساتذة تحت المستوى، وكل همهم الفلوس، والحكاية كلها لعبة دعاية لا يخفى سرها على أحد، ولعبة الدعاية مرض من أمراضنا القومية في مصر.

□□□

وندخل الآن في أمراض مصر، وقبل أن أتحدث أحب أن أقرر أننا نعرف المحاسن ونقررها، كما نعرف الأضداد ونتكلم عليها، وأنا شخصيا أرى أن السيد الدكتور على لطفى رئيس وزراء ممتاز يستهلك نفسه فى سبيل بلاده، وهو مكافح مثلي ومثلك لا يكفيه راتبه لسد احتياجاته، ولكنه في الحقيقة مناضل قومي. لأنه يخوض معركة قريبة جدا من المستحيلة، لأن طريق الإصلاح الذى يسير فيه ملئ بعقبات ورثها النظام من العصر الناصرى، فإن العصر الناصرى كان عصر ارتجال، والقرارات كانت تصدر فيه عن رجل محب لنفسه محتقر لبقية الدنيا، وكان يحارب شريكا له فى الحكم ومخالفا له فى نفس الوقت على طول الطريق، وهذا الشريك كان متحصنا في الجيش، فتحصن عبد الناصر فى طبقات من الشعب ظن أنها تناصره دون تفكير فاتخذ - مثلا - القرارات الاشتراكية دون دراسة، ولكنه ظن أن الناس يفرحون بها، لا لأن أموال الذين سيصادرون ستصير إليهم، بل لأن جماعات الجماهير فى الدنيا فيها ميل إلى التشفى والفرح فى مصائب من يظنون أنهم أغنياء، والنتيجة أن رءوس

الأموال وشركات البلد واقتصادها كله وقع في أيدى جماعات مجهولة من المحاسيب. ودخلنا في مأساة القطاع العام، وهي مشكلة قومية فعلا، لأنها جعلت الدولة تاجرة وصانعة ومصدرة ومديرة بنوك، وسيدى رئيس الوزراء – وهو اقتصادى كبير – يعرف أن الدول لا تصلح لهذا، لا دولتنا وحدها. بل كل الدول فموظف الدولة لا يمكن أن يكون إلا موظفا مطيعا لرؤسائه. ولا يمكن أن يكون لديه الخيال أو التطلع أو روح المغامرة التي هي أساس النجاح في الاقتصاد. وموظف الحكومة عندنا بدأ من ذلك الحين ينحدر انحدارا محزنا في كل مستويات الأعمال، وليس هناك خلاف عندنا اليوم في أن أي عمل لك في مكاتب الدولة لا يمكن أن يسير سيرا معقولا. وأنا شخصيا أحاذر أن تكون لى مصلحة في أية إدارة، ولكى أستخرج بطاقة التموين كان على أن أذهب إلى المكتب فوق العشر مرات. ومع ذلك فعندما سلمونى إياها وجدت أخطاء في الاسم والبيانات واضطررنا إلى استبدال غيرها بها، والموظف الذى ناولنى إياها لم يشعر بأى خجل عن الخطأ، وما من مرة أذهب إلى محل التموين إلا وجدت صعوبات. واضطررت إلى الانتظار أضعاف الوقت المطلوب، وآخر مرة حاسبونى عن الضرائب كان عن ١٩٨٢م مع أن حساباتى عندهم إلى ١٩٨٥م في مواعيدها ولكن الموظفين لا يعملون.

ونحن عندما ننتقد لا ننقد الحكومة بمستوياتها العالية، بل إنها دائما طبقات الموظفين المنفذين. إنها دائما الانفراستركنشر المريضة، وأنا شخصيا لا أتصور رئيس وزراء هو خير من الدكتور على لطفى، فهو رجل مثقف جدا، وذكى ومجرب ووطنى عظيم، ولكن ماذا يعمل سيادته في نظام التعليم المتدهور من ساسة لرأسه؟ فالمدارس لا تعلم والجامعات لا تثقف والمعاهد لا تكون، نتيجة لنكبتين: مجانية التعليم، وهي أكذوبة ورثناها عن العصر الناصرى – وتدهور كوادر التدريس، وبلد مثل بلدنا يحتاج في

هذا العصر لابد له من فئة ولو قليلة من الفنيين المكونين تكوينا علميا وإنسانيا عاليا، فإن مستوى العلم في عصرنا بلغ حدا يفوق التصور، ومصارف الدنيا كلها تعمل كل شيء بالآلات، فلا تأخذ كشفا أو إيصالا إلا مكتوبا بماكينة، ومعظم بنوكنا لا تزال تكتب باليد وبخط رديء جدا، وكشوف الحسابات لا تخلو من أخطاء أبدا، وهذا طبيعي في بلد يتخرج فيه الشاب في كلية التجارة دون أن يعرف الكتابة على الآلة الكاتبة، وعضوية مجالس إدارات البنوك تعطى في أحيان كثيرة مكافآت لناس بعيدين عن صنعة البنوك والمال، ولا أحد في البنك كله مسئول مسئولية حقيقية، وأصغر موظف يكلف أي زميل له بأن يأخذ له إجازة عارضة ويتغيب عن العمل دون أن يخشى أي عقاب.

□□□

والمرض الأكبر في رأيي - وأنا هنا لا أنقد بل أناقش - هو انعدام العلاقة بين العمل والأجر، فالأجر رزق من الله يأتي الموظف سواء عمل أو لم يعمل، أما العمل فهو فضل منه يتصدق به علينا إذا أراد، وفي المصانع الكبرى - بما في ذلك مصانع النسيج - يتحول الأمر إلى مأساة قومية فعشرات الألوف من الأمتار من القماش تهدر وتخرج تالفة غير صالحة للاستعمال، لأن خيطا من الخيوط انقطع، ولم يتنبه له العامل أو العاملة، والصباغة غير معقولة لضعف المستوى العلمي والحرفي للقائمين بالصباغة، والإنتاج لا يختبر أبدا، وإذا اختبر وتبينت عيوبه فهي مستعصية على العلاج لأن الآلات فقدت دقتها وإحكامها منذ ركبت، والعمال الذين يقومون عليها لا يهمهم أمرها، ولا يبذلون أي جهد في المحافظة عليها، وهم مع ذلك في مطالبة متصلة بالزيادات في الأجور لأن الأسعار فعلا ترتفع، وفي ميدان الطباعة الذي أعرف عنه شيئا انحدرت مطابعنا إلى الدرجة الثالثة والرابعة ولا نسبة إطلاقا بين مستوى الطباعة وأسعارها في

مصر ولبنان، أو في مصر وتـايوان أو سنغافورة وباستثناء مطبعة واحـدة فقدنا كل مهارة في موضوع فصل الألـــوان أو تغليف الكـــتب، ونحـن الذين نملك في بلادنـا أضعـاف ما تملـك بـيروت من المطابع لا نطبع اليوم ربع ما تطبعه. والفرق بين كتبنا وكتبها فـي المستوى الطباعي شاسع. هذا لأننا فقدنا فعلا القـدرة علـى التصحيح لأن خريجـى أقسام اللغة العربية في جامعاتنا وكلية دار العلوم والجامعـة الأزهريـة يحصلـون على ليسانس اللغة العربية بدون لغة عربية.

وإذا صح هذا فيصح أيضا أن نقول إن خريج كلية الطـب يتخـرج دون طب. وهذا كلام يقوله التخصصون الجادون، وقد أكد أحدهم في اجتماع عـام أن خريـج الطـب يبـدأ فـى تعلـم الطب على أجسـاد النـاس فــى المستشفيات بعد التخرج. ولا يمكنك الوثوق في رأى خريـج طـب إلا بعـد عشر سنوات من التخرج على الأقل، ولابد كذلك من دبلومات وماجستير وربما دكتوراه، وهذا أمر نلمسـه جميعـا خاصة أن مسـتوى العلم باللغـة الانجليزية ضاع تماما، ومن العبث أن تسأل أى طبيب شاب إن كـان قـد قرأ كتابا. هذا مع الجشع الزائد إلى المال والإلحاح فى طلبه مع انخفاض ذريع في مستوى التمريض وضعف إحساس المرضة بالمسئولية، ولم تعـد هناك – إلا في النادر – ممرضة تستحي من طلب البقشيش والإلحاح فيه، وقد زرنا أخيرا مستشفى تخصصيا فيه آلات حديثة جدا، والطبيب القائم عليها لا بأس به، ولكن ممرضاتـه كارثـة، والأجـهزة البالغـة الحساسـية تشرف عليها ممرضات بلا حسـاسية إطلاقا، بعد أن تنجب المرضة أربعة أولاد من الطبيعي أن تصبح هي نفسها متأخرة قليا وإنسانيا، فهي مرهقة المسئوليات والمطالب، وإذا ذهبت إلى مستشفى قصر العينـى مثـلا ووقفت في أحد الممرات لرأيت المرضات طائرات ووزن الواحدة منهن طن، وهي في العادة تمشي وهي نائمة كأنها جمل..

أما الهندسة فإن أى إنسان يزور أوروبا يرى للمباني هناك شكلا آخر يدل على علم جديد وخيال وجهد، وهذا غير الشكل التقليدى المحفوظ لدينا، والهندسة المعمارية دائما مظهر جميل من مظاهر حضارة الشعب كما ترى فى أوروبا حيث المبانى - داخلا وخارجا - قطع من الفن والجمال والعظمة أيضا، حتى مستويات هندسة التى كنا ننشئها فى الماضى مثل مبنى القضاء العالى مثلا لم نعد بقادرين على إنشاء أمثالها، وقد أنشأوا فى كلية الآداب بجامعة القاهرة مبنى جديدا ضخما تكلف فيما يقال ثلاثين مليون جنيه، وليس فيه من الجمال والبهاء، أو حتى موافقة الغرض المطلوب - يساوى ثلاثة مليمات، لأن الخيال منعدم عند المهندسين مع قلة العلم والبعد عن روح العظمة التى لابد منها فى مثل تلك المنشآت حتى يكتسب الطلاب وعزة، هذا وأعداد الموظفين الإداريين فى الجامعات فى زيادة، وهم يستولون على الحجرات كأنهم جيش فاتح، والأوراق فى أدراجهم تنام نوما عميقا، والتعليم فى قاعات الدرس ينام نوما أعمق، فالمدرس أو عضو هيئة التدريس يؤلف للطلاب مذكرة لا تزيد على ستين سبعين صفحة تطبع بالماستر وتباع بسعر ستة جنيهات فى المتوسط، والامتحان يجئ فى ثلاثين صفحة منها، هذا إلى غنائم الامتحانات التى لا تنتهى، والمشرفون على التعليم العالى يعتقدون فيما نظن أن زيادة الامتحانات ترفع المستوى، والله وحده يعلم بما يدور فى صدورهم..

أما فروع الهندسة الأخرى فها أنت ترى مستويات الكهرباء والميكانيكا عندنا.وقد كنا نظن أن لدينا صناعة سيارات بعد نحو ثلاثين سنة من إنشائها فى بلادنا حتى أعلنت الحكومة أخيرا أنها تنشئ شركة سيارات جديدة بإشراف أمريكي، لأن الذى لدينا - وهكذا قالوا - ورشة تجميع. ولو رأيت يا سيدى كيف يعاملون الناس فى ورشة التجميع تلك للكك

العجب. فأنت تذهب نحو سبع أو ثماني مرات إلى مكاتب شتى في البلد كي تشترى منهم سيارة، ويرسلونك إلى مصارف لتدفع الثمن بالدولارات حينا وبالجنيه حينا، ثم تذهب أخيرا لتتسلم سيارتك فتجد نفسك وسط حوالي عشرة موظفين لا يهتم واحد منهم بأمرك. إنما هم يتسامرون ويتكلمون بالتليفون ويشربون القهوة ويأكلون الصاندويتش، ثم يساومونك على اللون، لأن هناك ألوانا لمحاسيبهم. وعندما تتسلم السيارة لا تجد معها كتاب التعليمات أبدا، لأنهم أميون، ومن ثم فهم لا يعرفون أهمية قراءة التعليمات. وقد استلمنا السيارة في القاهرة ولكننا أتينا بدفتر التعليمات من إيطاليا وبدونه لا يمكن أن تستعمل السيارة استعمالا سليما، ولكن الاستعمال السليم لأى شيء ليس تقليدا مصريا.

□□□

ذلك هو مرضنا الأكبر الذى نعانيه في أيامنا هذه: انعدام المستوى العلمى والفنى وقلة كفاية الانفراستركتشر أى الطبقة العاملة. وهى عصب الإنتاج في عصرنا، وما رأيك في أن موظفى الحجز في شركة الطيران القومية لا يحسنون الحجز لأنهم لا يتقنون جهاز الكومبيوتر، وأكثر من مرة قالوا لى إنه لا تذاكر هناك. وعلى مسئوليتي ذهبت إلى المطار، وفي الطائرة أجد أن حوالى ربع المقاعد خالية بينما ركابها ملطعون فى مكاتب الشركة ينتظرون الطائرات التالية، وحتى وجبات الطعام لا تقدم بعناية فلا يمكن أن تكون الوجبة كاملة وفى حياتى ما رأيت وجبات طعام تسد النفس فى الطائرات إلا عندنا، وقد نصحنى وزير سابق أهلكت تلك الوجبات معدته أن آخذ معى صاندويتشا من بيتي، أما المواعيد فلا يمكن أن تنضبط قط، حتى أصبح ذلك من خصائص الشركة التي تتميز بها بين شركات الدنيا ويفخر بها موظفوها.

وقد نصحنا بإدخال تغيير كامل على نظام التعليم لكى نستطيع أن نقدم لأولادنا تعليما أحسن يتناسب مع متطلبات العصر، فقالوا لنا: هذا يتنافى

مع الدستور ومجلس الشعب — حامي الدستور – لا يمكن أن يوافق على ذلك. قلنا: طيب: نصلح جامعة واحدة تكون خميرة الإصلاح. نكتفي بكلية طب واحدة من الدرجة الأولى وكلية هندسة واحدة وهكذا، وتضع الجامعة الجديدة نظاما خاصا يضمن لنا الحصول على حد أدنى من فنيين في الدرجة الأولى لكي نطمئن إلى أننا نستطيع السير في العصر الراهن فلم يقرأ لنا أحد، وهذا شأنهم معنا: لا يكترثون أبدا لما نقول والإنسان منهم إذا صار مسئولا كبيرا أصبح من طبقة الموهوبين الذين يملكون عصا سحرية تسير كل شيء. وقد قلت ذات مرة لواحد من كبار المسئولين عن مترو الانفاق: بعد قليل يتم هذا المشروع العظيم ويبدأ استعماله، والمترو ليس خط أوتوبيس يجري على الأرض ولكنه سهم ينطلق في نفق مركب تحت الأرض تركيبا علميا فنيا معقدا فلابد من دقة عالية في الإدارة والنظافة، ولابد من محاسبة مستمرة في استعماله، فمن الآن تختارون من بين أمناء الشرطة أو شباب رجال الأمن أعدادا تمرنونهم على إدارة هذا المترو. تعلمونهم كيف ينظمون مسائل الدخول والخروج والنظافة والإشراف على الركوب والنزول وصيانة الآلات.

قالوا: ذلك يتكلف مالا..

قلت: والشعب مستعد لزيادة ثمن التذكرة قرشين مثلا لنفقات الصناعة والعناية. أن كل محطة من محطات المترو ينبغي أن تكون مركزا إداريا فنيا يتمتع العاملون فيه بكفاءة خاصة ومهارة فنية وسلطة إدارية حتى يستمر نظيفا حسن السير صالح الآلات نظيف المركبات. لابد أن نحمي أنفاق المترو من القذارة الغالبة على مدينتنا ومن الفوضى التي تسيطر على كل أعمالنا، وقلة الكفاية التي أصبحت خاصية من خاصياتنا.

قالوا: نشوف!..

وهم لن يشوفوا قطعا. لأنهم لا يستمعون إلى رأى ولا يتبادلون فكرا. إنهم السادة ولا سادة غيرهم. ومن يريد أن يتكلم فليتكلم فهذا بلد ديمقراطي حر. والكلام هواء، والهواء هباء.

□□□

ذلك هو مرضنا الأساسي الذى نعانيه يا سيدى رئيس الوزراء! ونحن لا نشكو منك قط بل نعتبرك نعمة علينا وندعو الله أن يحرسك من روح الحكومة التي يسودها الغرور وقلة المعرفة واحتقار آراء الآخرين. وأنت رجل تعلمت في لوزان ورأيتهم كيف يديرون لوزان، ولكن لوزان، وكل ما يأتي منها يموت في مطار القاهرة أو في الوانسي ولا يدخل الا الواغش، وأنت يا سيدى تعمل بعد صلاة الفجر وتواصل الجهد إلى ساعات متأخرة من الليل بينما «الناس اللي تحت» نيام أو نشيطون فيما ينفعهم وحدهم، والناس في سباق قاتل مع الأسعار والإفلاس ومع ذلك ففي التليفزيون يقلون لنا: كل شيء صناعة محلية بأيد مصرية مائة في المائة وقبل الموعد بشهور. معجزات. نحن يا سيدى لا نعمل إلا المعجزات، وكان الله في عونك على معجزات من حولك.

(٣)

حديث مع مواطن معروف جدًا*

كلنا نتحدث عن العامل الحرفي المستقل: السباك، والنجار، والمبلط، والميكانيكي. ومن إليهم . كلنا نستكثر عليهم الأرباح والأجور. ولكن هل فكرت في أن تجلس إلى واحد من هؤلاء وتتحدث معه كصديق أو مواطن؟

أعتقد أن الكثيرين منا لا يتبينون خطورة الانفجار السكاني الذى نعانيه في مصر الآن. كلنا - والمسئولون على رأسنا - سلمنا بأنها كارثة حلت بنا ولا نستطيع حيالها شيئًا.

ولا نملك إلا أن ندعها تسير كما هي، وليكن ما يكون.

ومن ثلاثة أسابيع رأيت بعيني رأسي هول الكارثة: مررنا بمولد في إمبابة. وأردت أن أجوس خلال الناس لأشاركهم احتفالهم بمولد شيخهم، فما كدت أدخل في الجمع حتى وجدتني وسط بحر متلاطم- حرفيا - من العيال. لم أر امرأة واحدة ألا تحمل على كتفها طفلا وتجر بيدها طفلا. وثالثا يتشبث بجلبابها. وخلف النسوان والعيال يسير الرجال. كلهم يضحكون كأنهم - أو لأنهم - بلهاء، والواحد منهم لا يكف عن إعطاء امرأته أطرافا من المال لتشترى للعيال بطاطة أو ترمس أو سندويتش، والأطفال كأنهم ماكينات تقضم وتمضغ وتبلع وتطلب المزيد.

وآخذ مكانا في مقهى ليس فيه شيء محترم، وإلى جانبي تجلس على الأرض امرأتان يحوم حولهما نحو سبعة من العيال، وإحدى المرأتين أتت معها بحلة محشي، والأسرتان ضربتا أيديهما في الطعام وحلة المحشي أصبحت فراغا والأولاد يأكلون في نهم، والنساء يتسابقن في الأكل

* نشرت هذه المقالة في ٢٦ أكتوبر ١٩٨٦م .

ويناولن الرجال، وحلة كأنها طست اختفت في دقائق. والمنظر لم يكن فيه شيء من النظافة أو الإنسانية، فهذه جماعة يخيل إليك أنها ليست من مصر– ولا أي بلد ربع محترم. إنهم غيلان. وبحسب تقديري هذه الجماعة تستهلك اليوم طعاما يكفي عشرين إنسانا.

ومن أين يأتي هذا الطعام؟ من خارج مصر قطعا. فنحن من زمن طويل نستدين أو نتسول لنأكل. وإذا كنت أنت يا أخي القارئ لا تزيد على كفايتك فإن أولئك الناس لا حدود عندهم في الطعام. وأولادهم كما ترى كثيرون جدا. وواحد من الرجال يجلس على كرسي غير بعيد مني، ويأخذ ورقة من على الأرض ينظف بها يديه وفمه ويقول لامرأته:

تمشوا أنتم في المولد وأنا انتظركم هنا. ويناول امرأته نقودا للمراجيح والألعاب وربما لمزيد من الطعام.

– هذه الأسرة الكريمة أسرتك؟

– كريمة؟ هل هذه عيلة كريمة؟ هذه المرأة وأمها وستة أطفال كأنهم الوحوش، وحضرتها حبلى!

تصدق بالله يا أخ؟ إنني أكسب في اليوم ما بين ثلاثين وخمسين جنيها – محسوبك مقاول صحي – وكل هذا يضيع في الأكل واللبس، هذا مع علمك بإننا ندفع جنيهين ونصفا فقط في السكن.

– ألا تعمل شيئا للحد من ذلك النسل؟

– وماذا أعمل إذا كانت الحرمة وأمها تريدان ذلك. وأخي سيد عنده تسعة أولاد. ودى حاجة بتاعة ربنا. والعيال دوشة ووجع دماغ ولكنهم أيضا نعمة، وما دام ربك يرزق.فهي ماشية. واحنا ساكنين في حارة برعي

هنا إلى جوار نادى بنك مصر، وفى حارتنا مالا يقل عن خمسمائة عيل. وكل هؤلاء فى حاجة لمدارس وهدوم وأكل.

- كم رغيفا تأكلون فى اليوم ؟

- نحن لا نأكل خبز الحكومة، فهذا لا يؤكل. ولكننا نأكل من الخبز الممتاز. والرغيف بعشرة قروش. تستطيع أن تقول إننا نأكل خبزا بجنهين. هذا إلى جانب الأرز والمكرونة واللحم والخضار. ثلاثون جنيها على الأقل تضيع فى الأكل كل يوم. هذا مع علمك بأننى أتغدى فى الظهر مع الصنايعية بتوعى فى الشغل.

- هل عندكم ثلاجة؟

- طبعا. ثلاجة وتليفزيون.

- ألم تحاول إيقاف النسل.

- حاولت وحياتك أكثر من عشرين مرة، لكن الحرمة لا تريد إلا العيال. كل يوم يتكلمون فى التليفزيون عن تنظيم النسل ولا فائدة. لأن النسوان عاوزة الأولاد، وأنا من رأيى أن حكاية النسل هذه لابد أن تعالج مع النسوان، هى سبب البلوى كلها. أنا شخصيا لا أريد أكثر من ثلاثة أولاد على الأكثر. بودى أن أعلم أولادى تعليمًا صحيحًا ولكننى لا أستطيع. الأمهات يفسدن الأولاد ويغرينهم بالتمرد على الآباء. وأخى بينه وبين ولديه الكبيرين مشاكل بلا نهاية. والولد الكبير إبنى فسد ولا أستطيع إصلاحه، إنه لا يريد أن يعود. أقول لك الحق يا أخ: الحكومة تهمل العمال. نحن طبقة محترمة ونحن فى حاجة إلى عناية ورعاية. ونحن لسنا فى حاجة إلى الأشياء المجانية التى تقدمها الحكومة لنا. ولا أحد يفهمنا أو يصغى لنا يقولون إننا نكسب كثيرا. وهذا صحيح والحمد لله ألف حمد. ولكننا كما ترى. فقراء رغم الكسب الكثير، وبيتى خرابة وأنا عاجز فى بيتى أمام الحرمة وأمها والأولاد. وأنت ماذا تعمل.

- مدرس

- وكم أبنا عندك!

- بنت ولد.

- هكذا يستطيع الإنسان أن يعيش. طبعا تعطى دروسا خصوصية.

- قليل جدا، لا أعطى أكثر من درسين في اليوم.

- فسكت قليلا ثم قال:

- اسمع يا حضرة . سأقول لك شيئا لا تعرفونه أنتم الذين تعتبرون أنفسكم المتنورين. نحن متنورون مثلكم. ربما أكثر ولا مؤاخذة، وأكبر دليل على هذا أننا نكسب أضعاف ما تكسبون.

- هذا واضح وأنا شخصيا أرى أن أى فني يدوى أفضل لهذا البلد من عشرة كتبة على مكاتب، وحكاية الأفندى والعامل هذه مسالة قديمة انتهى أوانها باختفاء الطربوش، وقد كنا في الماضي نقول إن الأفندية أكثر فهما واهتماما بشئون البلد. ولكن تطور الأحوال لم يدع للأفندية وفيهم خريجو الجامعات وقتا ولا قدرة على العناية بشئون البلد، فهم مساكين تعساء ويلهثون وراء لقمة العيش.

فأشعل سيجارة ونظر إلى وقال: يبدو يا حضرة أنك رجل فهيم. وأرجو أن تسمح لى بأن أطلب لك قهوة.

- أنا لا أشرب هنا شيئا فهذا مولد والفنجان ينتقل من فم إلى فم دون غسيل تقريبا وأنا لست ناقصا عدوى.

- إذن ما رأيك في أن تذهب إلى بيتي؟ إنه على خطوتين من هنا وأنا أعمل لك القهوة بنفسي فأنا لا أريد أن آخذ الحرمة والأولاد إلى البيت الآن فالحقيقة هي أن لدى مشكلة أريد أن أعرضها على رجل فهيم مثلك:

- هذا يسرني.

والحق أنه سرنى أن أذهب إلى بيت هذا السباك. فأنا من زمن طويل أريد أن أرى بنفسي اثر الكسب الكثير على أسلوب حياة أولئك الناس.

□□□

يقع البيت في حارة ضيقة مقبضة لم أصل إلى باب البيت إلا متكئا على ذراع صاحبي بسبب فيض المجاري.. وسط المجاري أولاد كثيرون يلعبون ورجل يبيع حلوى، السلم محطم ولابد لك من الحذر الشديد لكى تصل إلى الدور الأول بسلام، الدور الرضى وهو دور المدخل يسكنه فران هو أخو صاحبي السباك، هذا الفران أنشأ فرنا يشوى السمك السمكة المشوية بتسعة جنيهات والطلبات بالعشرات استرحت لرائحة السمك المشوى لأنها تضيع رائحة المجارى، دخل هذا الرجل في اليوم حوالى ٢٠٠ جنيه، وربحه يصل إلى سبعين جنيها أول ما فتح صاحبي باب شقته انشرح صدرى فقد كانت هناك صالة واسعة منيرة، وجدنا هناك كنبة فوقها على الحائط – آية قرانية كريمة مبروزة بشكل جميل. عرفت بعد ذلك أن الشقة كلها تتكون من هذه الصالة وغرفتين صغيرتين للنوم وحمام متر في نصف ومطبخ مظلم متر في متر.

عمل الرجل القهوة ثم جلس إلى.. كان يريد أن يستشيرنى في أمر ولده الكبير إبراهيم الذى لا يريد أن يدرس أو يعمل بل يريد أن يكون مغنيا في ملاهى شارع الهرم، لقد تعب معه الأب ولا يدرى ماذا يفعل؟ فالولد – كما تبينت فيما بعد – فسد تماما فهو يدخن ويسكر ويقضى الليالى خارج البيت، وعدته بأن أنظر في الأمر إذا اتيحت لى الفرصة للقاء إبراهيم، من حسن الحظ أن إبراهيم لم يأت تلك الليلة. أما أنا فكنت أريد أن أعرف كيف يعيش أولئك الناس؟ وكيف يفكرون؟ فسألت الرجل عن مشكلة طابا.

فنظر إلى لحظات ثم قال: كل يوم يدوشوننا بحكاية طابا والحكومة لا عمل لها إلا الكلام الفارغ.

– ولكن هذا ليس كلاما فارغا يا عم صبحي. إن طابا جزء من أراضي الوطن.

– فهمنا ولكنها شغل الحكومة وليست شغلنا. نحن عمال وهم وزراء، ولكل منا عمله. إننا نعيش في مقبرة يا حضرة ومن يعيش عشتنا لا يطالب بالتفكير في مسألة مثل هذه.

– ولكنكم أنتم الذين تجعلون شارعكم مقبرة. معقول هذا يا باشمهندس صبحي: أنت تكسب حوالي سبعين جنيها في اليوم، وكذلك أخوك ثم يكون هذا منظر شارعكم.

– العيال يا حضرة.. الأولاد، والعيال والنسوان يأكلون الحجر، والحكومة وراءنا بالضرائب يريدون أن يحاسبوني على أربعة آلاف جنيه دخل في السنة. معقول هذا يا حضرة؟ وأنت كم تريد. أن تدفع؟

– ولا حاجة!

– معقول هذا يا عم صبحي؟ ولا مليم للحكومة؟ وكيف تريد أن تسير الحكومة أمورها أظن أنه لا يخفي عليك أن عليها مصاريف ضخمة.

– هذا ليس شأننا يا أخي، إنهم لا ينفقون علينا نحن شيئا، أمامك شارعنا فانظر إليه. وقل لي إن كان هذا شارع آدميين أم فئران، إن للدولة هنا نحو خمسين مكتبا ملأى بالموظفين، ولكن أحدا منهم لا يدرى بوجودنا. وقد ذهبنا إليهم عشرات المرات وفي كل مرة يقولون لنا: أسبوعان ولا زيادة لقد وصلت الماكينات وحصلنا على اعتمادات التركيب وخلال ١٥ يوما سترون كيف يصبح شارعكم جافا ومجاريكم كأحسن مجاري البلد، ومرت على ذلك خمسة عشر شهرا ولا شيء يتم: البهوات هناك ونحن هنا ولا نأخذ منهم غير الكلام وواحد منهم طلب سمكا من أخي فلم نعطه شيئا لأنه لا يساوى ذيل سمكة، وصناديق الكهرباء مفتحة

وثلاثة أولاد ماتوا. فقمنا نحسن بعمل أحزمة معدنية وأقفال للصناديق وأقفلناها وأتى مندوب الكهرباء ومعه عسكريان لتحطيم الأقفال فهددناهم بالضرب إذا هم مسوا الأقفال فذهبوا وعادوا مع ضابط بوليس وهذا الرجل كان عاقلا ذكيا أدرك في الحال أننا على حق. فطلب إلينا أن نودع مفاتيح الأقفال عند رئيس الحي فرفضنا، وقلنا إنها كلها هنا مع أخي زكي الفران، وهم يستطيعون الحصول عليها إذا أرادوا: ووافقوا وبعد ذلك أتانا موظف محفلط يقول إنه مدير مكتب، وطلب سمكة نظير تدخله، فقلت له: السمكة بعشرة جنيهات تدفعها تحصل عليها، وإلا فامض لشأنك فدفع الجنيهات العشرة أخذها من المقاول الذى يبني البيت الذى تراه من النافذة، الاثنان حرامية ثم تريد أن أدفع لهم ضرائب؟

– ادفع بالحق. حاسبهم بالمعروف وادفع ما عليك لكي تستريح من دوشة الدماغ.

وأنا اريد دوشة الدماغ، وهذا هو سبيل التعامل الوحيد مع أولئك الناس. الواحد منهم مرتبه على الورق ستون جنيها ولكنه لا يتحصل على أقل من مائتين في الشهر. وأنا أقول لك ذلك على علم ولأن الفراش الذى يحمل أذونات الصرف للتوقيع يسكن معنا هنا. وهو يعرف من بلاوى أولئك الناس ما يدهشك لو سمعته يتكلم.. إن المقاول الذى يبنى البيت الذى تراه يبنى بدون ترخيص،. لقد وصل الآن إلى سبعة أدوار وإن شاء الله سينهار عليه وعلينا. نحن سمك في بحر يا أستاذ ولا يعرف مدى شقائنا إلا خالقنا.

– إنني أرى أنك رجل لبيب عاقل، وقد فهمت أن أخاك الفران كذلك، فلماذا لا تتعاونون – أهل الشارع أقصد – في العناية بشارعكم؟

– حاولنا أكثر من مرة، ولكن أصحابنا الموظفين، لأنهم يعملون مع أصحاب البيوت. وأصحاب البيوت يريدون أن تتهدم كل البيوت لكى

تخلص لهم الأرض هل تصدق، إن بيتنا هذا ملك بنك كبير؟ صاحبة البيت الأولى استدانت ورهنت البيت للبنك، ثم فشلت في زيجتها واضطربت أمورها وماتت، والبنك وضع يده على البيت ودخل أولادها في قضايا مع البنك. وها نحن أولاء ضائعون. إننا ندفع الإيجار للبنك حتى يفصل القضاء في النزاع.

– وأولادك هل تعلمهم؟

– الأكبر فسد كما قلت لك ولا أمل فيه. فأخذت الثاني والثالث معي في العمل بعد الابتدائية لكي أعلمهم صنعة يعيشون منها. والبنتان هدى ونورا في الإعدادية والاثنان الباقيان مازالا طفلين وبسلامتها ستأتينا بسابع.

– أظن أن في هذا كفاية.

– إن السيدة حرمي تخشى أن أطلقها أو أتزوج عليها.

– وهل هي تظن أن الأولاد يمنعونني إذا أردت؟ إنني لا أفعل لأنني لا أريد. وأقول لك الحق إن الذى يمنعني هما البنتان: هدى ونورا. إنهما بنات حلال ويدرسان باهتمام، وعن قريب تأتيك وسترى حضرتك أنهما يستأهلان كل محبة الاثنتان تريدان دخول مدرسة التمريض بعد الإعدادية، وأنا سعيد بذلك، فإلى جوارنا هنا تسكن شابة تسمى بثينة، وهي تعمل كبيرة الممرضات في قسم كبير من مستشفى عظيم، ودخلها في الشهر لا يقل عن أربعمائة جنيه. إنها بنت حلوة وقد أعجب بها طبيب وسيتزوجها وأرجو الله لبناتي مثل هذا المصير.

قلت: إلى الآن لم أعرف اسمك: قال صبحي العزاوى.

– يدهشني يا أخ صبحي أن تكون بهذا العقل ولم تفتتح لنفسك دكانا بعد. إن الطموح من ميزات الإنسان الكبرى، فكيف لا تطمح نفسك إلى سكن أحسن من هذا أو كيف لا تريد أن يكون لك دكان محترم؟

- السبب الأول كثرة العيال فإن أى مسكن فى الدنيا سيتحول إلى خرابة إذا سكنت فيه امرأتي وأمها وسبعة أطفال.. إن نسواننا شياطين يا أخي. وهن يحرضن الأولاد علينا، والذى يعجبنى فى هدى ونورا هو أنهما عاقلتان ولا تستمعان إلى هذه الأم، لقد رأيت حضرتك كيف تنفق النقود في الولد فى الفاضى والمليان. لأن نظريتها هي تجريدى من المال أولا بأول، وربما استطعت التفاهم معها. ولكن أمها بلوة. مات زوجها فحطت علينا كالقضاء العاجل، وهى شيطان وراء امرأتي ولا أستطيع أن ألقي بها فى الطريق.

وأشعل سيجارة وصمت، فعدت أقول:

- يا أوسطى صبحى، هناك سؤال يدور في ذهنى وأرجو أن تأذن لى في أن ألقيه عليك. لا تجب عنه إذا كنت لا تريد.

- وما هو هذا السؤال يا ترى؟

- لقد عرفت رأيك في موظفي الحكومة وموقفك من حكاية الضرائب، فالآن أريد أن تقول لى: ما رأيك فى رجل مثلى- مدرس - اسمع يا أخي: إنكم تبالغون فى تقدير أرباحنا وتستكثرون علينا المكسب. ولا حديث لكم إلا أجر السباك ومكسب النجار أو المبلط، إذن فاعلم أن رأينا فيكم - معشر المدرسين - أسوأ من ذلك. ولو عرفت ماذا يفعلون فى مسائل الدروس! خمسة جنيهات فى الساعة فصاعدا، وليتهم مع ذلك يعلمون الأولاد شيئا. لهذا أنا لا أريد لأولادى أن يستمروا في الدراسة: الإعدادية ثم السباكة. هذا طريق معقول جدا للحياة، وأنت ترى أن أيامنا هذه أيام معمار، والزباين على قفا من يشيل. ونحن نأخذ ما نطلب. وأنا سباك محترم لأن أبى علمنى الصنعة وسأعلمها لأولادى لكى يستقلوا عن الحكومة ويعيشوا ملوكا. لقد حدثتنى عن الطموح وعن شقة محترمة هذا فى نيتى، ولكن قل لى: كيف أدخر النقود؟

- في البنك.

- بعد تجربتي مع البنك الذي يحارب في سبيل خرابه كهذه التي نحن فيها لا يطمئن قلبي للبنوك.. تصور يا أخي أن محاميا من البنك أتاني هنا ليعرض علي وعلى أخي رشوة لكي نترك البيت وليته كان يتحدث باسم البنك. بل كان يريد أن يشترى البيت لحساب مقاول يعمل معه في الباطن. إن قلبي لا يطمئن على نقودى عند أولئك الناس!

هناك يا أخي بنوك وبنوك وأنا كما ترى لست موسرا. ولكني أتعامل مع بنك محترم جدا إن في مصر يا أخي أربعة بنوك من المؤكد أنها محترمة ومأمونة جدا هي: (وذكرتها له) فتعامل مع واحد من هذه ولا تخف وبادر بالادخار لكي تشترى شقة تنعم فيها بحياتك إنني أرى بيتك ولا مؤاخذة لا يرقى إلى مقامك والأثاث الذى آراه قليل وهالك. والدنيا تغيرت وهناك أشياء أخرى جميلة جدا غير التليفزيون والثلاجة.

- فعلا وأريد أن أشترى سيارة.

- دعك من السيارة فهى من متاعب هذا العصر، وغذا كان ولابد فاشتر موتوسيكلا. ولكن أهم شيء هو نوع الشقة التي تشتريها، ثم الأثاث الذى تضعه فيها.

فنظر إلى طويلا ثم قال:

- تصدق بالله إنك أول رجل متعلم معقول أقابله، إخواننا من أمثالك لا يحتملون.. لا يمكن التفاهم مع محام أو طبيب أو مهندس.. كلهم ينظرون إلى السباك والعامل عموما من أعلى كأنهم من طينة غير الطينة، ولهذا فنحن نأخذ منهم كل ما نستطيع، هنا في الشارع الكبير محام كأنه منشار. استدعاني لتغيير حمامه، فأخذت منه كل ما استطعت لأنه ظالم وجبار ومنفوخ ويستحق الضرب، عملت له شغلا محترما ولكني أخذت

منه كل ما أردت، لأنه يتعاون مع المقاول الذى يبنى العمارة إلى جوارنا ويشتركان فى كل المصائب، وقد رشح نفسه للبرلمان وظهر اسمه فى القائمة فاتفقنا جميعا على ألا ننتخبه ولم ننتخبه، ولكنه نجح لا أدرى كيف، وهو اليوم عضو مجلس الشعب ولا يدرى أحد من يمثل.. إننا نحن لا نعرفه ولا نحبه ولا نثق فيه، وهو يعاملنا بالمثل، وأخى زكى الفران يقرأ الجريدة ويقرأ أخبار مجلس الشعب ويقول إنه لم ير اسم أخينا مرة واحدة.. لقد توظف ابنه فى مجلس إدارة أحد البنوك، فزاد هذا من نفورى من البنوك على فكرة إننى أسمعهم فى التليفزيون يتحدثون عن الشعب. فماذا يريدون بقولهم إننا شعب واحد إذا كنا نصفنا يأكل النصف الآخر؟

قلت ألا تحس بأى رابطة تربطنى إليك؟

قال ماذا تعنى؟

- أعنى أننى أشعر وأنا أتحدث إليك إننى أخوك فى هذا الوطن، وأننى مسئول عنك إذا أتى ابنك الآن مثلا فإننى أشعر أننى لابد أن أحاول إصلاح أمره، وأنا مستعد لتخصيص وقت له فى بيتى إذا احتاج الأمر، فهل إذا كانت عندى حنفية مكسورة ولا نقود معى فهل تأتى وتصلحها لى دون مقابل على اعتبار أنك تقدم خدمة لمواطن.. لأخ لك فى الوطن.

- ذلك متوقف على وقتى فأنا رجل مطلوب جدا ووقتى غال، ولست مستعدا لأن أفضلك على رجل يدفع فلوسا إننى لست غنيا وأولادى كثيرون، ولابد أن أكسب كثيرا لكى أستطيع السير بحملى، ثم إن أحدا منكم لا يخدمنى، لا أذكر أن أفنديا قدم لى أصغر خدمة لوجه الله، مستشفيات الحكومة تعاملنا معاملة الكلاب، لأننا لا ندفع، وفى العام

الماضي أخذت بنتي هدى درسا خاصا في اللغة الإنجليزية والمدرس لم يتنازل قط عن خمسة جنيهات في الساعة والدفع مقدما. صدقني هذه أول مرة أتحدث فيها في بيتي مع رجل مثلك، لأننا يا سيدى لا نعرفكم وأنتم لا تعرفوننا.

قلت الحمد لله على أننا تفاهمنا. إن التفاهم بين المواطنين أساس الوطنية. ومن الآن تستطيع أن تعتبرني صديقا.. بهذه المناسبة، في نفسي سؤال أريد أن أوجهه لك.

– هات سؤالك.

– على أي أساس تقدر أتعابك؟ إن هذا أمر يحيرني. فما من مرة استدعيت سباكا إلا تحيرت في مسألة الأتعاب التي سيطلبها..

– إنني أقدر احتياجاتي ياحضرة أنت ترى أن مصاريفي بلا نهاية، وأنا رجل عندي نظر. وأنا عندي اثنان من الصنايعية، الواحد منهما يتقاضى ثمانية جنيهات في اليوم. فأنا أضع عليها ما بين ثلاثين وأربعين غير الأدوات التي سأقوم بتركيبها.. يعني إذا كانت العملية تكلفني يوم شغل طلبت فيها ستين جنيها بالإضافة إلى أثمان ما أشتريه، ونحن يا محترم لسنا لصوصا، نحن مثل كل الناس في أيامنا هذه، إلى جوارنا هنا يسكن شيخ مقرئ يسمى الشيخ خضر المحلاوى، إنه شيخ عادى جدا، وهو يقرأ في الليلة بألف وخمسمائة جنيه تصور، وعندما يتسأهل يجعلها ألفا. فلماذا تضعون السباك فوق رءوسكم وتزعقون؟

□□□

ثم عادت أسرة الرجل من المولد الزوجة أتت معها بعشرة ساندويتشات كفتة للعشاء، دفعت في ذلك اثنى عشر جنيها، وقالت في غير اكتراث يا الله يا أولاد.. العشاء.. والأولاد جلسوا على الأرض ومضوا يأكلون

ويتصايحون، والرجل ناولنى ساندويتشا فأخذته تأديا وفتحته وأخرجت البقدونس ومضيت آكل في صمت والضجيج من حولى يصم الآذان فتحوا التليفزيون وجلسوا كلهم يتفرجون على ما يقدمه هذا الصندوق السحرى، وهمس الرجل في أذنى.

ها أنت ترى.. هل كان هناك لزوم لهذه الصندويتشات بعد الأكل الذى أكلوه في المولد؟ ثم تسألنى إن كنت أدخر شيئا؟ من أين وكيف وهذه المرأة وأولادها ورائى؟ هذا التليفزيون أصلحناه في الأسبوع الماضى بمائة وخمسين جنيها والأسبوع القادم لابد من شراء ملابس المدارس إن جزمة الولد اليوم بستة جنيهات والحكومة تقول إنها تحارب الغلاء، هى فى الواقع تصنع الغلاء، وشركة الكهرباء تتقاضانا ثلاثين جنيها فى الشهر هل هذا معقول؟ ونصف أيام الأسبوع لا نجد الماء ونشترى الصفيحة بعشرة قروش، والناس كلهم عيونهم على السباك، وها هو ذا السباك أمامك، والولد الكبير راح ولن يعيده لى أحد، وأمه تفسده، كل يومين يأتى ويأخذ خمسة جنيهات ويغير ملابسه ويجرى على حل شعره؟ ونحن نكسب يا أخى. ولكننا ضائعون، حياتنا هباء، ولا أحد يحسن بنا، كل ما تراه من الناس هو الحسد، واللعنات هل يعجبك هذا الحال هل تأتى لتزورنى مرة أخرى؟ لا أظن نحن في دنيا وأنتم في دنيا، قم حتى أوصلك إلى الشارع الكبير لتعود إلى بيتك على فكرة ما اسمك؟!

(٤)

الفتافيت.. والفلاحون*

الفتافيت جمع فتفوتة هي ما نسميه عادة بالمسلسلات وهي نوع من التسلية ابتكرته تلفازات العالم لربط الناس إلى شاشاتها. وفي أثناء ذلك تسقيهم ما تشاء من إعلانات. وفي بلد مثل الولايات المتحدة تباع ثانية الإعلان أثناء مسلسلي (دالاس) و(نفن) بخمسين ألف دولار..

ونحن عندنا شيء من ذلك على قد حالنا (أي فقري) لأننا ونتيجة لتجارب تاريخية مريرة - أصبح تفكيرنا كله فقريا، وكلنا نذكر أن رجلا مثل جمال عبد الناصر حط ببلاويه كلها على رءوس من كانوا يعدون أغنياء أو من تصورهم أنهم أغنياء، لأن المصري الأصيل في أيامه السوداء كان المصري التعيس الغلبان الذى يأكل من يد (سيادة الريس) كما يأكل الحصان الفول أو السكر من يد صاحبه.

ونعود إلى الفتافيت فنقول إن المفروض أنها قصص أو روايات. وقد جرت العادة أن يأخذوا أى قصة طويلة أو قصيرة من تأليف رجل له - أو امرأة لها - اسم ويدقونها حتى تصير فتافيت، وكل فتفوتة تسمى عندهم حلقه. وليس من الضروري أن يحدث في الحلقة شيء بل المهم أن تكون فيها زيطة وهيصة ولخبطة تملأ ما بين أربعين وخمسين دقيقة وإلى الحلقة القادمة وليس من الضروري كذلك أن يكون المسلسل صورة للقصة الأصلية فإن الفن التليفزيوني عندهم شيء مستقل بنفسه وليس للمؤلف أى حق في التدخل لأن كاتب السيناريو والمخرجين هم وحدهم الذين يفهمون ذلك، وفي أيامنا هذه يعرضون فتافيت تسمي اللاعب والدمية ويقولون أنها من

---

* نشرت هذه المقالة في ٦ سبتمبر ١٩٨٧م .

تأليف الأستاذ الصديق إحسان عبد القدوس ولقيته في دهاليز الفندق الذي كنا نصطاف فيه، فقلت له إننا نسعد بمتابعة قصتك فقال لي وأنا أتتبعها مثلكم تماما، ولا أعرف مما يحدث شيئا فقد أخذوا قصة قصيرة وأعادوا كتابتها على النحو الذي ترى، فلا شيء من هذا الذي ترونه على الشاشة من تأليفي ولا أنا صاحبه.

ولم أتعجب من ذلك، فأنا لي في هذا المجال تجربة أليمة فقد أخذ أحدهم قصة طويلة من قصصي وجعلها فيلما، وأنا عندما رأيت الفيلم خجلت خجلا بالغًا مما رأيت وزوجتي لامتني أشد اللوم على هذا الكلام الفارغ الذي أكتبه، وفي حفل الافتتاح في سينما بيجال بشارع محمد فريد لم نذهب من الخجل والكسوف.

وفي ذات يوم أتاني مخرج تليفزيوني وطلب مني قصة فقلت له لا يا سيدي توبة هذه تجربة لن أكررها فقال:

– وما الذي يخيفك من ذلك أنت تعطيني القصة وتأخذ فلوسك وعليَّ أنا الباقي.

قلت : هذا بالذات هو ما يخيفني فإن الكاتب منا اسم ولابد من الدفاع عن الاسم حتى تظل القيمة في أعين الناس.

وعندما يئس من الحصول على شيء قال مداعبًا وهو رجل ممتاز فعلا:

قال أتعرف إنني أستطيع أن أشترى منك كارت زيارتك وأجعل منه مسلسلا من ١٥ حلقة؟!

وقد تعود أصحاب الفتافيت في السنوات الأخيرة على أن يقدموا لنا حكايات عن الفلاحين تصور حياة هؤلاء الأخوة تصويرًا بشعا فكلها إجرام ومؤامرات وقتل وغش وكذب وقسوة وظلم حتى أصبحنا نتصور الحياة في القرى المصرية هي الجحيم حقا.

وأنا شخصيا أرى أن ذلك مسلك ضار بالوطن. فهذه القتافيت يراها فى المدن ناس ليست لديهم أية فكرة عن الريف فيأخذون عن الفلاحين فكرة مخيفة لأننى أعرف أن حياة الفلاحين أو المعيشة فى القرى لا يمكن أن تصل إلى هذا السوء. فليس كل عمدة جبارًا ولا كل شيخ غفر لصًا غشاشا ولا كل وكيل عمدة قاتلا متآمرا منعدم الضمير.

وأنا لا أقوم هذا الكلام دفاعًا عن الفلاحين فأنا فى هذا الخصوص لست ساداتيا أتحدث عن الحياة الملائكية فى القرى. ولا أرى أن قرانا هى أصل كل فضيلة أو أن الحياة فيها حياة أخلاقية مثالية وقد كانت نفس السادات قد كبرت فى عينه حتى تصور أنه يعلمنا. وكان يعجبه إذا ذهب إلى القرى أن يرى الفلاحين يتقافزون على الأشجار وأعمدة التليفون ويهتفون بالروح بالدم نفديك يا سادات، وفى أفلام التليفزيون الإخبارية من ذلك كيلو مترات. فلما حم القضاء ولبى السادات نداء ربه على الصورة الحزينة التى كانت لم يفده من هؤلاء جميعا واحد بروح أو بدم، والمسكين ذهب إلى لقاء ربه دون جناز أو وداع، وكنا نحن الذين عادانا دون ذنب وقال إننا أفنديات معيش فى التكييف، كنا نحن الوحيدين الذين بكيناه لأننا نعرف فضله العظيم على هذا البلد.

والمؤرخون الواعون فى الدنيا كلها لا يتعاطفون مع الفلاحين لأن الفلاحين تقليديون سلفيون لا يفكرون قط فى تقدم. وهم أنانيون مقفلون على أنفسهم ولا يسمحون لأحد بالتدخل فى حياتهم واهتمامهم بالوطن قليل، حتى تمسكهم بالدين متأخر جامد يقوم على الإيمان بالأولياء والقديسين وأصحاب الكرامات. وفى كل قرية من أرياف مصر ولى دفين يؤمن الفلاحون به دون أن يدروا أكثر من إيمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم. فرسول الله لم يكن يعلم الغيب وهو القائل (لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير، وما مسنى الضر) ولكن الشيخ هدهد والشيخ

غراب والشيخ زعزوع يعلمون الغيب حتى بعد موتهم. ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمش على الماء أو يطر في الهواء، ولكن السادة المذكورين آنفا كانوا يصلون الظهر في قراهم والعصر في مكه والمغرب في المدينة المنورة ثم يعودون لا تدرى كيف إلى قراهم ليصلوا العشاء، ويتعشوا عشاء الملوك ديكة رومية وخرافا مشواة وفطيرا يعوم في السمن ثم يسبحون في الهلبية سبحا.

ومن هنا فإن الفلاحين في الدنيا كلها أعداء الحضارة، فإن الحضارة تسير إلى الأمام وهؤلاء متربسون في مواقعهم لا يتخلون عنها، ولم يحدث قط في التاريخ إن خرج اختراع من قرية أو بدأت حركة تقدمية من قرية..

والفلاحون - في الدنيا كلها كذلك - أعداء الحكومات لأن الحكومات تعيش على الضرائب ، والفلاحون لا يدفعون الضرائب إلا بالعافية ، والصراع دائم بين الزراع ورجال الضرائب، ومن الأقوال المأثورة عن المؤرخ الروماني مارسيلوس إيمانوس قوله: خذ من الفلاح المصرى ما يعطيك، لأنك مهما فعلت لن تستخرج منه إلا ما يريد أداءه، وإذا كانت عندك الجلدة والسوط والعصا، فإن لديه الذكاء والخبث والحيلة وأنت لن تهزمه أبدا.

□□□

وقد كان كارل ماركس يكره الفلاحون ولا يتوقع منهم خيرا وتبعه في ذلك لينين، وكلاهما رغم شيوعيتهما كانا من أذكى خلق الله وأقدرهم على صنع وفهم التاريخ.

ونحن هنا في مصر نعرف من خبث الفلاحين ولؤمهم وجشعهم في الأرض والمال ما يحار له العقل، وليس في هذا القول مساس بشخصية الفلاح لأنها حقيقة واقعة وعندما ابتكرت ثورتنا إصلاحها الزراعي وفصلته على مزاجها. وانتزعت الأراضي من أيدى أصحابها ووزعتها قطعا صغيرة

على الفلاحين اقترفت خطأ فادحا. فلم يكن كل ملاك الأراضى لصوصا أو ظلمة، بل منهم من جمع الأرض سهما وقيراطا بالجهد والتعب وعرفوا كيف يعاملون الفلاحين بالعدل والحق، وهؤلاء كانوا يستخرجون من قرى مصر أغلى محاصيل الدنيا. وإذا لجأوا إلى الشدة فقد كانت شدة محسوبة لأن الفلاح بطبعه كسول في العمل في أرض غيره ولابد من موالاة الضغط عليه باستمرار. أما حكاية مالك الأرض الذى كان يبيع بصورة دائمة جاموسة الفلاح المتأخر عن سداد الديون فأسطورة ونادرا ما كان صاحب الأرض يلجأ إليها وإنما استعملها نظار الزراعة والخولية والعمد ومشايخ الخفر وكلهم فلاحون. والحقيقة أنه ليس هناك أعز ولا أحب إلى صاحب الأرض من فلاح أو خولى أو ناظر زراعة شغال مجتهد مقبل على العمل، وتستطيع أن تسأل نفسك لنفترض أن في بيتك خادما أو شغالاً مخلصًا صادقًا مقبلا على العمل وأمينًا فهل يكون هناك أعز عليك منه؟ وإذا حرص هذا الشغال أو احتاج إلى عون مالى فهل تبخل عليه؟ ألا يكون هذا الإنسان رجلا كان أو امرأة عزيزا على نفسك كأنه أحد أفراد أسرتك؟ فهذا هو حال صاحب الأرض مع فلاحيه الطيبين: إنه يضربهم بنفسه. ولقد عملت سكرتيرا لأحد كبار ملاك الأراضى، وكان يستدعيني إلى القرية أحيانا ليملي عليّ ما يريد كتابته بعد الظهر، وكان له في العزبة ناظر زراعة يساوى وزنه ذهبا يسمى شجر أفندى، وفي ذات مرة وصل الباشا إلى العزبة فقيل له إن شجر أفندى مريض راقد في فراشه، فاتجه إلى داره راكبًا حمارًا ودخل وبعث يستدعى الطبيب، ونقل الرجل إلى المستشفى على حسابه ثم نادى العمدة ولعن أبا خاشه لأنه أهمل في شأن هذا الرجل الذى يساوى ظفره رقابكم جميعا.

وكان أمثال هذا الباشا كثيرين فظلمهم ما يسمى بالإصلاح الزراعى ووضعهم مع الباقى فى زكيبة واحدة ألقى بها على التل ووزع الأرض

نتافيت. ومن هذا اليوم خاب أمل الزراعة فـى بلادنا ونحـن الذيـن كنـا نطعم غيرنا أصبحنا نستدين القمح والذرة والدقيق واللحم والدواجن. ودب الفساد الرهيب في حياة الفلاح نفسه.

وأرجو هنا ألا يغرك ما تسمعه من ازدهار الزراعة في أوروبا والولايـات المتحدة، وما تسمعه عن جبال الزبد والقمح لأن الحقيقة أن هذا جـزء مـن ازدهار اقتصادى علمى عـام، فالمعامل تعمـل والاخصـائيون يجربـون ويخترعون والمطر ينزل من السماء والقمح ينمو والبقر يرعى والبقرة الواحدة في هولندا والدانيمارك تعطـى عشـرين لـترا مـن اللـبن الدسـم فـى اليـوم. وفرنسا وحدها ابتكرت ١٤٣ صنفا من الجبن معروفة في الدنيا كلها.

لأن هناك من يصنع ومن يبتكر ومن يغلف أو يعبـئ ومـن يصـدر. فـى حين أننا في مصر لم نبتكر إلا صنفا واحدا من الجبن بل إن هـذا الجـبن القديم يختفى اليوم، وقد عرفت في الكويـت مصريـا نابـها مبتكـرا صنـع الجبن القديم والمش وأخرج جبنـا قديما بديعًـا وبسـتره وعبـأة فـى علـب معدنية وباعـه فـى الجمعيات التعاونيـة وكسـب الألـوف فطمـع الكفيـل الكويتى في المكسب كله واخترع حيلة وسحب الكفالة، فأخرج الرجل من الكويت وبارت الصناعة لأن صاحبنا الكفيل لم يعرف كيف يتصرف وعاد الرجل إلى مصر وحاول أن يكرر التجربـة فلـم يفلـح لأن هـذه الصناعـات تحتاج إلى روح تجارية واعية عند أصحاب البقـالات والصـانع ينبغـى أن يحصل على قيمة ما يودع لديهم بنظام حتـى يسـتمر العمـل أمـا النصـب والإرجاء والتسويف، وهى أساليب تجاريـة عندنـا فمـن شـأنها أن تقتـل الصناعة وقد كان وأفلس الرجل.

وهذا الرجل كان فلاحا ابن فلاح وقد تربى فى القرية ثم دخل مدرسة الزراعة المتوسطة وتخرج فيها، ثم عاد إلى القرية ولكنه لم يسـتطع العمـل كما يريد لأن الفساد الذى أدخلناه في القرية جعل العمـل والنجـاح علـى

مثل ذلك الرجل مستحيلا فذهب إلى الكويت فى كفالة كويتى، وهناك عمل ونجح وأغتنى حتى كان من أمره ما كان لأن نظام الكفالة فى ذاته شر مستطير فهو يقوم على ظلم بالغ للمكفول، ويجعله فى معظم الأحيان عبداً رقيقا فى يد كفيله.

ومثل هذا الرجل لو أنه عاش فى قرية مصرية لأصبح قائدا للفلاحين وبركة عليهم لأن الفلاحين يحتاجون دائما إلى قائد والقيادة هنا ليست سياسية بل زراعية واجتماعية، ونحن الذين عشنا فى الريف نعرف ذلك فإذا أتيت الفلاحين بنوع جديد لم يعرفوه من قبل مثل القمح المكسيكى أو الأرز الفلبينى فإن كل القرية تنتظر حتى يزرع هذه البذور الجديدة أبو فلان وأبو فلان هذا يكون فى العادة فلاح كبير متنور ذا شخصية يقود الناس بفكره وشخصيته، وهو فى القرية أقوى بمراحل من العمدة ووكيله وشيخ الخفر، لأن هؤلاء هم ممثلو السلطة والفرح المصرى خاصة يكره السلطة وأصحابها لأنهم أنزلوا به ومازالوا ينزلون مظالم شتى إنه يخشاهم، ولكنه لا يحبهم ولا يثق فيهم، كان هذا صحيحا فيما مضى ولا يزال صحيحا إلى يومنا هذا، وفى الماضى كان كبار الملاك يعرفون قدر أبى فلان هذا قائد الفلاحين فى أراضيهم وتعاملهم الأساسى فى الغالب كان معه ولا يمكن أن ينتظم مجتمع القرية إلا بهذه القيادة الزراعية الاجتماعية. فجئنا نحن اليوم وأهملناها وملأنا القرى بموظفين لا يحبهم الناس أصلا. فهذا هو المهندس الزراعى الذى يفرض عليهم إرادة الوزارة نريد كذا قمحا وكذا أرزا أو قصبا والحكومة ستدفع فى أردب القمح عشرين جنيها مقدما ثم ثلاثين عن التسليم والناس طبعا لن يطيعوا ذلك (العيل) المهندس الذى لم يعرف الزراعة إلا فى الكتب ولكنهم يطيعون زعيمهم المحلى. والمهندس يلجأ إلى العمدة والعمدة يستعمل سلطانه وتزداد الهوة بين السلطة والفلاح. وهناك مدير مخزن الكيماوى (السماد) وهو فى الغالب طاغية مستبد يعطى من يشاء ويحرم من يشاء، والخمسون شوالا بحسابه لا تكون إلا أربعين، وله على كل شوال ضريبة، وهناك المحصل

الشهر ستزداد إلى الضعف عن قريب وفي جيبه اشتراك سكة حديد درجة أولى مجان كل هذا لكي يقول موافقون عندما يطلب إليه ذلك.

لهذا لا غرابة أن تغيرت أخلاق الفلاحين وقست قلوبهم وتضاعف خبثهم التقليدى وعداؤهم التاريخى للدولة. ومن ايام رايت فيالطريق الزراعى مئات الأولاد يسبحون فى الترع وعشرات النسوان يغسلن الثياب كأنهم لم يسمعوا في حياتهم عن شيء يسمى بلهارسيا رغم تحذيرنا إياهم من نحو ستين سنة، ولكل هذا التحذير عندهم كلام حكومة، وكلام الحكومة كله ظلم!

□□□

وأحكي لك حكاية قصيرة تصور لك المدى الذى وصلت إليه قوة الفلاحين نتيجة لهذه السياسات: عندما أممت الحكومة الأراضى أى نهبتها من أيدى أصحابها ووزعت بعضها على بعض الفلاحين كان من بين ما صودر قطعة أرض مساحتها خمسمائة فدان يملكها صديق لنا وقد تركوا له أولا خمسين فدانا ثم اختصروها ثم أكلوها كلها. وصاحبنا أصبح لا يجرؤ على دخول القرية لأن الذين استولوا على أرضه وقفوا له بالنبوت.

وكان لصديقنا صاحب الأرض بيت ريفي جميل تأنق أبوه فى بنائه، وكان البيت يقع فى الأراضي التى أممت أولا، والتأميم لم يشمل البيت. فظل المسكين واقفا مثل تمثال رمسيس في ميدان المحطة ولكن الفلاحين نهبوا سلالمه الرخامية وما تيسر من دلف الشبابيك والأبواب والأثاث. وفي أيام السادات أعيدت بعض الأرض إلى الناس، ومن بينها ارض صاحبنا فذهب ليتسلم أرضه ولكن الفلاحين الذين وضعوا اليد عليها رفضوا تسليمها. وذهب كبيرهم إلى حد أن قال له: حذار أن تقترب من أرضى وإلا راحت فيها روحك وذهب صاحبى إلى العمدة ثم إلى المركز فكانت

الذى يجمع الميرى – وهى الضرائب – وهو فى العادة أبغض إلى قلب الفلاح وكل هؤلاء – وهم عشرات فى كل قرية – عصبة واحدة مع العمدة وشيخ الخفر وكلهم فى أيامنا من الحزب.

ثم يتساءلون: ماذا جرى للفلاح؟ ماذا جرى للقرية؟ كيف يهمل الفلاح الأرض أو يتركها لتصير بورا أو يجرفها أو يحولها إلى أرض مبان وهو فى كل هذه الحالات كاسب، فهو أولا يتخلص من جيش الحكوميين وثانيا يحصل على مال كثير، ويجلس فى المقهى طول النهار والدولة بحنانها الخاطئ تنشئ له الجمعية والمخبز الآلى، والفلاحة نسيت الخبيز وأصبحت ست هانم تجلس على الحصيرة وحولها جيش أولادها يتفرجون على المسلسل، وهم جميعا طول النهار يأكلون والفراخ والحمد لله تملأ البيت ومعها البط وربما الأوز وإذا لم تكن هناك دواجن فى البيت فهى والحمد لله فى الجمعية، وقد كنا ونحن طلبة فى الجامعة ننتظر أصحابنا العائدين من البلد مساء يوم الجمعة لأنهم يحملون الفراخ والبط والجبن والفطير أما اليوم فإن أهل القرية ينتظرون ابنهم المقبل يوم الخميس من المدينة ومعه الخبز والفراخ واللحم وما إليه..

وهذه كلها نتائج التصرفات غير المعقولة التى بدأت من أيام ما سموه الإصلاح الزراعى، فقد بدأت بنهب أموال الناس تحت ستار التأميم، والدولة حارسة القانون أصبحت هادمة القانون، والقدوة المحلية انتهت والفلاح كره الأرض التى تسيطر عليها الدولة، ثم جاءوا بتقليعة خمسين فى المائة فلاحون وعمال وخمسين فئات، ودخلت حكاية الخمسين فى المائة فى كل شيء كأنها البلهارسيا. والذين يعرفون أحوالنا جيدا يعرفون أن أصحابنا الذين دخلوا كل مجلس باسم الخمسين فى المائة – ليسوا فى الحقيقة فلاحين أصلاء بل عمد وأصحاب أملاك وتجار وسماسرة ووسطاء والقليل جدًا منهم زراع حقا. وبدلاً من أن يشيروا على الدولة بالرأى الزراعى الصائب يأخذون التعليمات والأوامر من القاهرة. والواحد منهم يتهادى كالطاووس ويلهف مرتبا شهريا يصل إلى قرابة أربعمائة جنيه فى

النصيحة: أرفع قضية لتحصل على أمر بالاستلام من النيابة ونحن نقوم بتنفيذ أمر النيابة.

ورفع صاحبنا القضية، ومضت القضية تتخبط من جلسة إلى جلسة ومن دورة إلى دورة وفى أثناء ذلك ذهب الرجل إلى القرية وقابل واضع اليد وقال له: صدقنى إننى أنتظر حكم المحكمة ولكنى أريد أن أدخل بيتى لأصلحه كل ما أريده طريق طوله عشر أمتار وعرضه خمسة لأدخل إلى البيت وأخرج منه.

ويقول الفلاح: أتحسبنى عبيطا تقول اليوم إنك تريد خمسين مترا وبعد قليل تصبح مائة ثم تأكل منى الأرض لا والله ما أعطيك ولا شبرا وإذا كان ولابد أبيعك قيراطا من الأرض بعشرة آلاف جنيه.

فقال صاحبى: القيراط بعشرة آلاف جنيه! إذن فبكم يكون الفدان.

- لا يا حلو! أنت تنسى إنك ستأخذ بيتك ضمن هذه الصفقة:

- ولكن هذه الأرض أرضى وفى أى يوم يصدر الحكم وآخذها كلها..

- أبقى قابلنى والله لو حكمت محاكم الدنيا كلها ما سمحنا لك بأن تمس هذه الأرض.

إننى رجل عندى زوجتان وتسعة أولاد.. تريد أن تشردنا؟

وذهب صاحبى إلى المركز، ومن حسن حظه أن ضابط النقطة كان رجلاً شهمًا حرا، فأخذ معه أربعة شاويشية وذهب إلى القرية ودخل عند العمدة، وحكى الحكاية والعمدة تدهور أمام الضابط وبعث يستدعى الرجل. والرجل دخل ووجد نفسه أمام ضابط وعمدة وشاويشية وخفر فزلزل كيانه، وأنكر أنه رفض طلب صاحبى واقسم أنه لو أراد أن يدخل أرضه لبسط له رموش عينيه رده سيدنا وابن سيدنا وتاج راسنا وكلنا خدامينه.

وبأمر الحكومة أخذ صاحبى طريقا طوله عشر أمتار من الشارع العام إلى باب البيت وعرضه خمسة أمتار وقال للرجل:

– لكن يطمئن قلبك يا أبا فلان سأبلط هذا الطريق وأسورة من يمين وشمال وبعد ذلك بشهور صدر حكم المحكمة مشمولا بالنفاذ وذهب صاحبى مع الضابط والعمدة وسلموه الأرض.. وصاحبى طلب إلى العمدة أن يدعوه مع هذا الفلاح ومن يريد إلى غداء عنده. وبعد الغداء قال صاحبى.

– مالك مهموم يا أبا فلان؟ أحسبت أننى سأطردك من الأرض؟ هذا والله لن يكون! ستظل فى الأرض تزرعها وتعيش منها وفيها أنت وقبيلتك ولن أزيد عليك الإيجار، ولكنك أفسدت مساحات كبيرة وبورت مساحات أخرى وبنيت على الأرض الزراعية وهذا حرام، كل هذا سأذيله وأستصلح الأرض وأنا أعرف كيف أكسب من الأرض دون أن أمسك بأذى! أنت فى عينى يا أبا فلان وأولادك أولادى فقم مباركا آمنا إن شاء الله.

□□□

وبعد ثمانية أشهر قال الفلاح: لو كنت أعلم أن سعادة البيك بهذه الطيبة لسلمته الأرض من أول يوم، لقد تحسن حالنا وزاد دخلنا وسعادة البيك يأتينا بالأطباء والرعاية حقا إن أولاد الأصول أولاد أصول.

ولو أن هذه القصة وقعت فى يد كاتب سيناريو للقتافيت لأدخل فيها كل أصناف الإجرام: ولأدخل فيها القتل بالسكاكين والقتل بالرصاص والسم والسيارة وما إلى ذلك بل لأدخل فيها حكاية الحمى التى يمكن أن تصيب الإنسان لمدة ساعة إذا أكل حلاوة بالشطة! وكل هذا يعطى أولادنا الذين لا يعرفون الريف أو الفلاحين فكرة خاطئة جدا عن الريف المصرى وأهله. إنهم يصورنهم أسوأ من المافيا ومن رجال عصابات شيكاجو وكفر أبو شادوف بحسب هؤلاء الكتاب يضم من المافيا ما تضمه كل صقلية وأمريكا!

(٥)
حكاية سوق الخميس*

رأينا في التليفزيون حكاية سوق الخميس في شمالى القاهرة ، وحكاية سوق الخميس هذه ما كان ينبغي أن تكون قضية أو مشكلة إذا لم نكن في مصر ، فهى حكاية سوق أسبوعى كان يقام يوم الخميس من كل أسبوع في ميدان واسع في المطرية أو الزيتون.. لا أذكر بالضبط ، ثم جاء نفر من الأشقياء البلطجية واستولوا عليه بالقوة والإرهاب ، ومدوا العمل فيه من الاثنين أو الثلاثاء إلى الخميس ، وفرضوا على كل تاجر يدخل السوق ببضاعة.. ضريبة قدرها جنيهان في اليوم ، وهذه الجماعة مدت سلطانها على كل تاجر في السوق ، ثم تخطت منطقة السوق الأصلية إلى مسافات واسعة حوله حتى وصلت إلى أبواب مستشفى حكومى جديد أنشأته الحكومة ، وبهذا أصبح من المتعذر بل المستحيل وصول السيارات وخاصة الإسعاف إلى المستشفى ، وقد سمعنا مدير المستشفى يقول إن سيارات الإسعاف والمرضى لا يمكن أن تصل إلى المستشفى أصلاً ، وهو نفسه يحتاج إلى نحو ساعة لكى تصل سيارته إلى مستشفاه.

وسمعناه التجار يشكون من استغلال الأشرار إياهم واضطرارهم إلى دفع الجنيهين يوميا ، وإلا ضربوا وبعثرت البضاعة وحرم عليهم الدخول إلى السوق وهو مصدر رزقهم.

وكالعادة وصلنا إلى المسئولين ، وهم هنا قسمان: رجال الشرطة ورجال المحافظة ومجلس المدينة.

فأما رجال البوليس فيقتصر عملهم – كما قالوا – على توقيع غرامات على التجار المخالفين ، وهى هنا توقع جزافا ، بمعنى أنهم يختارون من

---

* نشرت هذه المقالة في ١٣ سبتمبر ١٩٨٧م .

يدفعون كل يوم على هواهم ، والمهم أنهم يأتون الحكومة بثلاثمائة أو أربعمائة جنيه فى اليوم ، وحاشا لله أن نسأل هنا: كم يستخرجون لأنفسهم؟ فهم - والحق يقال - أبعد ما يكونون عن مظنة السوء.

وحكاية الغرامات هذه هى الموقف البليد الذى يتخذه الكثيرون من رجال الدولة ، بحجة أن «الحكومة عاوزة فلوس» فإذا أنت أخذت ترخيصًا ببناء بيت من عشرة أدوار وبنيت عشرين فإنك تدفع عن كل دور زائد غرامة ألف جنيه مرة واحدة وحيث إن الدور يساوى مبالغ طائلة ، فإن المخالف يدفع الغرامة بكل سرور ، ومادام قد دفع الغرامة فلم يعد لأحد عنده شىء ، وفى شارعنا بيت زاده صاحبه اثنى عشر دورًا ، والبيت بدأ يميل وهاصت الدنيا وأصدرت الحكومة أمرًا بهدم أربعة أدوار، وتمخض الأمر فى النهاية عن الدخول مترًا بالدورين الأخيرين وانتهى الأمر، والبيت مازال قائمًا ، وكان الناس قد أحجموا عن شراء الشقق عندما ثارت الثائرة ، ولكن المسألة كلها هدأت والشقق بيعت ، وصاحب الملك المخالف دخل فى مشروعات أخرى.

ونعود إلى سوق الخميس فنقول: إن المسئولين وهم دائمًا رجال عظام من المحافظات ورجال الحكم المحلى ، كل واحد منهم يشبه دكر البط ، وهم يقولون إنهم اختاروا للسوق أرضًا أخرى ملك وزارة الأوقاف ، وطلبوا إلى التجار الانتقال إليها ولكن التجار لا ينتقلون.

- ومتى إذن يتم النقل يا سيادة وكيل رئيس الحى لكى ننقذ المستشفى؟

- إن شاء الله عن قريب.

- وحكاية البلطجية الذين يستغلون السوق ويهددون التجار؟

– لا تصدقوا هذا الكلام ، لا بلطجية هناك ولا لصوص ، هذا كلام يقوله التجار ، وفي كل محافظة القاهرة الكبرى لا يوجد شيء يسمى بلطجية أو لصوصا.

وهنا أستميح السيد المسئول الكبير لأقول له : – لا.. بل يوجد يا سيدى العزيز ، وخلف محطة مصر ميدان يسمى أحمد حلمى ، كان يستخدم أول الأمر موقفًا للسيارات التاكسى والأتوبيس وما إلى ذلك ، الذاهبة إلى نواحى الوجه البحرى ، وقد تحول هذا الميدان اليوم إلى أسوأ مركز للصوص والبلطجية والمجرمين رأيته ، وقد حدثونى بأمره ، فذهبت إليه فى رفقة رجل ممن يعملون فى محطة السكة الحديد ، فوجدت من أشرار الخلق والبلطجية ما لا يخطر لأحد على بال ، فسواقو التاكسى رجال عصابات ، ومثلهم رجال الأتوبيسات ، وأنت بمجرد أن تدخل الميدان يحيطون بك بمنظر رهيب ، ويسألونك عما تريد: تاكسى؟ أتوبيس؟ ليموزين؟ أو تريد أن تشترى شيئًا؟ لأن الميدان أصبح سوقًا كذلك ، ففيه محلات بضائع ومقاه وأكشاك سندويتش وأكشاك قماش وراديوهات وكافيتريات عجيبة ، وكل ذلك يديره ويستغله رجال عصابات من أسوأ صنف شكلاً وموضوعًا ، ورجال البوليس هناك يمرون ليفرضوا بعض الغرامات ، لأن الحكومة عاوزة فلوس كما قلنا ، والمجرمون ورجال العصابات يقولون إنهم يدفعون مبالغ طائلة ، لمن؟ أرجو ألا تحرجنى أرجوك ، ومن طريف ما رأيت هناك أمين شركة يلبس كاسك (غطاء رأس) معدنيًا أبيض كتب على مؤخرته : لا إله إلا الله محمد رسول الله – بالصاد!

فهنا يا سيدى المسئول الكبير فى قلب قاهرتك الكبرى يقوم هذا المركز الرهيب للإجرام ، فوفر على نفسك كلامك لأنك تعلم أنه غير صحيح ، ونحن المساكين – رعاياك أو ضحاياك – نعرف الكثير جدًا ونسكت ، ومثلنا فى ذلك مثل تجار سوق الخميس.

ومشكلة سوق الخميس هذه لن تحل ، لأن المسئولين عن حلها لا يعرفون: من الإدارة إلا الجلوس إلى المكتب ، والنظام الإدارى الذى نسير عليه لا يمكن أن يحل مشكلة ، لأنه لم يوضع بناء على تفكير أو تخطيط، إنما هى وزارات وهيئات متجاورة ، وكل منها تعمل لحساب نفسها ، ولو سألت نفسي: من المسئول عن الشارع الذى أعيش فيه لألجأ إليه ساعة الحاجة؟ لوجدت أن كل وزارات الدولة مسئولة وغير مسئولة فى نفس الوقت عن الشارع ، ولهذا فنحن ضائعون ، ثم إنك ينبغى أن تعرف كيف تدير ، وليس هناك أسهل من الإدارة والتنفيذ لمن يعرف كيف يدير ، فالمهم هنا أن نذكر أن هدف الإدارة هو حل المشاكل لا مجرد كتابة خطابات ، وقد توليت إدارة الأشياء ثلاث مرات فى حياتى ، وكنت قد تعلمتها على يد أستاذ فى فن الإدارة ، وهى تقوم على ثلاث قواعد : الأولى هى إخراج نفسك من الموضوع ، فلا يكون لك صالح فيه ، فأنت مدير لكى تسير أمور الناس ، لا لكى تخدم نفسك ، والثانية هى أن تقسم المشاكل الموجودة فى الإدارة التى تتولاها إلى قطع صغيرة ، وتحل كل واحدة على حدة ، والثالثة هى أن توالى العمل بنفس الهمة والنشاط يوما بعد يوم فلا تهبط قواك ، ولا تغفل عينك ، ولا تختفى عنك مشكلة ، وأضرب لك مثالا لذلك يوضحه : عندما توليت إدارة معهد مدريد للمرة الأولى ، وجدت المسألة فوضى بلا حدود ، فهناك مسائل حيوية خاصة بمبنى المعهد لم تُحل من ثلاث سنوات ، وصاحبة المبنى سيدة طيبة ، وهى تنبهنا إلى ضرورة إصلاح الكهرباء لأن المعهد يستهلك من الكهرباء أضعاف ما كان يستهلكه المبنى عندما كان مجرد سكن ، والمسئولون عن المعهد قبلى كانوا يقولون إن مسئولية الكهرباء تقع على صاحبة البيت ، وعليها هى أن تقوم بها ، ولكنى كنت أجد أن التيار ينقطع مرتين فى

الأسبوع على الأقل ، ونضطر إلى استقدام كهربائي ، وقد حسبت ما دفعناه للكهربائي في ثلاثة شهور ، فإذا هو يزيد على تكاليف تقوية التيار ووضع «تابلو» جديد وسلوك جديدة ، فقمت بالإصلاح في الحال ، وحلت هذه المشكلة إلى غير رجعة ، ثم نظرت إلى طلاب المعهد وقسمتهم إلى قسمين: طلاب بعثات ، وهؤلاء لا مشاكل لهم تقريبًا ، وطلاب الإجازات الدراسية، ولكل واحد من هؤلاء مشكلة ، ونظام طلاب الإجازات الدراسية كله لا يعجبني ، ولكنني قلت ليس هذا وقت علاج مشكلة ضخمة كهذه ، وأنا عندي ستة طلاب إجازات دراسية.. فلأحلها الآن حتى أتخلص من ست مشاكل ضخمة فعلاً ، فلا يمر يوم إلا تراهم أمامك في المعهد يشكون ويطالبون ، فسعيت حتى حصلت على منح دراسية لثلاثة منهم ، ثم حصلت على عمل لواحد في مدرسة الألسن الأسبانية ، ووجدت أعمالاً للاثنين الباقيين في غرناطة ، ونبهت عليهم ألا يضايقونا في المعهد بعد ذلك ، ومن غريب الأمر أنني بعد أن استرحت من هؤلاء جاءني خطاب من الوزارة يطلب وضع طلبة الإجازات الدراسية تحت الإشراف العلمي لمكتب البعثة ، وكان هذا ظلمًا بينًا لطلبة البعثات، لأن المستوى العلمي لصاحب الإجازة الدراسية غير معروف ، وهو هابط في الغالب ، فرفضت، وتصادف أن زارنا وكيل الوزارة فشرحت له الأمر وأقنعته بضرورة إلغاء هذا القرار الذي كان قد صدر مجاملة لبعض المسئولين ، ثم التفت إلى الحسابات وكانت فوضى بلا ضابط ، فذهبت إلى البنك ومازلت أدرس هناك مع المسئولين حتى أنزلتها من تسعة حسابات إلى أربعة ، وذكرت أن كاتب الحسابات في لجنة التأليف والترجمة قال لي مرة: الحسابات يا فلان بندان: منه وله ، وأنا عندي دفتر الأستاذ هذا، والصفحة التي على اليمين هي صفحة الوارد ، وعلى اليسار صفحة

المنصرف ، ففى أى لحظة أنظر فأعرف كم عندى ، فأنشأت عندى أربعة دفاتر أستاذ وصرت أقيد الوارد والمنصرف من كل حساب ، واستراح بالى من هذه الناحية ، وفعلت مثل ذلك بالمكتبة والمطبعة والموظفين ، فانتظم كل شيء واستراح بالى ، وصارت الإدارة لا تأخذ منى إلا قدر ساعتين فى اليوم ، وتفرغت بعد ذلك للعمل العلمى ، واختفت من عندنا عبارة «سأكتب للوزارة لأرى ما تقرر فى ذلك الموضوع» لأننى اضطلعت بالإدارة بالطريقة المنهجية السليمة.

ومشكلة سوق الخميس يمكن أن تحل إذا أراد المسئولون حلها فعلاً ، ولو كانت مكان المسئول الأعلى هناك لقمت بحلها على الوجه التالى :

لقد اخترنا مكانًا آخر ملك وزارة الأوقاف لتنقل السوق إليه ، وجعلنا ندعو الناس إلى الانتقال إلى الموضع الجديد ، وهم لا ينتقلون لأنهم اعتادوا على السوق القديم ، ثم كيف ينتقلون؟ هل هم جماعة متعارفة متواصلة؟ إنهم تجار من الشرق والغرب لا يعرف أحد منهم أحدًا ، فكيف ينتقلون؟

وكنت أبدأ بالبلطجية والمجرمين الذين يسيطرون على السوق. وعيب أن يقول المسئولون أنهم غير موجودين ، فهم موجودون فعلاً ، ورجال الشرطة يعرفونهم واحدًا واحدًا ، ورئيس الحى يستطيع القبض عليهم فى يوم واحد إذا أراد ، ويستطيع كذلك التحقيق معهم ، لكى تتبين الجرائم التى يرتكبونها ، ثم يقدموا للمحاكمة.

وهذه بديهية : إذا كان هناك ناس يعتدون على أمن الناس ويعيشون بإخافتهم وابتزاز أموالهم فلابد من القبض عليهم وعقابهم.

إذن فلماذا لا يقبض عليهم ويتم القضاء عليهم فى سوق الخميس وفى ميدان أحمد حلمى؟

الجواب: هو أن الذين يقع عليهم هذا الواجب لا يريدون ، ومن المستحيل أن أقول إنهم لا يستطيعون ، فهذه إهانة كبرى لهم كرجال دولة.

وأنا عندما كنت في ميدان أحمد حلمي كان دمي يغلي لأنني أرى أن ناسًا مثل هؤلاء يعيشون ويذلون الناس ويعتدون عليهم ويعيشون على دمائهم ويظلون أحرارًا ، ويتصرفون بجرأة ووقاحة هي في ذاتها إهانة للوطن كله.. وتصادف أن مر رجل من تلاميذي يعمل في النيابة ، فعرفني وحياني ، وسألني عما أفعل هناك ، فأشرت إلى بلطجي من هؤلاء يعمل سائق تاكسي ولا يريد أن يعطي فلاحًا أتى معه من الريف حقيبته إلا إذا دفع ثلاثة جنيهات فوق المتفق عليه ، فمضى الرجل إليه ونادى ضابط شرطة وعرفه بنفسه وطلب إليه أن يقبض على هذا السائق ويأخذ منه الحقيبة ويعطيها للفلاح ، والبلطجي أمام ضابط البوليس ورجل النيابة ارتعد وسلم الحقيبة للفلاح وهو يقول بوقاحة:

– خذ ، والله لولا سيادة الضباط لما تركتها لك بأقل من عشرة جنيهات يا حلوف.

ولم يطق الضباط صبرًا على إهانة المواطن الفلاح ، فصفع السائق على وجهه صفعة مدوية وقال له: أتشتمه أمامي يا كلب؟!

وانهار السائق المتجبر وجعل يعتذر فقال الضابط للفلاح: من أين أتى بك؟

– من أشمون

– وكم أخذ منك؟

– اتفقنا هناك على جنيهين ولكنه أخذ مني هنا خمسة!

فالتفت الضابط إلى السائق وقال له: أنت سواق أو حرامي؟ أعطه الجنيهات الخمسة.

فقال السائق البلطجي:

– ثلاثة فقط، لأن الاتفاق كان على جنيهين.

– تعطيه الخمسة لأنك لست سائقًا بل أنت لص.

وأخذ الرجل حقيبته والخمسة الجنيهات ومضى.. وأنا أحكي هذه الحكاية لأدلك على هيبة البوليس والحكومة في قلوب المصريين عامة.. وأنا أقول إنني لا أعرف بلدًا في الدنيا يتمتع فيه رجال الإدارة وخاصة رجال الأمن – بسلطان وهيبة كما هو الحال في مصر. والعمدة وشيخ الخفر يتمتعان في كل قرى مصر بسلطان عظيم وهيبة بالغة، وإذا حسم رجال الحكومة أمرهم انتهت مأساة سوق الخميس في يومين.

فلماذا لا يحزمون رأيهم؟

الحقيقة أن التركيبة الإدارية المحلية عندنا غير سليمة، فعلى رأس الإدارة المحلية في كل ناحية تجد لواء سابقًا في الغالب، ولا بأس باللواء في ذاته، ولكن المشكلة هي أن اللواء بعد أن ينتقل إلى السلك المدني يظل يتصرف على أنه لواء، واللواء لا ينزل إلى الناس ولا يهبط إليهم، ومن ثم فهو لن يحل مشاكلهم، وفي ذات مرة غرقت الأرض في شارع يسكنه صاحب لنا في حي المهندسين، فذهبنا لكي نقابل سيادة اللواء وكيل الحي، فوجدنا له سكرتيرًا انتظرنا عنده حتى أدخلنا إليه وقصصنا قصتنا، فضرب الرجل تليفونًا لشخص يسمى داود، ثم وضع السماعة وقال: تذهبان الآن إلى الأستاذ داود في الدور الثالث، إنه المختص بشئون المياه، وكان صاحبي منزعجًا جدًا من فيضان الماء حول بيته. فأراد أن يستعطف سيادة وكيل الحي فقال:

– سيدى ، سيارتى على الباب وكنت أحب لو تفضلت فرأيت بنفسك العناء الذى نعانيه.

ردهش السيد اللواء وقال: تريد أن آتى معك بنفسى لأرى انفجار مواسير الماء عندك؟.. أما يكفيك أننى كلمت المسئول؟

وذهبنا إلى داود أفندى فلم نجد عنده أى حل ، لأنه يتلقى مثل هذا التليفون عشرات المرات فى اليوم ، وعدنا كأننا لم نذهب أو نقابل أحدًا.

لهذا فأنا عندما أرى أو أسمع عن مشكلة من مشاكل الأحياء عندنا أعرف مقدمًا أنها لن تحل ، لأن التركيبة الإدارية فى الحكم المحلى عندنا متناقضة متضاربة ، وهى لهذا عاجزة عن عمل شىء ، وكل ما نسمع هو قولهم: إن شاء الله بعد أسبوعين ستكون هذه المشكلة قد حلت ، ولكنا نعرف أنها لن تحل ولا فى سنتين ، ومازلنا إلى الآن فى مأساة الشوارع التى نمهدها ونغطيها بالأسفلت ، وفى ثانى يوم يجىء رجال الكهرباء ليحفروا الأرض ويضعوا مواسير أسلاك الكهرباء ثم يتركوا الشارع فى حالة هى أسوأ مما كان عليه قبل الأسفلت.

ومرة أخرى أعود إلى مشكلة سوق الخميس فأقول:

إن السيد وكيل الحى بدلاً من أن ينكر وجود اللصوص والبلطجية عليه أن يقر بوجودهم ويبدأ بالقضاء عليهم.

بعد ذلك عليه أن يذهب بنفسه مع رجاله إلى أرض السوق الجديدة التى يريدون أن ينقلوا السوق إليها ويعاينها ، ثم يأخذ اثنين من مهندسى التخطيط ويطلب إليهما أن يرسما مشروع سوق جميلة من دورين ثلاثة حول هذه المساحة مع مراكز للبيع فى وسطها. وكلها مهندسة بنظام واحد ذى شكل فنى بديع ، لأننا سنؤجرها للتجار.

وبعد ذلك ، وبالاتفاق مع المحـافظ ، يدبر المال اللازم لإنشاء هـذه السوق، ولا بأس باستدانة المبلغ من أحد البنوك لأن إيجار دكاكين هـذه السوق الجديدة بالسعر المعقول ، سيمكن مـن استرداد مـا أنفـق فـي أمـد قصير.

وبعد تمام إنشاء هذا السوق. ويضم مئات المحلات المنشأة بنظام جميل واحد ، يدعى تجار السوق القديمة إلى تأجير المحلات في السوق الجديدة بأسعار عادلة معقولة ونظام محكـم. ويكـون ذلـك قبـل الانتقـال بشـهرين مثلاً، وفي أثناء الشهرين نكون قـد وضعنـا نظامًـا حضاريًـا لأرض السوق القديمة ، ونحرص على ألا يحتله ناس جدد ، ونستطيع أن ننشئ فـى أرض السوق القديمة حديقة أو مكتبة وملعبًـا للأطفـال والشـباب. ونشـىء الطرق إلى المستشفى حتى يستطيع أن يؤدى وظيفته على أحسن حال.

هكذا نستطيع التنفيذ لو كنا نريد أن ننفـذ فعـلاً. وكلامـى هنـا موجـه للسيد مدير المستشفى الذى يقتله سوق الخميس ، وهـو يسـتطيع أن ينفـذ هذه العملية أو يسعى فى تنفيذها إنقاذًا لمستشفاه.

وأنا أقول هذا لأن التركيبة الإدارية عندنا عاجزة فعلاً عن عمل شيء ، ولهذا فإن البلد يتدهور ، لأننا لا نريد أن نتعلم كيف نعمل وكيف ننفذ ، ومن غير المعقول أننا حيثما نظرنا وجدنـا تعديـات علـى أرض الحكومـة. وبيوت تطفر من تحت الأرض ويسـكنها نـاس بغـير مرافـق ، وبعـد ذلـك يبدأون فـى الـزن طـالبين المرافـق ، ومـع أن المبـانى كلـها بنيسـت دون تراخيص، وهى غير صالحة أصلاً للسـكنى ، فإننـا فـى النهايـة نخضـع للناس ونعترف لهم بملكية هذه البيوت ، ونصبـح مدينـين لهـم بـالمرافق. وكل الذى ينقصنا هـو نظـام إدارى سـليم متجـانس. ورجـال مخلصـون ، وحزم فى العمل ، وما نظن نحن أنه حنان أو رفق بالنـاس هـو نـوع مـن الإفساد لهـم ، لأن الجماهـير كالأطفـال تحتـاج إلى حـزم فـى التربيـة ،

والحنان الجاهل يفسدها. وأذكر بهذه المناسبة أنه حدث ذات يوم أن رجلاً أتى بمشنة فيها بعض الفاكهة ، ووقف يبيع إلى جانب مدخل بيتنا، وفي اليوم التالي أتى واعتاد عليه الناس ، والمشنة أصبحت أقفاصًا، وهنا تنبهنا ، وفي ذات يوم بلغنا عن طريق أحد البوابين أن الرجل تقدم بطلب ترخيص لبيع الخضر والفاكهة في مدخل البيت ، وهنا اتصل بنا مدير البيت ورئيس هيئة الملاك واستأذننا في العمل ، والرجل في ذاته ذكي وحاسم ، وكان البياع قد تعود على أن يترك أقفاصه والدكة التي يجلس عليها في الليل في مكانها حتى يعود في الصباح ، فأتى المدير برجال أزالوا ذلك كله ولم يبقوا له على أثر ، ووقفوا ينتظرون الرجل ، وأتى في الصباح ومعه عربة فيها خضاره وفاكهته فلم يجد شيئًا ، فأقبل يسأل الرجال فقالوا له: من أنت؟ وماذا لك هنا؟ ومضى يصرخ ويحتج ، وهم يقولون له إننا لم نرك أصلاً ، ولا تقف هنا بحال ، وهددوه أن يبعثروا بضاعته إذا هو لم يذهب، ومضى الرجل إلى القسم ، وكنا قد أبلغنا الضباط فلم يكترث به أحد واختفى.. ثم تبين لنا فيما بعد أنه دفع ألف جنيه لكل واحد من ثلاثة من بوابي البيت ، وأثبتنا الواقعة وأبلغنا إدارة التأمينات الاجتماعية وطردناهم. ولو سكتنا لأصبحنا الآن في مشكلة ، لأن هذا الرجل كما ترى لئيم خبيث ، وهو ليس بفقير كما نظن فهاهو ذا يعطي الآلاف. ومعظم من ندفع الملايين لندعم الطعام والملابس وبقية حاجيات العيش لهم لا يستحقون هذا الدعم ، والحنان عليهم حنان كاذب يضرهم ولا ينفعهم ، ولكن سياستنا مع أولئك الناس عتيقة وبالية ، ولابد من تغييرها. والبلاء الذي نعانيه من مشاكل التعليم ناتج عن حناننا المؤذي على من نحسب أنهم الكادحون ، وهم ليسوا بكادحين. والمدرسة الثانوية ينبغي أن تكون بمصروفات إلا للنابغة الذي يستحق أن يتعلم في الثانوي ولكن دخله لا يعينه ، هكذا كنا في الماضي. وأنا وأمثالي لم ندفع شيئًا في التعليم الثانوي بعد السنة الثالثة الثانوية لأننا أثبتنا بالعمل أننا نستحق الإعفاء من المصروفات ، وكل الذي عملناه في الإصلاح التعليمي

الأخير هو إرغام الساقط على دفع المصروفات ، وهذا شيء طيب ولكنه قليل ، ومن المؤسف أن المدرس يتقاضى اليوم ما بين خمسة جنيهات وعشرة في الدرس الخصوصي ، ويبقى التعليم كله مجانًا ، وليس التعليم فقط بل الكتب والكراسات أيضًا ، وإنه لمن سخرية القدر أن الطالب يدفع في المدينة الجامعية خمسة جنيهات عن السكن والطعام الكامل مدى شهر، ثم يذهب فيدفع عشرين أو ثلاثين جنيهًا ليتفرج على الواد سيد الشغال.

الأسواق الأسبوعية في بعض الميادين في المدن الأوروبية موجودة ، وعندما كنت في برلين الغربية آخر مرة زرت سوقها في الميدان واشتريت منه أطعمة ولكنها أسواق متحضرة يتاجر فيها ناس متحضرون.. وفي الساعة الواحدة بعد الظهر تمر في الميدان فلا تصدق أنه كان هنا في الصباح سوق: لا ورقة ولا قشرة فاكهة ولا علبة فارغة ولا قطرة ماء ، كل تاجر - أو تاجرة - حمل متاعه ونظف مكانه ومضى ، وفي مدينة بازل بسويسرا سوق يقام ثلاث مرات في الأسبوع في أجمل ميادين البلد وإحدى هذه المرات يوم الخميس ، ولكنك تمر في الواحدة بعد الظهر فلا ترى أثرًا، والميدان نظيف يشرح الصدر لأن الناس متحضرون. ولأنهم متحضرون فإن القانون عندهم محترم وحاسم ، والرجل المسئول مسئول حقًا ، وهو شخصية من البلدية عليه قيمة وهيبة ، ولا يخطر بالبال أن يقال له إن هناك بلطجيًا أو مجرمًا فيقول: لا بلطجية هناك ، ثم إن البلطجي لا يمكن أن يوجد هناك لأن التجار متحضرون ، ولأنهم متحضرون فإنهم يأكلون بأسنانهم أي إنسان يفكر في استغلال أحد منهم أن تهديد أمنه ، لأن الرجل المحترم المتحضر لا يقبل الظلم أو الإهانة ولا يسكت على العدوان..

(٦)

تحت مستوى الجهل*

أعتقد أن أحدا لن يغضب إذا قلت إن مصر من أفقر بلاد الله تعالى ، فهذه حقيقة تعرفها الدنيا كلها ، ويعرفها كل من يبحثون عن الحقائق ويجدون الشجاعة على مواجهتها ، ويعتبرون هذه المواجهة الخطوة الأولى للنهوض بهذا البلد من المتاعب التي يعانيها ، أو من بعضها على الأقل.

والكثيرون جدا من رجال الإدارة ، خاصة أولئك الذين لا يعرفون عن الإدارة شيئا ، الوظيفة عندهم درجة مالية ومكتب وغرفة وسكرتارية ومنظر وكلام بدون عمل.

أما الذين يؤمنون بالعمل ويحبون هذا البلد ، فيعرفون أن هذه حقيقة ، فنحن بلد يتخطى الخمسين مليونا من البشر ، والزيادة مستمرة دون حساب. ومن هؤلاء الملايين لا أقل من عشرين مليونا في حالة فقر مدقع يعانون في حياتهم من الآلام ما لا تعرف كيف يتحملونه ، فإن أرزاقهم قليلة جدا ، ولا يعينهم على البقاء إلا أن الخبز ميسر في هذا البلد ، وإذا لم يكن لديهم المال الكافي لشراء حاجتهم من الخبز ، فإن الناس في بلادنا فيهم كرم وإنسانية ، خاصة بالخبز ، وفي بلدنا لا يموت أحد من الجوع ، ولا ينام كما يقولون بدون عشاء ، إنما الخلاف على العشاء ، فالقليلون جدا من أبناء وطننا يتناولون عشاء ممتازا أو طيبا أو كافيا ، ولكن الملايين لا يحصلون إلا على الخبز القفار أو يجمعون طعامهم من أكوام الزبالة ، وفي أحياء القاهرة الفقيرة وفي قرى الريف كثيرون جدا يملأون بطونهم بأي شيء لكي يستطيعوا النوم.

---

* نشرت هذه المقالة في ١٥ نوفمبر ١٩٨٧م .

وعدد كبير جدا يعانون الفقر البالغ بسبب الجهل البالغ ، وإن كانت لهم موارد فمع مواردهم القليلة نجدهم يتزوجون دون تفكير أو تدبير ، وهم ينجبون أطفالا دون حساب ، وكلنا نعرف هذا الطراز من فقراء بلدنا الذين يعيشون فى الشارع فى ظلال الحيطان ، ومعهم أطفال فى الغالب كثيرون يعيشون من الهواء ، وأنا طول حياتى أرى هذا الطراز من المواطنين ويفيض قلبى حزنا عليهم ، ولكنهم هم أنفسهم لا يحزنون ولا يحسون ، فهم يعيشون كأنهم قطط تعودت على العيش دون قلب أو تفكير.

والغريب جدا أن بعض أولئك الفقراء جدا يتدللون على الرزق أى أن الغفلة عن شئون الحياة ومطالبها تجعلهم لا يهتمون حتى بالرزق ، لأنهم واثقون من أنهم لن يموتوا جوعا ، ونحن الذين نعرف صراع الحياة ونقضى أعمارنا فى الكفاح فى سبيل العيش الكريم ، لا نصدق ما يفعله أولئك الناس ، ومن أمثلة أولئك الناس رجل فقير مدقع كان يأتينى مرة فى الأسبوع ليعين على نظافة البيت. وكان يقضى عندى ساعتين أو ساعتين ونصفا ويتقاضى عشرة جنيهات ، وهو مبلغ لا بأس به ، يكفى حاجاته لمدة يوم على الأقل ، ولكنه أكثر من مرة يهمل المجىء لمجرد أنه كسول أو لا مزاج له ، وأول مرة تغيب فيها قلقت عليه ، وكان بيته فى طريق عملى ، فمررت به لكى أطمئن عليه ، فوجدته جالسا مع صاحب له إسكافى يشرب الشاى ، فسألته عن سبب عدم قدومه فقال دون اكتراث : لا تؤاخذنى.. لقد وجدت نفسى كسلانا اليوم.. لم يكن عندى مزاج.. آتيك غدا إن شاء الله.. بهذه البساطة يترك هذا الرجل عشرة جنيهات كانت فى متناول يده ، وهذا مثال من أمثلة الجهل المركب الذى يتصف به أولئك الناس.. فإن الجهل العادى هو خلاء الذهن من المعلومات ، المكان الذى تحتفظ فيه بالمعلومات فى ذهنك تجده خاليا عند أولئك الناس.

ولكن أصحاب الجهل المركب في مصر لا يكون ذهنهم خاليا بل مليئا بمعلومات خاطئة أو ضارة.

ولكى تعلم الواحد منهم شيئا ، يجب أولا أن تفرغ ذهنه وتنظفه من هذه البلاوى التى تملؤه. وأسوأ هذه البلاوى هى الخرافات التى يؤمنون بها، وأولها أن الإنسان مهما فعل فهو لن يستطيع - ولا يجوز له - أن يغير ما كتب عليه. فالعلم لا قيمة له ، والعلاج بالطب لا ينفع ، والعقاقير والوصفات البلدية هى الطب ، وعلى الإنسان أن يترك نفسه بين يدى الأقدار تعمل به ما تشاء ، فإنه لن يستطيع أن يغير شيئا مهما فعل. لهذا نجد الواحد منهم ينزل إلى ماء الترعة الموبوء بالبلهارسيا ويستحم فيه ويقول: هل تصدق ما يقولونه لك من أن البلهارسيا تأتى من هذه المياه؟ وهل معقول أن الله سبحانه يخلق ماء موبوءا؟ تعال يا شيخ ولا يهمك ، وما كتب عليك لابد أن يكون ، وهل تظن أنك إذا لم تنزل الماء فإنك لن تمرض؟ كلام فارغ!..

وهذا الطراز من الجهل المركب الشرير يرثه أولئك الناس من بيوتهم ، ويؤكده فى أذهانهم شيوخ مشعوذون ممن يلوذون بمن يسمونهم الأولياء والصالحين ، وهؤلاء المشعوذون أجهل من الناس ، ولكنهم مكارون لؤماء ، وهم لهذا يسيطرون على أذهان أولئك الناس ويملأون أذهانهم بأمثال بلدية كلها جهل وخرافات.

وتلك هى مشكلة الجهل الكبرى فى مصر. إنه جهل مركب معقد. إنه جهل إيجابى فعال وضار! وانظر إلى الأحياء البلدية وأكوام الأطفال والأولاد فيها. مهما قلت لهم فهم لن يتوقفوا عن الإنجاب أبدا. وما رأيت مشهدا من مشاهد الفقرة التليفزيونية المسماة «ريبورتاج» إلا أذهلتنى كثرة الأولاد فيها. لا يمكن أن يقل عدد الأولاد فى كل عائلة عن ستة أو سبعة.

وهؤلاء الأولاد يبدون فى العادة كالعفاريت ، لأن أحدا فى الحقيقة لا يربيهم ، وكلهم يذهبون إلى المدارس ، وهناك لا يتعلمون إلا القراءة

والكتابة على الأكثر ، لأن الولد لا يتعلم إلا إذا كان معه أمه وأبوه يشاركان فى عملية التعليم. أما الاحتشاد في المدرسة عددا من الساعات فى اليوم ثم العودة إلى البيت وإلقاء الكتب فى ركن من أركان البيت إلى اليوم التالى والانقضاض على موائد الطعام يلتهمون كل شيء ، واللعب فى الطريق بعد الظهر والمساء ، وأحيانا بالليل ، فلن يخرج متعلمين أبدا. وهؤلاء هم فواقد التعليم. هؤلاء هم الذين يقضون فى كل فصل ثلاث أو أربع سنوات ثم يخرجون فى النهاية بلا شيء ، غاية ما يبلغونه - إذا بلغوا شيئا - هو الابتدائية ، وأحيانًا قليلة جدًا الإعدادية. أما الذين يفلتون منهم إلى الثانوى والجامعة فهؤلاء كوارث ، هؤلاء هم الذين يعطونك أمثلة الخريجين الذين يسيئون التصرف فى كل وظيفة يتولونها.

هؤلاء هم الفقراء الأبديون. هؤلاء هم فقراء اليوم والغد. هؤلاء هم الذين يملأون أحياء كاملة كاملة من القاهرة ومدن مصر وقراها ، هؤلاء هم كارثة مصر الكبرى ، هؤلاء هم أساس التأخر الذى تعانى منه بلادنا ، هؤلاء هم الذين يخرجون فى مصر كل جديد وجميل ، هؤلاء هم الذين أرادوا أن يخربوا مترو الأنفاق من أول يوم لأنه شيء رفيه وتقدمى وجميل وهم لا يحبون أى شيء من هذا الطراز بسبب جهلهم العميق الإيجابى المعقد.

وإذا نحن أردنا أن نعالج مآسى مصر القومية والحضارية ونخرج بها من كهوف التأخر ، فعلينا أن نواجه مشاكل هؤلاء مواجهة علمية شجاعة مدروسة ، لأن التعليم في المدارس بالطريقة التى نسير نحن عليها اليوم لا يجدى معهم ، ومن التليفزيون لا يرون إلا الإعلانات والمسلسلات ، أما إذا كانت هناك مواد ثقافية أو فكرية فهذه لا تعنيهم فى شيء لأن الجهل هنا جهل عميق متين. وهو معشش فى الأذهان متمكن منها ، ولابد من طريقة ما للتخلص منه - أو تخفيف مضاره على الأقل - إذا كنا نريد لهذا البلد أى خير حقيقى.

والسبب فى فشلنا أمام أولئك الناس هو أننا نحاول النهوض بهم بالأساليب التقليدية: التعليم في المدارس ، وقد فشلت المدارس معهم ، وأنا من بين أولئك الناس الذين بذلوا معظم أعمارهم فى مسائل التعليم ، ولم أتبين خطورة هذه المشكلة واستحالة الوصول إلى حل لها بالطرق العادية إلا في السنوات الأخيرة..

والذى لفت نظرى إلى الطابع الخاص لأولئك الناس هم - بصفة خاصة - الشغالون وبعض العمال والفلاحين ، ومن شهور قليلة كنا نقترب بالسيارة من مبنى هيئة الكتاب على كورنيش النيل ، ومن خلفنا جاءت سيارة أوتوبيس منطلقة فى طريقها كالسهم المارق ويد السائق على الكلاكس يملأ به الجو ضجيجًا. والمنظر كان مفزعًا حقًا ، وقد سلم الله فانزوينا إلى طرف الشارع الأيمن ومرت السيارة الضخمة من جوارنا ، وقال لى صاحب سيارتنا - وكان يقودها - إن السائق الشيطان كان يضحك كأنه يلعب بالأتوبيس الرهيب وبأرواح الناس. ولم تنقض لحظات حتى وقعت الكارثة ، فإن الأوتوبيس صدم سيارة نقل محملة آتية من الناحية الأخرى، ومات في الكارثة سائق عربة النقل وتحطمت سيارته ، ومات ثلاثة من ركاب الأوتوبيس وجرح نحو عشرين.

واستفزنى المشهد المفجع فاقتربنا بسيارة صديقى حتى أصبح مشهد الحادث كله على مرأى منا. رأيت سائق سيارة الأوتوبيس ينزل بين يدى البوليس الذى تجمع عند الحادث كما هى العادة ، هذا الشيطان لم يصب إلا فى أنفه وركبته ، وكان الدم يسيل ورأيته يستغيث ويطلب لنفسه الإسعاف ، وبعد أن اطمأن إلى سلامة نفسه جلس على الأرض ثم انبطح على ظهره وتصنع الإغماء ظنًا منه أن هذا ينجيه من المسئولية. ولكن هذه الحيلة لم تنطل على واحد من ضباط البوليس شهد هذا الحادث واشترك فى عمليات الشرطة الخاصة به.. وانتظر الضابط حتى قام المرضون

بتضميد أنف السائق وركبته ، فلما فرغوا أمره الضابط بالنهوض ، فلما تمادى فى تصنع الإغماء لطمه على وجهه فأفاق ، ثم جبذه من يده فأقعده. وإلى أن تتخذ الشرطة إجراءاتها لإحالة هذا الرجل إلى النيابة سمعته يقول:

– نيابة إيه يا حضرة الضابط؟ ده قدر.. ربنا عاوز كده؟!..

– لقد مات أربعة فى هذا الحادث وجرح فوق العشرين بسببك!..

– بسببى أنا؟ هذا أمر الله يا حضرة الضابط ربنا عاوز كده. مش كفاية اللى جرالى؟ اعملوا معروف سيبونى أروح لأولادى ، إننى أجرى على سبعة وأمهم..

وصاح فيه بعض الركاب: ألم تكن تجرى كالمجنون بالسيارة وتضحك؟ ألم نقل لك بدل المرة مرات أن تهدئ السرعة وتتعقل؟ أنت مجرم ومسئول عن كل ما جرى ، أنت تستحق قطع رقبتك..

والرجل تصنع البكاء وجعل يقول للضابط: مظلوم يا سعادة البيه ، والله مظلوم ، والله كنت أسوق بغاية العقل والمسئول هو سائق الكاميرون.. هؤلاء كلهم كذابون يا حضرة الضابط. ارفقوا بعيالى يرحمكم الله ، وهذه إرادة الله سبعة وأمهم من يطعمهم؟

انتهى ما شهدته وسمعته من هذا المنظر الرهيب.

وقد فكرت فيه طويلاً بعد ذلك ، فهو لم يكن حادثًا مفردًا ، بل مأساة تتكرر كل يوم.. وهذا السائق دون شك من أبناء هذه الطبقة الجاهلة جهلاً معقدًا مركبًا.. ومنظر وجهه ممسوح سخيف لا يحمل أى معنى يتوسطه شارب كأنه ذيل غراب.

وليس في وجه هذا الرجل أي شعور بالمسئولية ولا أنا أحسست فيه بشيء من الألم ، لقد قاد الحافلة الضخمة قيادة المجنون وجرى بها يضحك ويضرب «الزمارة» كأنه طفل وهو لابد يفعل ذلك دائمًا.

وهو عندما ينطلق بالسيارة يشعر كأنه طفل بيده لعبة ، وعندما تجرى السيارة والكلاكس تحت إصبعه يسعد إذ يرى الناس يقفزون يمنة ويسرة هربا من الموت ، وأنه ليس مواطنا مثلي ومثلك ، إن أحدا لم يعلمه شيئا فهو تربية شوارع حصل على الإعدادية ثم تعلم قيادة السيارات واشتغل سواقا وقدروا له راتبا كبيرا لم يجتهد في تحسين حاله أو رفع مستواه ، إنما العمل الوحيد الذى عمله هو أنه تزوج وأخذ ينجب حتى أصبح أولاده سبعة والبقية تأتي ، لقد قتل ثلاثة وجرح فوق العشرين ولكنه لم يشعر بأية مسئولية عما فعل لأن الشعور بالمسئولية ينشأ عن التربية والتكوين ، ورغم كل ما فعل لا يزال يتصور أن من الممكن أن يخلوا سراحه دون أى عقاب ، فالذى حدث قضاء وقدر ولا دخل له فيه ، ربنا عاوز كده ، وهل يستطيع مخلوق أن يعترض على قدرة الله سبحانه وتعالى؟

بهذا التركيب العقلى والنفسى لا يمكن أن يكون مثل هذا الإنسان مواطنا نافعا لنفسه أو وطنه ، إن شيئًا فى الدنيا لا يربطه بى أو بك ، فنحن مرتبطون بهذا البلد ، نحن نشعر أننا مواطنون مسئولون عن الوطن والمواطنين ، لأننا نعرف أننا لا يمكن أن نكون سعداء ما لم يكن بقية المواطنين سعداء ، أما هو فلا يشعر ، تلك هى المشكلة التى أريد أن أعرضها فى هذا المقال لأنها ليست مشكلة أفراد ، بل هى مشكلة قطاع عريض جدا من هذا الشعب يبلغ الملايين الكثيرة ، ونحن لا نستطيع أن ننهض بوطننا إلا إذا أنهضنا معنا هذا القطاع الضخم من المواطنين.

لكى أصور لك المسافة التى تفصل بيننا وبينهم أصف لك زيارة قمت بها إلى محل من محلات صنع حلوى مولد النبى ، نحن نعرف أن هذه

الحلوى تقليد قومي يقبل عليه كثيرون من مواطنينا فى مناسبته ، ففى المولد النبوى الشريف يقبل الملايين على شراء أصناف من الحلوى الحمصية والسمسمية وما إليها لأولادهم، هذا إلى جانب لعب من الحلوى خاصة العروسة والحصان.. وهذه الحلوى كلها يأكلها الأولاد ، وأحيانا بكميات كبيرة ، أتيحت لى الفرصة مرة لكى أزور واحدا من مصانعها فى حارة صغيرة من حوارى حي بلدى ، لا يمكنك أن تتصور مستوى القذارة التي يعمل بها أولئك الناس ، إنهم يعملون حلوى يأكلها أطفال ، ولكن ليست لديهم أبسط فكرة عن النظافة أو أهميتها بالنسبة لحياة الأطفال لأنهم فى غاية القذارة وأيديهم لا يمكن أن تغسل ومحلول السكر أو العسل يصب فى صفائح غير قويمة علاها الصدأ ، وهم يتركون السكر المحلول فيها مكشوفا والذباب يحط ويشيل ، والمنضدة التى يعجنون عليها الحلوى فى قذارة أرض الشارع ، والقوالب التى يصبون فيها العرائس والأحصنة لا يمكن أن تكون قد غسلت ، والسجائر فى أفواهم والرماد يسقط على الحلوى وكل شيء يصنعونه يلفونه فى ورق سلوفان لكى يحتفظ بقذارته! إذا رأيتهم يعملون مرة فلن تفكر قط فى أن تأكل من حلاوة المولد ، لا يمكن أن يخطر ببالك أن تشترى لابنتك عروسة مولد.

هؤلاء الناس ألا يعرفون النظافة؟

بلى يعرفونها ، ملابسهم التى يلبسونها بعد العمل نظيفة مغسولة ، ولكن الذى لا يعترفون به هو العلاقة بين النظافة والصحة ، مهما قلت لهم فإنهم لا يوافقونك على أن الذباب يجلب الأمراض ، فى رءوسهم أحجار من ثقافة قديمة عتيقة تقول دائمًا يا شيخ خليها على الله ولا تصدق ما يقولون لك ، إذا كان مقدرا لك أن تمرض فستمرض بالذباب أو بغير الذباب ، ومن عاش بالحكمة مات بها ، خلها على الله وتوكل ، وهؤلاء الناس يعرفون الفضيلة والصدق ، ولكن بالكلام فقط ، ليس أسهل

عليهم من الكذب ، ليس أهون عليهم من اليمين الكاذبة وهم طول النـهار يحلفون بالطلاق دون أن يقيموا وزنا لليمين.

□□□

هؤلاء الناس الذين يؤسفنا أن نقول إنهم يعيشون تحت مستوى الجهل وخارج حدود الإنسانية ، هـم مـع الأسـف مواطنـون ، ونحـن مسئولون عنهم، ومن سوء الحظ أنهم من أكثر الناس أولادا وأكثرهم اسـتهلاكا وهـم كذلك الذين يفسدون المرافق ويحطمـون عربـات سـكة الحديد ويخربـون الأوتوبيس.

ماذا نفعل لكي نصل إلى أولئك الناس ونصلح أحوالهم؟

مشكلة عويصة فعلاً فلا سـبيل لنـا إليـهم ، إنـهم يعيشـون فـى عـالم وحدهم، مهما قلنا فهم لن يسمعوا لنا.

هذه المشكلة قائمة في العالم الثالث كله ، بل هم سـبب وجـود العـالم الثالث وتأخره: المواطنون الذين يعيشـون تحـت مسـتوى الجـهل وخـارج حدود الإنسانية.

هذه المشكلة كانت أيضا موجودة فـى روسـيا قبـل الثـورة الشـيوعية ، ولينين وستالين عالجا المشكلة بأساليب غير إنسانية تتلخص فى الإبادة ، إن مساحة روسيا شاسعة جدا، هؤلاء الجبابرة أخرجـوا مـن مدن روسـيا ملايين من البشر من هذا الطراز والقوا بهم فـى وسـط آسيا وسـيبريا دون رحمة ، يقال إن الذين بادوا من الـروس بـهذه الطريقـة يبلغـون خمسـين مليونًا ، وإذا أضفنا إليهم من هلك من الفلاحـين أصبحـوا مائـة مليـون ، جوربا تشوف والروس المعاصرون يقولون إنـه عمـل يؤسـف لـه ، ولكنـهم يقولون إنه لولا ذلك لما نهضت روسيا.

نحن لا نستطيع ذلك ولا نقبله.

لنفكر معا.. كيف نعالج مشكلة ما تحت الجـهل وخـارج الإنسـانية ، لابد من حل إذا كان لابد أن تنهض مصر ! !

(٧)
أغنياؤنا الفقراء*

فى كلام سابق تحدثت عن طبقة المواطنين الذين يعيشون تحت مستوى الجهل لأن هذه الطبقة عقبة حقيقية في سبيل التقدم، فليس من الميسور لأى بلد أن ينهض نهضة صحيحة وفيه هذا الوزن الميت كله من السكان، وقد دعوت إلى البحث عن وسيلة لاختراق أسوار هذه الطبقة وإيصال أفكار الحضارة والتقدم إليها.

وواضح أننى كتبت عن هذه الطبقة من المواطنين محبة فى هذا الوطن لأن هؤلاء الناس بسبب فقرهم البالغ نجدهم فقراء فقرا مدقعا، وقد ضربت لك مثلا عن تفكيرهم بهذا الرجل الذى يعمل عندى يوما فى الأسبوع يتقاضى عنه عشرة جنيها كل مرة، ومع ذلك فهو يهمل الحضور أحيانا بدافع الغفلة أو الكسل لأن تفكيره مازال قائمى على مفهومات قديمة وغبية تقول - مثلا - إنه لا علاقة بين الرزق والعمل، فالرزق يأتى من الله سبحانه سواء عملت أم لم تعمل، وإذا كانت لك قسمة فى شئ فستصيبه وأنت قاعد، وهذا مفهوم غير معقول، وهو غير إسلامى، فالإسلام يدعو إلى العمل، والإسلام يقول إن الله سبحانه يرزق الناس على قدر أعمالهم، وعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - هو مسلم نابغ فهم الإسلام حق الفهم قال - إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وإنه لا يليق بالإنسان أن يظل قاعدا ويقول اللهم ارزقنى، ومن الغريب أنه قد يحدث فى أوروبا أو أمريكا أن يفاجأ إنسان بخبر موت عم أو خال له صاحب ملايين في بلد بعيد، وأنه هو وارثه الوحيد، وبهذا ينتقل الإنسان من

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٢ نوفمبر ١٩٨٧م.

الفقر إلى الغنى دون جهد فعلا، والسبب في ذلك أن الناس هناك يحترمون القانون والحقوق، ولكن هذا لا يمكن أن يحدث في مصر أبدا فإن الإنسان لا يكاد يموت حتى يظهر له ألف وارث سواء أترك من ورائه مالا كثيرا أو قليلا، وقد كان في بلدنا رجل يملك ثمانية فدادين، أي أنه كان في مستوى الأغنياء بعرف بلدنا، ولم يكن هذا الرجل قد أنجب، وكان الأدعياء والنصابون من حوله كالضباع ينتظرون موته لينقضوا على ثروته، ففكر الرجل وخاف على مصير امرأته بعد موته فاتصل بأخوات امرأته ودبر معهم بيع فدادينه إلى امرأته حماية لها، وبالفعل تم ذلك دون أن يدرى بذلك واحد من الضباع التي كانت تنتظر، وسجل البيع في الشهر العقاري وأصبح حقيقة.

ثم مات الرجل وهجمت الضباع، هذا قريبه وذاك نسيبه، حتى ثمن التركة وهو حق الزوجة شرعا أنكروه عليها، مكان السبب الذى تسكنه مع زوجها ملكها فقد أعطاها إياه أبوها هدية، ومع ذلك فقد أراد بعض هؤلاء الأدعياء إدخال هذا البيت في تركة الرجل، ولولا أن أخوات الأرملة وقفوا معها وقفة حازمة لالتهموا التركة كلها، ولولا أن الله رزق هذه السيدة بقاض عادل حازم بعيد النظر حسم القضية وأعطى الزوجة حقها في الجلسة الرابعة لكانت المسكينة في عذاب القضايا والمحاكم مع ناس أدعياء لا يستحقون إلا العقاب إلى يومنا هذا.

هذه المرة أتحدث عن طبقة أخرى من المصريين يسمونها طبقة أصحاب الملايين.

وهذه طبقة جديدة بدأت تظهر في مصر منذ بداية عصر الانفتاح، ومن المعروف أن الانفتاح دخل مصر دون تفكير أو تدبير.

وموضوع الاستيراد بدون الحصول على عملة أجنبية من طرق غير مشروعة أو معروفة وإنشاء مناطق تجارية حرة في بورسعيد وإطلاق الحرية

للناس في إنشاء شركات استيراد وتصدير، كل هـذه إجـراءات تمـت دون دراسة.

وكانت البلاد عندما دخل هذا التغير الحاسم في حاجـة إلى شيء لأن أبواب الاستيراد ووسائل الصناعة كانت كلها مغلقة مـن أوائل السـتينات عنما فرضت الدولة سلطانا مطلقا على كل شيء حتى عـدت على النـاس أنفاسهم، وفي نفس الوقت أطلقت حرية كاملة لرجالها، وأذكر أنه جاءنا في مدريد أثناء هذه الأزمة الخانقة أمر بشـراء عشـرة حمامـات بكـل مـا يلزمها لنفر من رجال الثورة، وقامت السفارة فعلا بشـراء هـذه الحمامـات وإرسالها إلى مصر وأثمان هذه كله وتكاليفه دفعت من مال الدولة.

وانتقلت أنا بعد ذلك إلى الكويت، وكنا إذ ذاك إذا أتينا إلى مصر أتينـا معنا بكل شيء حتى الزبد واللبن، أما الملابس وأدوات البيت فكنـا نـأتي بها كلنا معنا فلم يكن في مصر شيء على الإطلاق.

ولهذا فعندما جاء الأنفتـاح والاسـتيراد بـدون عملـة واجتـاحت مصـر. هوجة مكاتب الاستيراد والتصدير اندفع الناس للاستيراد في جنون، وكل ما كان في مصر من العملات الأجنبية اشتروه بأى ثمن. واشتروا أشياء من ضروريات الحياة وكمالياتـها وأتـوا بـها إلى مصـر وباعوهـا بالسـعر الذى أرادوا، لأن البلاد فعلا كانت في حاجة إلى كل شيء وأى شيء .

والنتيجة أن البلد نفد كل مخزونه من العملة الصعبة، وبدأت تظهر إلى جانب ذلك طبقة أصحاب الملايين لأن الناس كانوا على استعداد لدفع أى ثمن لأى شيء.

وفي نفس الوقت زاد الاضطراب فـي جماركنـا، وقـد كـان النـاس فـي الجمارك يحصلون دائما على «إكراميات» معقولة، ولكن موظف الجمارك أصبح الآن يقف أمام تجار طارئين على المهنة كأنـهم الوحـوش، والواحـد

منهم سيبيع البضاعة التى استوردها بخمسة أضعاف ثمنها أو أكثر، ولهذا فإن الإكرامات التى تقدم لرجال الجمارك زادت زيادة كبيرة، ومقاومة الموظف الصغير لم تستطع الثبات أمام العروض الضخمة، وظهر كذلك وسطاء جمارك كأنهم وحوش مفترسون غرفوا غرفا، وقد عرفنا بعضهم لأن أمرهم افتضح وأحالتهم الحكومة إلى التحقيق، ومن أسابيع قليلة قرأت فى الصحف أن الدولة نفذت حكما كان قد صدر على واحد من هؤلاء واستولت على ٦٨ مليونا من الجنيهات من أمواله وأموال أسرته، كان القضاء قد حكم بالتحفظ عليها. وهذا واحد افتضح أمره، فما بالك بالكثيرين الذى لم يفتضح أمرهم؟

وهذه الظاهرة، ظاهرة أصحاب الملايين الذين طفروا من تحت الأرض كأنهم الشياطين أساءت إلى عصر السادات إساءة بالغة، والرجل الذى حرر سيناء لم يكن يتمتع بكفاية إدارية ممتازة، فانتشر أمر أولئك اللصوص وأصبحوا وباء، وكلنا نذكر الأيام السوداء التى كنا نفتح فيها أعيننا على أخبار لصوص فى الصباح ونغلقها على أخبار قطاع طرق فى المساء، وازدحمت مكاتب المدعى الاشتراكى بقضايا أولئك الناس.

وقد ظهرت هذه الظاهرة بشكل واضح جدا فى مدينة بورسعيد التى أنشأت فيها لدولة سوقا حرة، واستولى على هذه السوق الحرة نفر غالبيتهم من لا تحكم تصرفاتهم أية قاعدة أخلاقية أو إنسانية ممن كانوا يشترون الشىء بقرش ويبيعونه بعشرين، وانتشرت ظاهرة الوسطاء والدخلاء حتى أصبح الذهاب إليها والتعامل مع تجارها مغامرة، وأنا شخصيا شهدت ذلك مرة، فقد ذهبت مع بعض المعارف للفرجة على هذه السوق العجيبة، فلما اقتربنا من بورسعيد وجدنا نطاقا من رجال البوليس يضربون حصارا ويفتشون الذاهبين إلى بورسعيد وسياراتهم فى الذهاب

والإياب. وأحسست أن الطريقة التى كانوا يتبعونها فى التفتيش مهينة فعلا بكرامة الإنسان، فهم يفتشون ثيابك ويطلبون إليك أن تعرض عليهم حافظة نقودك، لأن المفروض عندهم أن كل ذاهب إلى هناك مهرب، وجدت أن الأكرم لى أن أستغنى عن هذه الزيارة فليس هناك ما يدعونى إلى قبول المعاملة على أننى مهرب، فأخذت سيارة إلى المنصورة، ومن هناك أخذت القطار إلى القاهرة.

وقد بلغنا أن الأحوال هناك تصلح رويدا رويدا، وأن الحكومة الآن تحكم رقابتها على التجارة والتجار في بورسعيد، وأنك تستطيع أن تذهب إلى هناك دون أن تعامل معاملة مهرب فنرجو أن يكون ذلك صحيحا. فنحن فعلا فى حاجة إلى سوق حرة ولكنها فى نفس الوقت نظيفة محترمة لا يسيطر عليها قطاع الطرق.

ومن الواضح أن نكبة اللصوص وتجار السوق السوداء المتلاعبين بالعملة الصعبة قد خفت، وأن الدولة أوقفت هذا الطوفان الشرير. وبالفعل لم نعد نسمع باللصوص بنفس الكثرة التي كنا نعرفها فى أواخر أيام السادات، والدولة الآن أحكم وأحزم وخاصة بعد أن قررت الدولة التعامل فى العملات الصعبة على أساس قيمتها الفعلية فى السوق، فلهذا فلم يعد هناك مبرر عند أى إنسان محترم لأن يعرض نفسه للبهدلة والأذى فى سبيل قروش معدودة.

أما الاختلاسات فلا يمكن علاجها إلا إذا عالجنا القانون نفسه ووجدنا طريقة سليمة لتنفيذ الأحكام ، فليس من المعقول أن نوقف الاختلاسات تماما فى بلد لا تزيد فيه عقوبة جريمة الاختلاس على السجن ثلاث سنوات مهما كان المبلغ المختلس. وكلنا نعرف أن أى مختلس يدبر قبل أن يختلس طريقة إخفاء مختلساته وتسريبها إلى جهات لا يمكن أن يصل إليها أحد، والمختلس إذا وقع فى يد النيابة والقضاء لا ينزعج كثيرا فكلها

ثلاث سنوات سجن ثم يخرج ليستمتع بما اختلس، ويضاف هذا إلى أن صدور الأحكام عندنا يستغرض وقتا طويلا ثم إنها إذا صدرت لا يمكن تنفيذها إلا بطرق ملتوية يعرف المختلس كيف يستفيد منها، ونتيجة ذلك فإن المختلس نادرا ما يسجن أكثر من سنة ثم يطلق سراحه ليستمتع بما سرق، فكيف يمكننا أن نعالج ظاهرة الاختلاس والوضع على هذه الحال؟

نقول إن طوفان اللصوص خف، ولكن أصحاب الملايين من اللصوص مازالوا يملأون الجو، ومصر بلد غريب جدا، فقد حدثناك في مقال ماض عن ملايين المعدمين الذين لا يكسبون رزقهم إلا بشق النفس ولا أمل في تحسين أحوال هؤلاء لأن معظمهم من طبقة ما تحت مستوى الجهل الذين تقول لهم ألف مرة لا تنزل ماء الترعة حتى لا تصاب بالبلهارسيا فيمضى وينزل الترعة ويقول لك:

وماذا أعمل؟

لا أمل في خلاص هؤلاء من الفقر والتعاسة لأنهم في الواقع لا يبذلون أى مجهود للتخلص منهما، فهم في مستوى من الجهل لا يصدق، وأنا أعرف بوابا يسكن في بير السلم، ومع ذلك فقد أنجب الولد السادس وهو يقول إن خير ربنا كثير والسكان ربنا يسترهم - يبعثون لنا من بقايا طعامهم ما يزيد عن حاجاتنا..

- وهل المسألة يا عم رجب مسألة طعام أم مسألة إنسان لا يجوز لنا أن نخرجه إلى الدنيا لكي يعيش معك ومع أمه تحت بير السلم في العراء؟ أليس من حق هذا الولد أن ندبر له حياته وتعليمه ومستقبله، أليس من الظلم أن ننجب إنسانا ليعاني ويشقى؟

والجواب التقليدى: الأرزاق على الله.. اللي خلقه يدبر له رزقه؟ ومن الغريب أن مصر التي تحفل بهذا العدد الرهيب من الفقراء الذين يعيشون تحت مستوى الجهل تحفل نسبيا بأكثر عدد من السيارات في البلاد النامية، ولقد ذهبت إلى الكثير من بلاد أمريكا اللاتينية وذهبت إلى الهند

وباكستان فما رأيت في الشوارع في هذه البلاد كلها ربع عدد السيارت في شوارع مصر.. بل إننا نسمع في مصر ما يزيد على مائة وخمسين ألف سيارة من طراز غالى الثمن، فلا يقل ثمن الواحدة منها عن مائة ألف جنيه وربما مائة وخمسين ألفا. وهذا رقم غير مبالغ فيه، فالواقع هو أن عدد أصحاب الأموال العريضة قد تزايد جدا خلال السنوات العشر الأخيرة، لأن مسألة الانفتاح والاستيراد بدون طلب عملة أجنبية من الدولة فتحت أبوابا هائلة للكسب الحرام أمام ألوف الناس، فإذا أضفنا إلى ذلك أولئك الذين يكسبون مبالغ طائلة من المقاولات والمباني وتجارة الأرض وجدنا أنفسنا أمام دنيا هائلة ومخيفة من الكسب غير الحلال، ومن الواضح أن أجهزة الحكومة عاجزة عن السيطرة على الموقف في أى مجال، فهناك ناس يعتدون على أرض الدولة ويستولون على قطع منها ويجدون الوسائل لوضع اليد عليها ولديهم كذلك وسائل لتحويلها إلى أملاك لهم، لأنهم يتعملون في ذلك مع موظفين مستعدين لقبول الرشوة، والحقيقة أننا لا ندرى كيف يتمكن أولئك الناس من وضع اليد على هذه الأرض، ثم تقسيمها وبيعها للناس أو البناء عليها، وبعد أن يتم كل شيء يصحو رجال الدولة وهم في هذه الحالة لا يجتهدون في استرداد أرض الدولة بل هم يبحثون عن وسائل لتمليك واضعى اليد، وهذا أغرب شيء سمعت به، وأنا لا أفهم إطلاقا كيف يكون عمل الدولة هو تحليل الحرام ومعاونة السارق على أن تصبح سرقته مالا حلالا، وقد سمعت حكاية رجل أخذ أربعة أمتار من أرض الشارع وضمها إلى أرضه وبنى عليها. والناس يقولون إنه فعل ذلك والدولة نائمة، والحقيقة أن الدولة لا تنام قط على مثل هذه الأمور، بل تتناوم، لأن الناس لا يكفون عن الشكوى ولفت نظرها ولكنها لا تفتح عينيها إلا بعد فوات الأوان أى بعد أن يكون السارق قد بنى وأعلى البناء وباع للناس الشقق وأصبحنا أمام عشرين أسرة على ا لأقل وهم يقولون لك إنك لا تستطيع في هذه الحالة أن تلقى الناس في الطريق، وأنا شخصيا أرى أننا نستطيع بل لابد أن نفعل ذلك، وإلا فأين القانون؟

وكيف تقوم دولة محترمة بدون قانون أو بدون تطبيق سليم للقانون؟ لأن القوانين عندنا كثيرة جدا، ولكنها لا تطبق، ونتيجة لذلك تجد عشرات الألوف يصلون إلى المال بدون حق ويصبحون أصحاب ملايين بالاحتياط في حين أن هناك ملايين كثيرة يكافحون في سبيل العيش الكفاف.

وقد شهدت حادثة من هذا الطراز ما أظنها تحدث إلا في مصر فإن رجلا نعرفه عمل سنوات طويلة في بلد عربي وحصل من عمله على مال اشترى به قطعة أرض وبعد سنتين ابتنى عليها دكاكين لكي يعود في السنوات التالية ويبني أدوارا. ثم عاد بعد سنتين ليجد رجلا آخر قد استولى على الأرض والدكاكين وبنى فوقها ثلاثة أدوار وزور أوراقا زعم بها أنه هو صاحب الأرض، ذهب الرجل يشكو إلى الحكومة وجاء الآخر يعرض أوراقه المزورة، ووصل الأمر إلى النيابة، وكما هي العادة كان القرار: يبقى كل شيء على ما هو عليه والمتظلم يلجأ إلى القضاء.

ووجد الرجل أن أرضه ودكاكينه ضاعت منه، لأن معنى هذا القرار هو أن السارق يظل مالكا للأرض وما عليها في حين أنه هو - صاحب الأرض والمال يجري في المحاكم سنة بعد أخرى، وصاحبنا هذا من عائلة ريفية وله إخوة كثيرون، فاستأجر رجالا وذهب مع إخوته وهجموا على الأرض والمباني ووضعوا يدهم عليها وحرموا على اللص الاقتراب منها وانقلب الوضع فذهب اللص يشكو إلى الدولة ومعه أوراقه المزورة وذهب الآخر بأوراقة الشرعية ووجد وكيل النيابة نفسه أمام رجلين في يد كل منهما أوراق بملكية الأرض. فقال لصاحب الأرض الذي هجم عليها واستردها بالقوة:

- ولكني سبق أن كتبت: تبقى الحالة على ما هي عليه والمتظلم يلجأ إلى القضاء فقال الرجل: وهذا ما فعلناه يا سيدي، فهذه هي الحالة التي كانت عليها الأرض والمباني عندما كتبت أنت تأشيرتك، وهذا الرجل هو الذي يريد اليوم أن يعتدي على قرارك. ومن رأيي أن تجدد التأشيرة حتى

يجد الرجل نفسه مضطرا إلى احترام القانون. وهذه المرة ستصف الحالة الراهنة التي ينبغي أن تبقى الأرض عليها حتى يصدر حكم القضاء.

ووكيل النيابة الذى لا يعرف فعلا كيف كانت حالة الأرض أيام كتب تأشيرته الأولى تحسير فى أمره لأنه لم يجد المرفقات التى كانت مع الشكوى الأولى بل وجد مكانها شكوى من اللص بإمضائه، والامضاء مزور طبعا، ولكن هذا هو الذى وجده أمامه ولابد من أن يحال الأمر كله إلى التحقيق فكتب: يحال الموضوع على التحقيق، ويبقى كل شيء على حاله، والمتظلم يلجأ إلى القضاء! ومن ذلك الحين أقلع الرجل عن السفر إلى البلاد العربية بل بقى فى مصر ليحرس أرضه وماله مع أولاده وإخوته وأولادهم. وهم فى مجموعهم يصلون إلى مائة إنسان!

ولكن هل هؤلاء الأغنياء اللصوص أغنياء؟

إن الغنى حقا هو الذى يستغنى بماله عما فى أيدى الناس، ولكن هؤلاء يا أخى أصحاب عيون فارغة لا تمتلئ أبدا وهم دائما ينظرون إلى ما فى أيدى الآخرين ويطمعون فيه.

وقد رأيت الأغنياء فى غير مصر فوجدتهم أهل كرم وأريحية وفضل، ولا أنسى زيارة قمت بها لمدينة ميامى عاصمة فلوريدا، هناك رأيت ناسا أغنياء حقا، ودليل غناهم هو ما يعطون لا ما يسرقون، رأيت عشرات المستشفيات والمعاهد وكليات الجامعات والحدائق إهداء من الأغنياء، هناك للجماعة. لقد دهشت من عطاء أولئك الناس ووجدت فى هذه العطاء دليل غناهم، وواحد منهم تبرع بعشرة ملايين دولار لإنشاء معهدين فى كلية طب، وهذا الرجل دعانا إلى ضيعة له وكنا نحو مائة، وهذا الرجل أفاض علينا الطعام وأفاض الشراب على من يريد الشراب وتصرف معنا فى أريحية تدل على أنه رجل غنى حقا، غنى يعطى مما أعطاه الله ولا ينظر إلى ما فى أيدى الناس.

ذكرت ذلك عندما دعانا رجل مصرى قيل لنا إنه صاحب ملايين للغداء فى فيلا هيأها لنفسه فى عمارة ابتناها فى العجمى، وقبل أن نجلس إلى المائدة جعل يقول: هذا جنبرى لا يوجد فى الاسكندرية وهذا سمك لا تجدونه بعشرين جنيها! ومن يريد منكم شيئا فليطلب دون تكلف.

وقلت فى نفسى: ما أسخفك من فقير! أتمنن علينا بحبات الجمبرى وقطع السمك! إننى لا أملك جزءا مما تملك، ولكننى - صدقنى - أغنى منك، وطعامك دون شك حرام لأنه اشترى بمال حرام!..

وفى هدوء تسحبت عائدا إلى الإسكندرية، لص فقير لا يحل ماله رغم ماله الكثير، وقد أغنانا الله بالحلال عن الحرام والحمد لله.

(٨)

إعلان إفلاس*

إذا استمرت الأحوال على ما هي عليه الآن، فلاشك أننا نحن محدودي الدخل سنعلن عن قريب إفلاسنا، أي عجزنا عن الاستمرار في الحياة بالدخول الراهنة، ولا يعجب القارئ من وضع نفسي بين محدودي الدخل، لأن العرف جرى عندنا بأن يقصر هذا الاصطلاح على الفقراء، أي ذوي الدخول الضئيلة التي لا تكاد تكفي للمطالب الضرورية للحياة، والحقيقة هي أن الوصف يشمل كل أولئك الذين يعيشون من إيرادات ثابتة معروفة واضحة، ونحن أهل العلم والكتابة والفكر من بين هؤلاء، لأننا نتعامل مع جهات رسمية، مكافآتنا منها محدودة، وحتى لو كانت مستويات الإيراد عالية أي تزيد - قليلاً أو كثيراً - على الحاجة فهي محدودة لا نستطيع أن نزيدها بطريقة مشروعة، وتلك هي مشكلتنا، فإن الأسعار ترتفع بشكل رهيب في حين أن الإيرادات ثابتة، وعن قريب ستزيد النفقات على الإيرادات لأن الأسعار ترتفع بشكل غير منطقي أو معقول.

السبب الأكبر في متاعبنا هو أننا نعيش مع ناس كثيرين إيراداتهم غير محدودة، أو حتى غير مشروعة، وهؤلاء هم أصحاب الحرف اليدوية وأصحاب الحرف العليا كالطب والهندسة مثلاً.

فقد ذهبت مثلاً إلى نجار منذ سنة شهور واشتريت كرسي خيرزان، وكلفني ذلك خمسين جنيهاً وبعد ثلاثة شهور احتجت إلى كرسي آخر، فقال لي النجار إن السعر أصبح سبعين جنيهاً، فقلت له: لماذا يرتفع السعر بنسبة أربعين في المائة؟..

أنت تعرف أن الأسعار في زيادة دائمة.

---

* نشرت هذه المقالة في ٦ ديسمبر ١٩٨٧م.

أعرف ذلك، ولكن لابد أن يكون للزيادة منطق أو أسباب واضحة، وكمية الخشب التى يتطلبها الكرسى قليلة، وسعر الخشب لم يرتفع، وكذلك الخيرزان، فلماذا أدفع عشرين جنيهاً زيادة. أنت تعرفنى يا عم إبراهيم، ونحن نتعامل مع سنوات، فلماذا ترفع السعر علىّ دون مبرر مع علمك بأن دخلى ثابت كما هو، وأنا لا أستطيع أن أزيده.. ولهذا فإننى لا أستطيع أن أدفع فى هذا الكرسى إلا خمسين جنيهاً.

ففكر قليلاً وابتسم وقال:

– معلهش.. خليها ستين.

– يا عم إبراهيم هذا غير معقول.. وهل تظن أن خمسين جنيهاً قليلة على كرسى خيرزان؟.

– وهل أنت تريد أن تأخذ هذا الكرسى بنفس السعر الذى اشتريته به من ستة شهور.. ألا ترى أن كل الأسعار ترتفع؟

– بلى أعرف، ولكن هذه الزيادة ليست شيئاً تلقائياً، أى أن الأسعار لابد أن ترتفع بمبرر وبدون مبرر، وليس من الضرورى أن نزيد الأسعار لمجرد أن الأسعار لابد أن ترتفع.

– يا دكتور.. هل هذه المناقشة كلها بسبب عشرة جنيهات.

– وهل الجنيهات العشرة شىء قليل؟

– فى أيامنا هذه هى شىء قليل.. وهذا الصنايعى الذى تراه يعمل عندى أصبح أجره اليومى خمسة عشر جنيهاً.

والصنايعى نفسه – وهو صبى لا تزيد سنه على خمس عشرة سنة – قال يا حضرة الدكتور أنت ليست لديك فكرة عن ارتفاع الأسعار.. لقد أفطرت اليوم فى محل فول قريب من هنا ودفعت تسعين قرشاً..

– وماذا أكلت؟

– رغفين وطبق فيه أربع فولات. وطبق فيه أربع حبات طعمية وسلطة.

– اسمع يا ابنى إن هذا الذى أكلت شيء كثير، وليس من الضرورى أن يأكل الإنسان رغيفين فى إفطاره ومعهما فول وطعمية وسلطة.. ونصف هذا كان يكفيك.

– تريد أن أقوم جوعان..

– أنا لا أريد منك شيئاً يا ابنى فأنت حر فى أن تأكل ما تريد، وتدفع ما يطلبه منك صاحب المطعم، لأن الذى سيدفع الزيادة فى الحقيقة ليس أنت بل أنا..

ونظر إلىَّ الغلام طويلاً دون أن يفهم فقلت له.

– أنت يا ابنى لا يهمك زيادة تكاليف الافطار لأنك ستأتى هنا وتطلب زيادة أجرك إلى خمسة عشر جنيهاً، والأوسطى لن يعطيك الزيادة من عنده، فها أنت ترى أنه يطالبنى بستين جنيهاً فى كرسى دفعت فيه من شهور خمسين جنيهاً، فأنت والأوسطى تستطيعان زيادة دخلكما أما أنا فلا أستطيع، ومواردى محدودة فأنا مثلاً لا أستطيع أن افطر بتسعين قرشاً، حتى لو اضطرنى الأمر إلى أن اكتفى بأقل من الضرورى.

وقال الأوسطى ابراهيم النجار:

– صدقنى يا دكتور، لا أستطيع أن أصنع لك هذا الكرسى بأقل من ستين جنيهاً، وهاأنت ترى أن الدنيا من حولنا نار، والأسعار تزيد دون رحمة، حتى الحكومة تزيد الأسعار دون مناقشة. إلى الشهر الماضى كان سعر كيلو اللحم فى الجمعية ثلاثة جنيهات ونصف. وهذا الشهر زادوا السعر إلى خمسة جنيهات ونصف، وأنا رجل عندى أربعة أولاد وأنفق على أبى كذلك.

واضطررت فى النهاية إلى قبول دفع ستين جنيهاً فى الكرسى.

وقلت في نفسي بعد ذلك: هل أستطيع الآن أن أطلب إلى الجهة التى أعمل فيها أن تزيد مكافأتى عشرين فى المائة مثلاً؟ المشكلة هى أننا نحن محدودي الدخل نعيش محصورين بين جماعات غير محدودة الدخل، وحكومة عاجزة عن السيطرة على الأسعار.

فقد أصدرت الدولة قانوناً برقم ١٤٠ لعام ١٩٨٧ م يقضى بأن يدفع كل مواطن دمغة قدرها ٣٠ قرشاً على كل طلب يقدم إلى الدولة، وإضافة إلى ذلك ٥ قروش رسم تنمية موارد الدولة.

وأنا أتتبع مناقشات مجلس الشعب ولا أذكر أننى سمعت أن هاتين الضريبتين عرضتا عليه. ويبدو أن من حق الدولة أن تفرض هذه الضرائب دون استشارة مجلس الشعب.

وحتى لو استشارت مجلس الشعب فلماذا تفرض الحكومة هذه الغرامة الباهظة على المواطنين؟ ونحن نعرف الكمية الهائلة من الطلبات والعرائض والشكاوى التى تقدم إلى الدولة إنها عشرات الملايين كل يوم، لأن الدولة تتدخل فى كل شيء فهذه الدمغة تجلب للدولة فعلاً دخلاً يقدر بالملايين من الجنيهات.

وياليت ذلك بفائدة فإن معظم ما يقدم إلى الدولة من عرائض وطلبات وشكاوى يذهب رأساً إلى سلة المهملات، وقلما يقرأه المسئولون، وحتى إذا قرأوه فهم لن يفعلوا شيئاً، أولا لأنهم غير مسئولين عن شيء وقل لى والله ما هى مسئولية رئيس حى شرق أو غرب أو شمال أو جنوب القاهرة؟ إنهم باشوات على مكاتب، وقد علمتنى التجارب ألا أذهب إليهم أبدا، فلا فائدة على الإطلاق فى الكلام معهم فى أى شيء. إنهم يسمعون من أ ذن ويخرجون ما يسمعون من الناحية الأخرى، والثلاثون قرشاً التى ستوضع على الطلب خسارة مؤكدة. وهم أنفسهم لا يحسون أنهم مسئولون عن أى شيء.

وسواء وضعت على الطلب ورقة دمغة بثلاثين قرشاً أو بثلاثين مليماً فإن النتيجة واحدة لا شيء.

وأحياناً تشعر أنهم مستريحون جداً لأنهم لا فائدة فيهم لقد سمعنا من أيام شكوى ناس استولوا على أرض بوضع اليد، وبنوا عليها وسكنوا أو باعوها لآخرين، وهم الآن يطالبون الدولة بالمرافق فيها، والحل المعقول لتلك المشكلة واضح، فإن متر الأرض فى تلك الناحية لا يقل عن ألف جنيه، فلماذا لا تبيعهم الدولة الأرض وتتقاضى منهم تلك المبالغ الطائلة وتنشيء بها المرافق؟

لو كنت أنا الموظف المسئول فهذا هو الذى كنت أفعله: أنشيء لجنة من الموظفين والسكان ونشرع في التنفيذ فعلاً، كل مواطن يدفع ثمن أرضه ولو بالتقسيط، وأفتح حساباً فى أحد البنوك وتسير العملية بنظام. لن تصير الأرض أو المبانى التى عليها ملكاً لأحد إلا إذا دفع كل ما عليه ودفع كذلك تكاليف المرافق والمبانى، لأن الذى فهمناه هو أن هؤلاء الناس مستريحون مادياً وقادرون على السداد.

وهذا الذى أقوله لا يحتاج إلى ذكاء، إنه أمر بديهى، فلماذا لا يفعل المسئول ذلك؟ لأنه يا سيدى غير مسئول إلا عن شيء واحد وهو راتبه ومكتبه ومصالحه وما الذى سيحدث؟

الذى سيحدث أن هؤلاء الناس لن يدفعوا ثمن الأرض، وهذا الموظف الذى رأيناه سينقل أو يحال إلى المعاش دون أن يحل أو يربط، والمساكن التى بنوها كلها فوضى وإهمال وسوء نظام، وهم كل يوم ينجبون أطفالا كالأرز، والمشكلة كل يوم ستزيد تعقيدا، وفى النهاية سيستولى الناس على الأرض والمبانى دون مقابل، وستنشأ لهم مرافق أى كلام، وسيظل هذا الحى إلى الأبد مزبلة وفوضى وقذارة وهذا هو الذى يفعله الموظفون.

فلماذا إذن تأخذ الدولة ثلاثين قرشا عن أى طلب؟

إنها رذالة هذا هو الوصف الوحيد.

ثم ما معنى أن تجنى الدولة على كل طلب أو شكوى خمسة قروش رسم تنمية موارد الدولة؟

حاجة تكسف.

خمسة قروش من كل مواطن رسم تنمية موارد الدولة.

أليس هذا هو منطق المماليك؟!

الدولة تزيد مواردها على حساب الناس! وليت الأمر وقف عند ذلك، لقد تعداه إلى العناء واقرأ مايلى وأنا أنقله عن جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٨٧/١١/١٠، ودعا المصدر المواطنين إلى عدم إحلال طوابع الدمغة محل رسم تنمية الموارد أو العكس بنفس القيمة، حيث إنهما لا يغنى أحدهما عن الآخر، فبينما تذهب حصيلة الدمغة لصلحة الضرائب فإن حصيلة رسم تنمية الموارد توضع في حساب خاص لدى البنك المركزى، ومعنى ذلك أن الحصيلة هي المهمة في الحقيقة.

وإذا كنا نذهب إلى مكاتب البريد ونسأل عن طوابع رسم تنمية الموارد فلا نجدها فلن يتحصل شئ تضعه الحومة فى الحساب الخاص لدى البنك الأهلى أو أى بنك آخر.

وهذا هو الذى يحدث فعلا الآن، لأن الدولة التى فرضت هذه الضريبة لم تعمل حسابها، فلم تطبع من دمغة رسم تنمية الموارد ما يكفى، ثم إنها لم تحسن توزيعها على المكاتب، وهى مكدسة مثلا فى مكاتب بريد الروضة وغير موجودة فى مكتب بريد السيدة زينب، والمواطن المسكين يجرى من مكتب لمكتب دون جدوى، ولا يستطيع أن يضع على الطلب طابع دمغة آخر، ويضيع وقته وتتعطل مصالحه، وإذا هو وجد طوابع رسم تنمية الموارد فى مكتب ولم يجد طابع الدمغة ذى ثلاثين قرشا فهو لن يستطيع أن يضع ستة طوابع كل منها خمسة قروش.

وهذا فى رأيى غباء، لأن الطلبات لن تقدم والدولة لن تحصل شيئا لا عن طريق هذه الطوابع أو غيرها وهذا فى النهاية أحسن للمواطنين.

لأن الطلب لن يأتي بنتيجة سواء وضعت عليه الطوابع أم لم توضع ومصير الطلبات كلها إلى سلة المهملات ولكن مشكلتنا الكبرى وسبب تعاستنا هم أصحاب الدخل غير المحدود لقد رأينا المغموص صبى النجار يرفع يوميته من عشرة جنيهات إلى خمسة عشر، أى خمسين فى المائة لكى يستطيع أن يفطر بتسعين قرشا، ولو رفع بائع الفول سعر الإفطار إلى مائة وخمسين قرشا أى بنسبة ٦٠ فى المائة فإن ذلك لن يهمه. لأنه سيطالب بأن يرفع أجره إلى ٢٤ جنيها فى اليوم وسيحصل على هذه الزيادة.

وأعرف طبيبا ممتازا فنيا وعلميا طبيب قلب وله أيضا عيادة في لندن، وله حق إجراء العمليات في بريطانيا. هذا الرجل رفع رسم الكشف فى عيادته من ٣٠ إلى خمسين جنيها، وهو يستقبل فى المستشفى والعيادة الخاصة عشرين مريضا في اليوم في المتوسط، أى أنه زاد دخله بجرة قلم ٤٠٠ جنيه فى اليوم، هذا الرجل فيم تهمه الأسعار؟ وإذا قيل له إن كيلو العنب مثلا بجنيهين فهذه الزيادة عنده لا شيء.

ولما كان الجشع لا يعرف حدودا، فقد فعل هذا الرجل غير محدود الدخل مايلى:

ذهب إليه رجل تعرفه مع ابن له مصاب بثقب فى القلب ولابد من إجراء عملية له وسأله الطبيب:

— ماذا عندك؟

— هذه يا سيدى الدكتور تقارير الأطباء.

فنظر إليها الطبيب دون أن يمسها وقال: قل لى أنت ماذا عندك فى كلمتين.

— وحكى له الوالد ماذا عند ابنه بكل اختصار

والطبيب قال: أنا مستعد لاجراء هذه العملية له ولكن فى لندن..

قالها دن أن يكشف على المريض أو يقرأ تقريرا أو يمسك بسماعة ثم أضاف.

– وأحب أن أقول لك إن تكاليفها عليك هناك ستكون سبعة الآف جنيه انجليزى غير نفقات المستشفى وسمعت هذه الحكاية ثم سألت:

– ولماذا فى لندن بالذات.

– يبدو أن الأدوات والمعدات هناك أحسن

قلت للوالد: ولماذا لا تذهب إلى لندن وتجرى العملية فى مستشفى جامعة لندن؟

لابد أن يقيم الانسان ثلاثة أشهر على الأقل فى انجلترا حتى يستطيع أن يعالج فى القسم المجانى فى جامعة لندن.

– إذن تعمل العملية لابنك فى الدرجة الثانية.

وفعلا ذهب الاب بابنه إلى هناك ودخل المستشفى وأجريت له العملية ونجحت ولم يتكلف الاثنان فى السفر والإقامة والعملية إلا حوالى ٣٠٠٠ جنيه انجليزى. هذا مع المعاملة الممتازة والانسانية العظيمة.

ولقيت الطبيب المصرى فى لندن فى دار السفير المصرى وحكيت له الحكاية فقال لى:

– لابد انك أنت الذى أشرت عليهم بهذا الرأى

– أجل والله والحمد لله.

– وماذا يجيئك من وراء قطع العيش هذا؟

– تريد أن تقول يا دكتور إننى قطعت عيشك؟

– إذن فماذا تسمى هذا؟

– اسميه عدلا وانسانية يا دكتور.. إن ثروتك اليوم لا تحصى لو إنك ستأكل الجنيهات الانجليزية أكلا لما اتيت على أرباح أموالك، ولو عشت مائة عام أخرى، وتسمى هذا قطع عيش؟ حرام عليك يا دكتور. إن لكل شىء حدا حتى الجشع، أما أن تزيد دخلك ربعمائة جنيه فى اليوم بجرة

قلم وتأخذ من الرجل سبعة آلاف جنيه استرليني فهذا يا سيدى خراب بيوت لنا نحن محدودى الدخل الذين لا نستطيع زيادة دخلنا قرشا واحدا، لقد أهلكتمونا ياناس. ولا أدرى كيف ستلقون الله يوم الحساب. هل ستأخذون هذه الاموال معكم إلى الأخرة؟ وهل ستنفعكم فى دخول الجنة؟ أنكم ترفعون الاسعار علينا حتى أصبحت الحياة من حولنا نارا وأنتم لا تدورن.

لقد ذهب إلى تاجر السمك الذى تعودت الشراء منه وطلبت منه سمكة ما بين كيلو وكيلو ونصف فقال لى:

– لقد أصبح سعر الكيلو من هذا السمك عشرين جنيها

– من عشرة إلى عشرين؟

– هذا هو الذى حدث!

– وكيف يا عم خليل؟

– لأننا نصدر هذا السمك الآن.

– ولأن الله فتح عليكم وجعلكم تصدرون السمك تخربون بيوتنا؟!

فقال الرجل: لا والله يا فلان ليس فيها خراب بيوت أو شىء قريب من ذلك، إن الناس تشترى كالمجانين ليس عندى من السمك الذى تريد الا سمكة واحدة.. وهذه هى وزنها ٢ كيلو.

– أى أن ثمنها أربعون جنيها

– أعطيك إياها بخمسة وثلاثين فأنت صديق قديم.

وفكرت قليلا ثم قلت:

– لا يا عم خليل. هذا سعر لا أستطيع دفعه، تنازلنا عن السمك لقد خفضنا ما نشتريه من اللحم فى الشهر إلى ثلاثة كيلو لأن سعر الكيلو وصل إلى أحد عشر جنيها لم نستطع زيادة دخلنا فهبطنا بالكمية التى نشتريها وليس أمامنا إلا هذا الحل مادام هناك العفاريت الصغار غير محدودى

الدخل والشياطين الكبار الذين يزيد الواحد منهم دخله بجرة قلم أربعمائة جنيه في اليوم.

ويقول الأوسطى خليل: وأين هذا الطبيب من غيره يافلان؟ هناك مهندسون ومقاولون يربحون الملايين في صفقة واحدة، وواحد منهم انفق مائة وعشرين ألف جنيه في زفاف ابنه في أحد الفنادق وبعد لحظة صمت قال عم خليل:

– وماذا ستعمل يا دكتور؟

– سأعلن إفلاسي قريبا، وسأعلن عجزي عن دفع ضروريات حياتي وليس أمامي إلا هذا الحل.. وهل عندك حل آخر لي؟

(٩)
ماذا فعلنا ببلادنا؟*

من شهور عرضوا علينا هنا رواية «هايدى» فى مسلسل تليفزيونى قدموه على حلقات بعد الظهر، وهايدى من أمتع القصص التى يقرؤها الانسان فى اللغة الألمانية ومؤلفتها يوهانا شبيرى سويسرية وبطلة القصة طفلة هى هايدى أو أولهايد ولكن الرواية ليست من روايات الأطفال إنها رواية كل إنسان، والأطفال يستمتعون بها كما يستمتع بها الكبار، وأنا قرأتها وأنا أتعلم اللغة الألمانية لأنها من تلك القصص الانسانية الجميلة التى تغزو القلب ببساطتها وعمقها غير المتكلف، وأذكر أننى كنت أقرؤها فى مكتبة سمينار قسم اللغة الانجليزية بجامعة زيوريخ. وكانوا قد انتخبونى سكرتير جمعية قسم اللغة الانجليزية لامتيازى على غيرى بل لأننى كنت الطالب الوحيد الذى لم تكن له عائلة فى زيوريخ، فكنت أستطيع أن أقضى فى المكتبة اليوم كله. فلا أتغيب إلا لحضور الدروس.

فكان رواد المكتبة يجدوننى فى كل وقت من التاسعة صباحاً إلى الثالثة بعد الظهر وكانت مكتبة متوسطة الحجم دافئة هادئة وأحياناً كانت تمر ساعات دون أن يأتى طالب واحد أو طالبة.

وكنت يوميا أقرأ رواية هايدى بعد الظهر عندما دخلت طالبة لطيفة جدا وطلبت إحدى روايات توماس هاردى فأتيتها بها ثم لاحظت أننى أقرأ هايدى فأشرق وجهها وقالت: تلك هى روايتى المفضلة وأنا صغيرة كنت أقرأها لجدتى وتعطينى قرشاً فى كل مرة قلت.

— أنا مستعد أن أدفع القرش (وهو فى السويسرية رابن — بكسر الباء الثقيلة وتشديدها، وهو جزء على مائة من الفرنك). قالت:

---

* نشرت هذه المقالة فى ديسمبر ١٩٨٧م.

– إذن تأتى معى إلى البيت الآن. أن والدتى تنتظرتى وربما قدمنا إليك الشاى والبسكويت دع الرواية هنا فهى عندى فى البيت.

وأغلقت المكتبة فقد تخطت الساعة الثالثة ومضيت معها فـى الطريـق، – نظرت إلى بعينين زرقاوين وقالت:

قل لى ما هو الفرق الأساسى بين مصر وسويسرا فى نظرك؟

قلت: سأذكر لك فرقين أساسيين الأول أنكم ناس منظمون جدا والناس لا يحبون هذا النظام الدقيق جدا.

قالت: لايهم.. أنا أيضا لا أحب هذا النظام الدقيق.. إن الحيـاة تفقد معه طعمها.. ثم قالت والفرق الثانى؟

– الفرق الثانى هو هذا الذى نحن فيه: فمـن المستحيل فـى مصـر أن تدعو فتاة مثلك رجلا مثلى إلى بيتها لتقرأ له كتابا..

– لماذا؟

– لأنهم يخافون على المرأة من الرجل! إنهم يعتقدون أن الرجل والمرأة إذا اجتمعا فلا يمكن أن يكون للقراءة فقط.

– لا أفهم.

– بل تفهمين يا.. ما اسمك؟

– كارلا.. كيف لا تعرف اسمى وأنا آتيك فى المكتبة كل يوم.. اسمـى كارلا شترودل.

إن الناس عندنا يقولون إن الرجـل والمـرأة إذا اجتمعـا فلابـد أن يكـون الشيطان ثالثهما.

– وماذا يفعل الشيطان هنا؛ ؛؟

– أنا شخصيا لا أدرى ولكن الناس عندنـا يخـافون علـى نسـائهم مـن الشيطان..

- وأنت؟

- أنا أعتقد أن الشيطان هو الانسان نفسه.. الإنسان بحسب ما يريد.. وأنا شخصيا لم أشعر قط بالرغبة في أن أكون شيطانا مع بنت مثلك لا يمكن أن يكون الانسان معها الا ملاكا..

فسكتت لحظات ثم عادت تقول: عندنا أيضا رجال مثل الذين عندكم. ولكنهم لا يخافون على المرأة بل يطمعون فيها.

وفي بيتهم الجميل استقبلتنا الام دون ارتياح أول الأمر ولكنها اضطرت إلى المجاملة وقالت كارلا:

- ساقرأ له في هايدى هل نستطيع أن نشرب الشاى؟ وهل عندنا بسكويت؟

- الشاى تعملينه أنت وليس عندنا بسكويت.

وأحسست بالبرد يسرى فى جسدى ونهضت كارلا لتأتى بالكتاب وعادت به وجعلت تقرأ كان صوتها جميلا جدا ونغماتها حلوة، وكنا فى الجزء الثاني من الرواية عندما عادت هايدى من فرانكفورت إلى باد راجاتس في قلب جبال الألب وصعدت الجبل إلى قرية شفندى ومنها إلى بيت جدها وسط الثلوج، ويبدو أن أم كارلا استحت من سوء مقابلتي لأنها أتتنا بالشاى وتلطفت معى وبعد قليل أتتنا بقطعتين من الكيك وقالت كارلا لأمها:

- أتعرفين يا أمي.. أنهم في مصر يخشون على النساء من الرجال؟

- عندهم حق.. الرجال ملاعيين.

- والنساء؟.

– ملعونات أيضاً والحرص واجب.. وفي قرية صغيرة غير بعيدة عن زيوريخ اعتدى مدرس على تلميذته والتلميذة حملت والحكاية كانت في الصحف.

وعدنا إلى القراءة وبعد نحو عشر دقائق قلت:

يكفي هذا اليوم يا كارلا.

وقالت الأم: هذا أحسن.. الساعة الان بعد الخامسة وبعد قليل يأتي أبوك ولا يسره أن يجد هذا الشاب هنا..

ونهضت وسلمت على الأم واتجهت إلى الباب ورافقتني كارلا إلى الباب وقالت:

– لا عليك من أمي.. أنها تخاف علي وأبي يخاف عليها وعليّ.

– امك على حق وكذلك أبوك، أنت جميلة وأمك جميلة والحذر واجب.. غدا أعطيك خمسة قروش لا قرشاً واحداً..

– بعد أن سممنا بدنك؟

– خذى بالك من نفسك يا كارلا أمك على حق وأمثال المدرس الذى ذكرته أمك كثيرون وأنت بنت حلوة ومثلك ينبغى أن تحذر الشيطان.

– تقصد أننى لا أستطيع الاطمئنان إليك؟

– لا إليّ ولا إلى غيرى.

– وهل أنا حلوة حقاً؟

– حلوة جداً.. والآن لابد أن أسرع بالذهاب، أبوك لابد على وشك المجئ.

ومضيت وأنا أفكر هل نحن على حق؟ هل بالفعل اذا اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما ربما ولكن الحياة تكون مريرة جداً اذا استحال

علي رجال مثلى أن يجلس إلى بنت في بيتها وأمها هناك ليقرأ كتابا هذا يجعل حياتنا فى مصر مظلمة وحزينة. حقا أن الحذر واجب ولكن الحذر أكثر من الواجب عذاب، البرقع والملاية سخف فهما فعلا لن يحولا دون أى شر اذا أرادت المرأة وما أكثر ما تريد. والمشربية ظلم والمرأة الحبيسة تقع في الخطيئة بفكرها خلف المشربية، وأذكر أننا روعنا ذات ليلة عندما وجدنا طفلا حديث الولادة إلى جانب الحائط قرب البيت، كلنا عرفنا فيما بعد أن هذا الطفل أنجبته خادمة من الابن الأكبر للأسرة وهذا الطفل تبنته أخت الشاب وكانت لا تنجب أما الخادمة فقد اختفت، يقولون إن الأسرة قتلتها خنقوها، وأبوها رفض أن يتسلم الجثة وضابط الشرطة رأى بنصيحة رؤسائه أن يحفظ القضية كلها صيانة للأسرة.

على العشاء وكنت وحدى في مطعم صغير عدت إلى التفكير في قصة هايدى، إنها طفلة يتيمة من أهل قرية صغيرة جدا حوالى ستين نسمة من قرية شفندى فوق باد راجاتس، إنها يتيمة مات أبوها وأمها ولكنك لا تشعر قط أنها يتيمة، هنا في ذلك المجتمع السويسرى في قلب جبال الألب تتبنى الجماعة كلها مثل هذه الطفلة لفظ اليتيم «فايزن كيند» أو فايزة لا يجئ مرة واحدة في القصة إنها جماعة سلمية جدا تعيش فى اعالى الجبال بين الثلوج، إنهم في غاية النظافة والطهارة وحياتهم فقيرة ولكنك لا تشعر أنهم فقراء إنهم قنوعون بما لديهم ولا وجود للجشع عندهم، أولادهم يتعلمون في المدارس والصالحون منهم للتعليم الثانوى أو العالى يهبطون إلى بلدة كور عاصمة الجراونبدن عندما يتقدمون إلى المدرسة يذكرون حالتهم المالية بكل صراحة والمصاريف تقدر بحسب كلامهم هنا لا فرق بين التعليم الحرفي والتعليم الثانوى والجامعة ليست الأمل الأكبر لكل الناس، لن الحرفي مثل النجار والميكانيكي والسباك يكسب قدر ما يكسبه الطبيب أو المهندس. كل إنسان يأخذ حقه لأن كل انسان يتقن عمله. الميكانيكي يمر في أكثر من عشرة امتحانات حتي يؤذن له في أن

يعمل فى جراج محترم أو يفتتح جراجا هنا يكون قد وصل إلى مستوى المهندس فعلا عقليا وحرفيا وماليا، ولكنهم لا يلقبونه بالمهندس أو الباشمهندس لأن ذلك لا يعني شيئا لا أحد هنا يعرف الفقر أو لا يرضى به. جامع الزبالة هنا ليس انسانا جاهلا أو قذرا أو أميا. إنه يتقاضى اليوم ما بين ١٥٠٠ و٢٠٠٠ فرنك في الشهر ويلبس القفاز ولا يمس القمامة بيده وهو يدير ماكينة «الفرم» فى حافلة الزبالة وكل شىء يتم بهدوء ونظام ودون ضوضاء، وجامع الزبالة ليس فقيرا أنه يسكن شقة محترمة وامرأته سيدة محترمة وأولاده فى المدرسة.

نحن فى بلادنا ننهب مال اليتيم رغم أن القرآن أوصى به مرة بعد أخرى ونبينا الكريم صلى الله عليه وسلم كان يتيما ولكنه لم يشعر طوال طفولته أو صبوته أنه فقير. تبنته أسرته وتولاه جده دون تكلف لأن العرب لم يعرفوا إلى ذلك الحين الفقر أو الظلم أو النهب.

ولكننا عرفنا ذلك بعد الإسلام، لأن نظم الحكم التى عرفناها علمتنا الظلم والقسوة والسرقة، لأن الحاكم الأعلى كان ظالما وقاسيا ولصا، والمصيبة عندنا تأتى دائما من أعلى وعندما يكون السلطان لصا تنتقل السرقة على السلم كله. والوصى على أموال الايتام يشترى الوصاية من السلطان وينهب مال اليتيم أو ينهب باسم اليتيم وأبو المحاسن فى النجوم الزاهر وابن إياس فى بدائع الزهور يعطياننا مئات الأمثلة من اللصوص الأوصياء على الأيتام رغم ضخامة العمامة، وأنا شخصيا عملت مدرسا لأولاد سيدة كانت تسرق مال أولادها. الدرس أتعابه فى الشهر ثلاثة جنيها، ولكنها أرادتنى أن أوقع على إيصال بخمسة جنيها، وكانت تقول: ألم تأخذ نقودك؟ إذن فوقع! هذه الايصالات للمجلس الحسبى! لم ادرس هناك الا ذلك الشهر. عرفت بعد ذلك أن زوج هذه السيدة كان يضربها من هنا تعلمت السرقة والظلم وهي تسرق أموال أولادها دون أن تشعر.

في قرية شفيندى لا يعرفون ذلك لأن الحكومة في برن ليست حكومة لصوص. إنهم ناس أشراف يحترمون الشعب والأخلاق. وهايدى لهسا جد يعيش وحده بعيدا فوق القرية. إنه رجل ممرور من الحياة ولهذا فهو يعيش وحده في كوخ على بعد كيلو متر من القرية. هايدى هي أجمل شيء في حياته.. إنه يحبها والبنت الصغيرة تحبه ولا تريد فراقه.

ولكن أهل القرية لا يحبون هذا الرجل لأنه انسان منعزل. يقولون أنه في شبابه أيام كان يعيش في الدنيا مع الناس ويكافح في سبيل العيش يقولون إنه قتل رجلا، ولم تثبت عليه التهمة فبرأوه. هذا في رأى أهل القرية سبب اعتزاله للدنيا ولكن هذا الرجل رجل طيب جدا. ولكن هذه الطيبة لا تمنع من القتل، لأن الذين يقتلون ليسوا غير الطيبين فقط لأن القتل – بالنسبة لأى انسان عمل غير عادي – يتم في ظروف يكون الانسان فيها خارج نفسه، خارج انسانيته. والقتل يتم في الغالب في لحظة غيظ وهو يتم في لحظة والقاتل نفسه لا يدرى في معظم الأحوال كيف قتل هذا لا ينطبق طبعا على حالات التدبير والتربص لأسباب يعرفها القاتل جيدا مسألة القتل للثأر أو للانتقام للشرف أو للاستيلاء على الأموال هذه حالات تخرج عما نحن فيه لأننا نتكلم عن القتل الذى يقوم به رجل طيب أو غير طيب.. في ظروف يخرج فيها عن سيطرة نفسه. بعد القتل مباشرة يبدأ الندم. وقد يكون جد هايدى قد قتل كما يزعم الناس، ولكنه على أى حال يكفر عن جريمته بهذه العزلة التى يعيش فيها في أعلى الجبل في منطقة يدوم الشتاء والثلوج فيها عشرة شهور في العام. لا يمكن أن يكون هناك سجن أقسى من هذا.

هذا الرجل يعمل بيديه كل شيء لنفسه.. إنه نجار وحداد وخباز وصانع جبن.. وكل شيء يعمله باتقان بعض الأشياء يصنعها ليبيعها ليشترى بثمنها الأشياء القليلة التى يحتاج إليها ولا يستطيع إنتاجها مثل الدقيق. فهنا لا ينبت القمح، والرجل يشتريه من القرية ويخبزه هنا.

هايدى سعيدة جدا مع هذا الجد. إنـه يعمل لها كل شيء وخاصـة الطعام الذى يصنعه بنفسه اللحم هنا لحم خـنزير، فـهذا الرجـل يشترى خنزيرا واحدا فى العام ويقطع لحمه شرائح ويحفظها فى الثلج إنه لحـم مدخن. عند هذا الجد اعناز كثيرة يرعاها له ابـن أخـت لـه فقير يسـميه بيتر. هذا الولد لطيف جدا وقوى جدا، والجد لا يستطيع أن يذبـح عـنزة واحدة لأنها اشبه بأفراد عائلته وهو يحبها إنـها عـنزات جميلـة وسمينـة لأنها تعيش في منطقة باردة لا تدخلها الأمراض، والعنزة الواحدة تعطى لترين من اللبن فى اليوم. إنها أعناز أليفة جدا لا تشبه فـى شئ أعنازنـا الهزيلة التى تشقى النهار كله لكى تملأ ربع بطنها بطعام لا يسمن.

أنا شخصيا عرفت هذه القرية عندما زرت مدينة كور لأحضـر برنامجـا في اللغة الألمانية صعدت إلى شفيندى ومافوقها مـن بـلاد الجبـل لابـد أن تكون إنسانا من حديد لتعيش هناك كنت هناك في شهر أغسطس ودرجة الحرارة لم تزد على ست درجات. هذا يسمونه جوا حارا والأولاد يسيرون حفاة، أما أنا فقد كنت أرتعد ولكننى شعرت أن دمى كله يتجدد ولم أحس فى حياتى بصحة عينى كما أحسست فى ذلك اليوم.

ولكـن أهـل القريـة غير سـعداء لأن هـايدى مـع جدهـا لا تذهـب إلى المدرسة. القانون هناك يحتم دخـول الأولاد المدرسـة والنـاس هنـا ينفـذون القانون. الجد غير مرتاح لفكرة المدرسة لأن هايدى اذا دخلت المدرسة كان عليه أن يهبط إلى القرية لتكون البنت إلى جوار مدرستها.

ولكن خالة لهايدى تعثر على حل لمسألة تعليم هايدى. فقد عرفـت أن أسرة ألمانية غنية فى فرانكفورت تبحث عن رفيقـة لابنتها العاطلة كـلارا التى تعيش على كرسى بعجـلات فقد أصيبت بشلل الأطفال، اتصلت بالأسرة والأسرة قبلت هايدى والخالة صعدت وأخذت البنت على رغمها. لم يقاوم الجد لأن هايدى فعلا لابد أن تتعلم ولكـن قلبـه اعتصر اعتصارا وهو يرى البنت تمضى مع خالتها، لقد تعلق بهذه البنت وأصبح يعيش

لها. الآن لم يعد لحياته هدف. تحمل الرجل الصدمة وطلب إلى هايدى أن تكتب له عندما تتعلم الكتابة، لا أحد هنا يبكى للفراق لأن الحزن الحقيقى لا يعرف الدموع ونحن نبكى ليل نهار لنغسل أحزاننا فنحن لا نحتمل الاحزان.

في فرانكفورت لا تجد هايدى عند عائلة الرجل الموسر استقبالا حارا لأنهم رأوا فيها قروية حافية لا تحسن الأكل على المائدة ولا تحسن استعمال الشوكة والسكين وأسوأ من ذلك أنها لا تقرأ ولا تكتب أكثر الناس تطورا منها كانت الآنسة دوتماير ربة البيت ومربية كالارا إنها تنفر من هايدى ولا تريدها في البيت.

ولكن كلارا أحبت هايدى وأنست إليها وأصبحتا ل تفترقان .
وهايدى تعلمت القراءة والكتابة على يدى مدرس كلارا ولأن كلارا أحبت هايدى فقد أحبها أبوها وهو رجل ممتاز حقا وقد وجد هايدى شيئا طريفا وقد عطف عليها عطفا كبيرا ورجا الفراولاين دوتماير أن تحسن معاملتها وكل من في البيت أحب هايدى .

ولكن صحة هايدى اعتلت. جو المدينة لم يناسبها وهى ابنة الجبل التى اعتادت الهواء الصافى والثلوج الطاهرة والطعام القليل. إن معدتها لا تحتمل ثلاث وجبات في اليوم. وطال مرض هايدى وخاف عليها والد كلارا والطبيب نصح بعودتها إلى جدها فإن صحتها في حياة الجبل فى الثلوج فى الطعام القليل فى الجرى واللعب فى الثلج مع بيتر ومع الاعنان.

وتعود هايدى إلى الجبل بأمر والد كلارا فى الصيف تذهب كلارا إلى هايدى على الجبل وتنام معها في الفراش الخشن في بيت الجد.

بعد شهر تشعر كلارا بأن رجليها أحسن لقد بدأ هواء الجبل يشفيها كما شفي هايدى كلارا تقف الآن على قدميها وهايدى تعلمها المشى إنها تمشى الآن ببطء ولكنها تمشى والولد بيتر الذى كان يغار منها لن هايدى

تحبها أكثر مما تحبه يلقى بكرسيها ذى العجلات من أعلى الجبل.
الطبيب يأتى الآن ويكشف على كلارا ويقول إنها لم تعد تحتاج إلى كرسى في أواخر الصيف تعود كلارا إلى فرانكفورت وقد شفيت والطبيب أحب هايدى كان قد فقد ابنة له وهايدى الآن تحتل مكانها، ويتحدث إلى جدها ويقول له أنه يريد أن يتبناها ويكتب لها كل أملاكه هنا يرتاح قلب الجد فقد اطمأن على مصير هايدى هذا الرجل كان مريضا بقلبه ولكن حب هايدى وخوفه عليها أمسكه فى الحياة.

قصة جميلة كلها إنسانية أجمل ما فيها أنك تعيش فيها مع ناس أحرار ناس يعرفون واجبهم ويحترم بعضهم بعضا إنهم لا يظلمون لأن أحدا لا يظلمهم والحكومة فى سويسرا هى الناس، لهذا تجد سويسرا أرقى دول العالم، عندما تذكر أننا منذ وعينا لم نعرف إلا حكومات ظالمة تفهم لماذا نحن ظالمون، نحن نظلم أنفسنا وغيرنا، لأننا عشنا فى ظلم وكل ما نعانيه إنما هو من صنع أيدينا نحن يسرق بعضنا بعضا لأن أحساسنا ببشاعة السرقة مات من زمن إن كان لك ابن فأرجو أن تربيه على العدل. العدالة أساس كل سعادة لا تنس ذلك. لا تنس أن أول درس علمناه إياه رسولنا هو العدل وهو نفسه كان مثالا للعدل.

(١٠)
مناظر دامية !*

كان فكرى أباظة يسميها مناظر مؤذية لأن مستوى الذوق العام فى أيام، كان يقف بالتصرفات الخاطئة لمواطنيه عند مستوى الأذى، وكان هذا الرجل الطيب يتألم لها أشد الألم، ويصور لمن يقرأونه أن هذه هى أسوأ الأعمال التى يمكن أن يقع فيها مواطن محترم مثال ذلك: ورقة يلقى بها مواطن فى الطريق، أو رجل يتفوه بألفاظ نابية على مسامع الناس.

أما الآن فقد أصبحت أخطاء الناس جرائم فعلا، جرائم مؤلمة لامجرد مؤذية، والموظفون يستهينون بالناس إلى درجة لا تصدق حتى أصبح الإنسان لا يفكر فى اللجوء إلى الحكومة شاكيا من أى مخالفة أو خطأ.

وخذ الحكاية التالية التى جاءتنى بالبريد، ولن أبلغك باسم صاحبها لكى أعفيه من مزيد من المتاعب، الحكاية أن صاحبنا المواطن هذا وجد أرض الشارع الذى يقطن فيه مغطاة بالمياه، ففكر فى أن ينقل الخبر إلى جهة رسمية لتداوى ذلك الموضوع، وبعد تفكير اتصل برقم ١٢٢ وهو رقم شرطة النجدة، وقد أنفق فى إبلاغ شرطة النجدة فوق العشر دقائق ثم جلس للغداء.

وعلى مائدة الغداء جاء رجل شرطة يستدعيه ليكلم حضرة الضابط هشام.. تحت، نهض الرجل وذهب إلى تحت، وفتحوا معه تحقيقا: أنت الذى اشتكيت من هذا الماء الذى يغطى أرض الشارع؟

– نعم، هو أنا..

– اسمك ؟ رقم بطاقتك؟ وظيفتك؟ عنوانك ؟ قل لنا بقى يا سيدى إيه الحكاية؟؟!

* نشرت هذه المقالة فى ١١ سبتمبر ١٩٨٨م .

- حكاية هناك إنها مسألة الماء الذى رأيته سيادتك، وهو كما رأيت ماء نظيف، ومعنى ذلك أنه صادر عن ماسورة مكسورة.

- وهذه هى كل الحكاية؟

- طيب أتفضل حضرتك.

والرجل الذى كانوا أخرجوه من بيته بالبيجاما اضطر إلى أن ينتظر على باب القسم حتى مر تاكسى وافق على إعادته إلى بيته، وعندما استقر فيه أقسم ألا يطلب معونة الحكومة فى شىء، وأنا أرى أنه على حق، وأظن بقية القراء على هذا النمط.

أليست هذه مناظر مؤلمة.

واقرأ الخبر التالى وقل لى إن كان يمكن أن يوصف إلا بأنه ماساة دامية بالنسبة لوطننا مصر.

ورجاء القراءة موجه إلى السيد مدير مطار القاهرة فهو المسئول الأول عن المطار وموظفيه وحسن سير العمل فيه.

التاريخ: يوم الأربعاء ١٠ أغسطس ١٩٨٨.

الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، وقد وصلت للحين طائرة شركة مصر القادمة من عمان وعليها ٣٥٠ مسافرا.

فى قاعة الاستقبال ثلاثة شبابيك لاستقبال المسافرين وتيسير إجراءات دخولهم البلاد.

ولكن واحدا فقط من الضباط جالس أمام شباكه وأمامه صف من ٣٥٠ مسافرا، وعند الشباكين الآخرين لايوجد أحد. وطال الأمر وخرج من الصفوف سائح ألمانى، وقال بالإنجليزية وبصوت عال ما معناه إننا نرجو أن تدبروا لنا موظفين آخرين، فنحن مسافرون، وكل منا يريد أن يخرج لمصالحه، وساد صمت، وبعد قليل دخل ضابط شرطة وصاح فى

المسافرين: ماذا تظنون: هل نحن خدمكم؟ لا تعجبكم معاملتنا؟ فلماذا تأتون إلى بلدنا؟ وبكل كبرياء سار إلى شباكه وجلس وانصرف إليه نفر من المسافرين. وبعد نحو نصف ساعة أتى ضابط آخر.

وأنا أسأل السيد مدير مطار القاهرة: هل يعجبك هذا الكلام؟

وإذا لم يعجبك فما هو الإجراء الذى تنوى أن تتخذه؟

إن هذا الضابط الشاب قد الحق بمصر ضررا شائنًا، لقد آذاها، والسائح الذى تعرض لهذه المعاملة لن يعود إلى مصر فيما أظن، وهو لن يتردد فى حكايتها لكل من يقابلهم للتدليل على سوء أدب المصريين وسوء معاملتهم للضيف وقصر نظرهم.

وأنا لا أنظر إليه نظرتى إلى حادث فردى، إنه مأساة قومية، كلنا تزل بنا الضرر نتيجة لرعونة شاب طائش، ومن يتصور حضرته نفسه؟ وفى خدمة من يعمل؟ أليس يخدم مصر أولا ونفسه ثانيا؟ إذن فلماذا هذه الرعونة؟ لماذا سوء الأدب؟

إننا هنا فى أكتوبر نرجو السيد مدير مطار القاهرة أن يبلغنا نتيجة تحقيقه وعقابه، لأننا فى هذا الوقت الذى نحارب فيه بتوسيع نطاق السياحة ليس لدينا وقت لمثل هذا الطائش.

أما مدير شركة مصر للطيران فكان الله فى عونه، فى صيف ١٩٧٩ قابلت مدير شركة الطيران الأمريكية بأن أمريكان فى مكتبه فى نيويورك لأنهم كانوا قد أضاعوا لى شنطة فى الطريق من باريس إلى نيويورك. وقد وجدوها وأعادوها لى، ولكن مدير الشركة أصر على أن يقابلنى ويعتذر لى، وكانت المقابلة جميلة جدا، وتصور أننى لم أر على مكتبه ورقة واحدة، كل الأوراق تنجز فى الحال، وعند خروجى قدمت لى سكرتيرته حقيبة ملابس (فارغة) من أفخر صنف هدية منه.

وطبعا نحن لا ننتظر من مدير شركة مصر للطيران مثل هذه المعاملة - وإلا قال الأبالسة إن مدير الشركة يهدى حقائب وهدايا لأصدقائه ومحاسيبه، ولكننى أرجو أن يحاول أن ينجز كل شيء فى الحال وأن يكون مكتبه مثل مكتب مدير شركة الطيران الأمريكية بان أمريكان .

وفى أهرام يوم (٢٩ أغسطس ١٩٨٨م) نقرأ المانشيت الرئيسي: مبارك يتابع مشروعات الخطة وإجراءات تشجيع الاستثمار وسياسة الأسعار. مجموعة عمل لدراسة كل مشروع من المشروعات المتعثرة، مساهمة شركات الأموال في مشروعات إنتاجية للسوق المحلية والتصدير، زيادة دور القطاع الخاص فى استصلاح الأراضى، الاستمرار فى سياسة ترشيد استخدام المياه والكهرباء.

وكل ما يقول الرئيس مبارك حق، فهذا رجل صادق مخلص ووطنى عظيم، وهو لا يكف عن العمل يوما واحدا لأنه يأخذ الأمور مأخذ الجد، ولهذا فنحن جميعا نحبه.

ولكن جريدة الأخبار تنشر فى صباح ٢٣ أغسطس تحقيقا صحفيا عن المواطنين المصريين العاملين فى الخارج الذين أرادوا أن يعودوا إلى بلادهم ليشاركوا فى النهضة الكبرى فاشتروا أراضى واسعة غربى النوبارية، والحكومة قد وعدتهم بكل ما تيسر من التسهيلات: المرافق والمياه والكهرباء والبذور والتقاوى وما إلى ذلك.

وذهب المواطنون إلى الأرض وعملوا أقصى ما استطاعوا، ولكن موظفى الدولة لم يعملوا فى سبيلهم شيئا، بل كانت إجراءات موظفى الدولة معاكسة لمصالح المستثمرين، والشيء يعدون به اليوم ولا يتم بعد عام، هؤلاء الناس لا يحسون أبدا بالمسئولية، بل إن عندهم نوعا من الحسد للمصرى الناجح، وربما يكون هدف أحدهم خراب بيت المستثمر.

وكان المستثمرون قد اشتروا متر الأرض بخمسين جنيها. فباعوه بعشرين وأنقذوا ما تيسر لهم إنقاذه من أموالهم وعادوا إلى العمل فى الخارج.

وجريدة الأخبار جريدة قومية أى أنـها لا تنشـر شيئا لمجـرد الإثـارة والإساءة، بل لابد أن يكون هذا الشيء حقا فعلا. وبعد ذلك بيومين ٢٥ أغسطس زارنى واحد من هؤلاء المصريين، وحكى لى عن الأهوال التى قاساها من أولئك الموظفين، وأنا لن أنشر شيئا من هذه التفاصيل، ولكن القارئ يصدق المستثمر عندما يقول: وأخيرا أحسست أن هناك مؤامرة علينا، وأن أموالنا ضائعة ضائعة، أو لم يعد أمامى بد من التخلص من الأرض بالبيع بعد أن خسرت ٢٤ ألف جنيه.

وبمناسبة شركات توظيف الأموال.

ألا تريد صحافة الحكومة أن تدع الأمر للدولة؟

لقد شتمت شركات توظيف الأموال ما شاءت لها قلة الأدب. وتهجمنا دون حساب، ونسينا أنه لم يعد لنا الحق فى الاستمرار فى هذا الهجوم، لقد هجمت الحكومة وفعلت البدع ثم شمرت عن ذراعيها وفعلت الشيء الوحيد الذى تحسنه: سن القوانين، سنت قانونا وقالت إنه لا يخر نقطة ماء، ثم تبين بعد ذلك أنه يشر الماء من كل جانب.

والشركات قالت سمعا وطاعة. سنلتزم بهذا التشريع الذى وضعتموه، وبالفعل التزمت، مع أن هذا الالتزام ليس ضروريا، لأن السياسة التى سارت عليها إلى الآن هى تعبير عن سياسة مالية جديدة، سياسة لا تعرف النظام الأوروبى فى سياسة المال، وهو نظام قائم على الربا، والربا ليس من الإسلام بل ليس من الإنسانية، ولهذا حرمه الله سبحانه وتعالى، وقد بينت فى كتابى عن الربا أنه فعلا خراب الدنيا لأنه تجارة بالمال، والمال وسيلة لجلب المنافع. ولا يمكن أن يكون غاية فى ذاته، والإسلام يقرر: لا تكتنزوا المال وتتاجروا فيه بعضكم مع بعض، ويصبح الأمر احتكارا بين الأغنياء منكم. وإذا أنت ذهبت إلى سوق الأوراق المالية رأيت بعينى رأسك

قسوة التجارة بالمال، فهذه الورقة تمثل عشرة أسهم من شركة كذا وقيمتها مائة دولار، ولكنهم يبيعونها اليوم بمائتي دولار، وهم ينادون عليها كالمجانين فإذا لم يظهر مشترون كثيرون هبط السعر، ونفس الورقة بيعت بستين أو سبعين دولارا.

وهذا هو ما أنكره الإسلام، لأن المال في الإسلام وسيلة لا غاية. وأنت لا تستطيع أن تكتنز المال في بيتك أو حسابك في البنك لكي تتاجر به وقت اللزوم. وقد أرادت شركات توظيف الأموال أن تنهج نهجا جديدا أو قل إسلاميا – كما ظننت – في تثمير الأموال ونجحت من ناحية وأخطأ بعضها من ناحية أخرى. وكان ينبغي أن تعلن الحكومة بيانا بالأخطاء وتحذر الشركات منها. ولكنها وضعت القانون، ولا شك أن رجال الدولة بذلوا أقصى الجهد في التفكير والتشريع، والقانون جيد ما في ذلك شك. والشركات: سمعا وطاعة. وها هي ذي تجتهد اليوم في تطويع نفسها..

والغريب أن أحدا لم يشك للدولة من سوء تصرف تلك الشركات، فقد كانت تصرف لعملائها الأرباح المتفق عليها في الموعد، ولكنها ظهرت أحيانا بمظهر غير جاد. والقارئ ينبغي أن يلتمس لها العذر لأن التجربة – كما قلت لك – جديدة، وكل تجربة جديدة تتحمل الخطأ الكثير.

ونفس النظام المالي الأوروبي الربوي مر بأخطاء عدة. والدول نفسها لم تعرف أن مال الدولة ليس مال الحكومة وإنما هو مال الشعب، لأن مال الحكومة ليس مثمرا، والدولة لا تستطيع أن تكون تاجرا، وهذا الكلام قاله آدم سميث في كتاب (ثروة الأمم)، ومن ذلك الحين اعتدل مسار المال في الغرب، أما نحن فقصتنا مع المال كانت عوجاء خرقاء حتى الغزو الأوروبي. فقد كانت الدول تستولي على أموال الناس فافتقرت الحكومات وافتقرت الشعوب، ولجأت الحكومات إلى الاستدانة، والديون كانت مدخلا من مداخل الاستعمار.

المهم أن الشركات تحاول الآن أن تلتزم، تحاول أن تعدل سياستها. ولكن صحافة الحكومة لا تتوقف عن الإهانة والاتهام، بالأمس فقط كتبت روز اليوسف كلاما بذئا لا يجوز.

ليه ؟ ليه ياناس؟ هؤلاء ناس يحاولون أن يسيروا مع قانون الدولة فلماذا لا تدعونهم يحاولون؟ هذا عيب والله، ورجائي إلى صحافة الحكومة أن تلتزم بالذوق وروح المواطنة، دعوا الناس يجربوا إنهم على الأقل حاولوا. أما أنتم فماذا فعلتم؟

وفي ص ٧ من جريدة الأهرام الصادرة في ٢٨ أغسطس أقرأ الخبر التالي تحت عنوان مؤهلا ثقافية: (أعمل منذ فترة بالتربية والتعليم مدرسا وأحمل قدرا لا بأس به من الثقافة وأنا - كأي مدرس - أقوم بممارسة الدروس الخصوصية، وفي العام الماضي قمت بتدريس مادتي لإحدى الطالبات. وأقسم لك يا سيدي أن مخها مغلق بمادة لم تكتشف بعد، فهي بحق لا تدري شيئا عن أقرب الأشياء إليها. أما نفسها فهي بليدة متخلفة تماما. ولو جاملناها لقلنا إنها سطحية. أما عن سلوكها تعليميا فهي جاهلة تماما بحروف اللغة العربية. وخطها لا يتعدى رسومات ونقوشا على أحد جدران حائط بدائي. وخلاصة القول أن مستواها التعليمي لا يتعدى الصف الثاني من المرحلة الابتدائية مع العلم بأنها طالبة حصلت على دبلوم.

وقد فوجئت تماما عندما علمت منها أنها قد عينت بالتليفون. وتقوم بإعداد أحد البرامج الثقافية. وقد شاهدت اسمها فعلا في مقدمة أحد البرامج. وبرنامج آخر. وربما ثالث. فكيف نتساءل بعد ذلك عن تأخر أو انهيار المستوى الثقافي.

(الإمضاء: مجرد مواطن)

وهذا الخبر إذا صدق كان قمة من قمم المآسي القومية. ولكني أتريث في الحكم عليه منتظرا تعليق التليفزيون، فعهدي بالتليفزيون أنه يقدر المسئولية.

□□□

والحكاية التالية آلمتني جدا.

كنت في زيارة مستشفى للعظام في الإسكندرية. والمستشفى في ذاته آية في النظافة والنظام وارتفاع المستوى، والأطباء - من كبيرهم إلى صغيرهم - أساتذة في فنهم، والعمليات التي يقومون بها لا يمكن أن يعمل أحسن منها في أي مستشفى في الدنيا. ومن حسن الحظ أن نقرأ أن نفرا من أهل الخير في الإسكندرية افرغوا أموالهم على المستشفى. ولم يدعوا شيئا ينقصه.

وأجد مواطنا جلفا بيده طفل يقول بصوت عال:

- ماذا فعلنا لكم حتى تصروا على عمل العملية في مستشفاكم مع أن الدولة أمرت بأن أسافر مع ابني إلى ألمانيا لإجراء العملية له.

وقالوا له:

ولماذا تصر أنت على أن تعمل العملية في ألمانيا؟

- محافظة على صحة ابني، وقد وافقت الدولة على ذلك، فتجيئون أنتم وتحرمون ابني من فرصة العمر.

- الدولة لم تكن تعرف بمستوى هذا المستشفى، فلما عرفت وزارة الصحة بذلك عدلت إلى العلاج في مصر.

- وأنا لن أعمل العملية لابني إلا في ألمانيا.

وقلت له: أسمع يا سيدي، هؤلاء من أعاظم أطباء العظام في الدنيا. والعملية على أيديهم ستنجح أكثر من نجاحها في ألمانيا.

– لن تجرى العملية لابنى إلا فى ألمانيـا، وإذا تـأخرتم فسـوف أرفع قضية.

قلت له : وما سر هذا الإصرار على العلاج فى ألمانيا؟

– هذا حقي وحق ابني.

– غلط. هذا يا سيدى ليس حقك ولا حق ابنك. والقضيـة لـن تعطيـك شيئا، وأنا أنصحك أن تبادر بعمل العملية لابنك هنا.

وقال الرجل بكل وقاحة : ومالا أنت يا حضرة ؟ هل هو ابنك؟

– أجل هو ابني. كل أولاد مصر أبنائي.

وقال مدير المستشفى:

– يا فلان،دعه وما يريد. خذ يا سيدى وامض على بركة الله.

وأخذ الرجل بذراع ابنه وقال: طبعا آخذه.. أترك ابنى يقع فى النار؟

ومضى بابنه منتفخ الأوداج، وقلت لصاحبي الطبيب:

– سيعود بابنه .

– وأنا لن أقبله.

– بل تقبلونه.. ما ذنب الغلام نعاقبه بغباء أبيه؟

وعـاد. وأجريـت العمليـة لابنـه ونجحـت. والأب لم يقـل كلمـة شـكر واحدة..

(١١)

فتافيت.. وخوازيق.. وعفاريت*

سألته : الأخبار؟

قال: لا شيء. أخبار كل يوم. مفاوضات العراق وإيران متعثرة. كل واحد منهما مصر على رأيه، وإسرائيل مازلت في وحشيتها مع الفلسطينيين، وشامير عاد إرهابيا كما بدأ. إنه يعتقد أن من حق إسرائيل أن تبيد الفلسطينيين، والأمريكيون في لعبهم الغريب مع الروس. ريجان يريد أن يختتم رياسته ملاكا. والفيضانات في كل بلاد الدنيا من ثلاثة شهور كنا نموت من قلة المطر، اليوم نموت غرقا من مياه الأمطار في بنجلاديش وفي الصين والمكسيك. والطائرات تسقط في كل مكان، والناس يموتون بالمئات.. إلى آخر هذه الأخبار المملة التي يصدعون بها رؤوسنا كل يوم.

– كل هذا ونقول لا شيء؟

– بلى. هذه أمور لا تنتهي يا أخي، لأن الناس يريدونها كذلك. وإلا فقل لي: ألم ينص قرار هيئة الأمم رقم ٥٨٩ على وقوف الحرب بين إيران والعراق على أن تعود الحدود بين البلدين كما كانت قبل الحرب؟ فما معنى الكلام اليوم في شط العرب، وكيف يقول كل من الجانبين أن من حقه أن يمنع الآخر من دخول شط العرب؟

– لأن كلا منهما يا أخي اقنع شعبه بأنه انتصر في الحرب.

وكيف يكون هناك انتصار دون كسب؟

– ما ذنبنا نحن يا أخي.. لقد هلكنا من هذه الخلافات والحروب والمطامع. ما ذنبنا والله.

---

* نشرت هذه المقالة في ١٨ سبتمبر ١٩٨٨م .

– ذنبنا إننا فتافيت. كلنا فتافيت. أنا فتفوتة وأنت فتفوته، وكل الناس الذين تراهم يروحون ويغدون أمامك فتافيت. والفتافيت هم المساكين الذين يحملون عبء هذه الدنيا.

– لا يا أخي.. أنا لست فتفوتة.

– إذن فأنت فتفوت.

– ولا فتفوت.. أنا دكتور.. أنا طبيب..

– آه.. نسيت يا أخي أن أجرة كشفك أصبحت ثلاثين جنيها. ولا يمكن أن يكون إنسان يتقاضى ثلاثين جنيها كشفا فتفوته أو فتفوتا.. أنت خازوق.

– خازوق ؟ كيف تقول إنني خازوق؟

– يا عزيزى إن الخازوق لا يحس إنه خازوق.. إن الذى يحس بذلك هو الذى يدفع الثلاثين جنيها.

– إنني أعالجه بها.

– ليس مؤكدا.. المؤكد الوحيد هو أنك تقبض الجنيهات وتضيفها إلى حسابك.. والمريض في الغالب لا يشفي. لابد أن يذهب إلى خازوق آخر ويدفع ثلاثين جنيها أخرى. إنكم يا أخي لا يمكن أن تكونوا فتافيت. أما نحن فإننا نعتبر أنفسنا سعداء لأننا فتافيت، نحن نخدم الدنيا ونأخذ أجرنا العادل. نحن لا ننهب ولا نسرق. نحن لا نظلم ولا ندس أيدينا فى محافظ الآخرين. أن الفتفتة يا عزيزى فيها شيء من خفة الظل. إن الفتفوت منا يشعر إنه مسروق منهوب ويجد سعادة في ذلك. ولولانا نحن الفتافيت لخربت الدنيا. أما أنتم فخوازيق.

– لا تقل إننا خوازيق.

– بل خوازيق ونصف. وهل تظن يا عزيزى أن الخازوق يحسن أنه خازوق؟ أبدا! إن يحس بالخازوق هو الذى يلبسه ويطلع من عينه.

لقد كنت في الإسكندرية هذا الصيف، وكنت أجد نفسي أحيانا وسط ناس يقال أنهم أصحاب ملايين، ولكنهم يتصرفون تصرف خوازيق. ليس على أحد منهم منظر فتفوت أى إنسان، وأولادهم مشروعات خوازيق. ملابسهم غالية الثمن. ولكنهم يبدون فيها وكأنهم متسولون. لقد طفت بالشاطئ من المنتزة إلى رأس التين. لم أجد واحدا من أولاده الخوازيق هؤلاء يركب يختا غالبا كالذى يركبه الأغنياء وأولادهم فى مياه نيس، وكان، ومونت كارلو، وشواطئ ميامى، وكاليفورنيا ويناقس بعضهم بعضا ويعطون أوربا وأمريكا هيئة الغنى والبطولة والشجاعة والرجولة، لأن خوازيقنا فعلا يملكون المال، ولكنهم فقراء. اقصد أن قلوبهم فقيرة وإنهم خوازيق وأولاد خوازيق. بعضهم يتصرف تصرف أغنياء حقا. بعضهم أنشأ مستشفيات – وبنى مساجد وساهم فى مستشفيات هؤلاء تجدهم دائما متواضعين بسطاء، والواحد منهم يشعر براحة ضمير لأنه استعمل الزكاة فيما شرعها الله له: استعمله في التخفيف عن آلام المساكين. فى عمل الخير. أما الآخرون فتجدهم متلطعين كالذباب على شواطئ المنتزه والواحد منهم أمامه زجاجة الويسكى أو الجن أو البيرة، لكى يعرف الناس أنه خازوق. وبناتهم خازوقات واحدة منهن كانت تجتهد فى أن تعرض على عيون الخلق ما منحها الله من جمال قليل. إنها تجلس بالمايو وتشرب الويسكى وتنهض وتروح وتجئ فى دلال ثقيل.

إن الفتافيت يا عزيزى هم الذين يبنون مجتمعنا هذا. إنهم مكافحون طيبون يؤمنون بالفضيلة وينفرون من الفساد. أما الخوازيق فلا يهمهم إلا المال الذى فى الجيب. كيف أتى؟ كيف تجمع؟ لا يهم.. المهم أنهم أصحاب عفاريت، أقصد ملايين. واحد منهم كان يركن سيارته المرسيدس فى مكان ممنوع. وأتى الشاويش وأخذه غرامة. وعندما عاد ورأى علامة الغرامة غضب لأنه بصفته خازوقا لا ينبغى أن يدفع غرامات. فذهب إلى الشاويش وشتمه. وواحد منا نحن الفتافيت لم يعجبه هذا الكلام. فتصدى للدفاع عن الشاويش. ودخل فى معركة مع ابن الخازوق وضربه وألقى به

على الأرض وكانت لمة وهيصة وأتى الضابط ووجد أن الحق مع الفتفوتة فانضم إليه وأمر بالقبض على الخازوق وانقلبت الدنيا لأنه لا يجوز القبض على الخوازيق، ولكن الضابط أصر، لأنه كان فتفوتة مثلنا. وفي القسم انضم وكيل النيابة إلى الفتفوتة ولم يحفل لأي وساطة.

لم أر في الدنيا أثقل من أصحاب الملايين في بلدنا. إن معظمهم لصوص ولا يستحون، ونصابون لا يخشون.

متفوخون على الفاضي ويفسدون المجتمع. ويرون أنهم سادتنا.

وبعضنا يحاول أن يقوى هذه الفكرة في رؤوسهم ورؤوسنا، وانظر مثلا إلى مسلسل يعرضونه الآن. إن بطل المسلسل منادى سيارات. ومنادى السيارات في حقيقته متسول. إن عمله في موقف السيارات ليس وظيفة فليس له راتب. إن يمد لك يده دائما لأنه متسول لا موظف. لأنه الموظف يتحمل مسئولية. أما منادى السيارات فأي مسئولية يحمل؟ وأنت إذا جرى لسيارتك شيء رأيته يقف كاللوح كأنه لا دخل له في الموضوع. ولكن الرواية تريد أن تقول أنه بطل. لقد ربى أولاده من حرفة التسول هذه. رباهم واشترى شقة وأصبح في زمرة الأغنياء، ولكنه ظل يحمل طعامه إلى بيته في ورق جرائد، وظل يجلس إلى المائدة دون أن يغسل يديه. لا سكين ولا طبق والأكل دائما بالأصابع القذرة. وأولاده واحد منهم طبيب أسنان، وهو لم يشعر بأن أباه متسول إلا عندما رفضت أم البنت أن تزوجه ابنتها. لو لم ترفض السيدة لما أحس أنه ابن متسول. والسيدة على حق لأن ابنة الطبيب لا يجوز أن يتزوج ابن متسول ولكن مؤلف الرواية - وهو دون شك يفكر بعقلية خازوق يقف إلى جانب منادى السيارات ويريد أن يصوره بطلا، معقول هذا يا ناس؟

إننا نحن الفتافيت نرفض ذلك. إننا نبني الدنيا ولا نحب من يهدمها. من الناحية الأخرى نرى سيدة كانت متزوجة من منادى سيارات وأنجبت

منه أولادا ثلاثة. ثم انحرفت وتاجرت في الأغذية الفاسدة وكسبت المال وسكنت الفيلا وصار لها الخدم والحشم، وهنا صرخت: أولادى!

إنهم ليسوا أولادك يا سيدتى فإن الأمومة ليست مجرد الإنجاب وأنت لست أما، وليس لك الحق في أن يكون لك أولاد لا أطباء ولا عفاريت، أنت عدوة من أعداء الفتافيت أنت عدوة من أعداء المجتمع . وأنت لن تخدعينا لا أنت ولا المؤلف الذ يفكر بعقلية المتسول مثلك.

□□□

كان بلدنا هذا – مصر – أسعد بكثير عندما كان أهله كلهم فتافيت يتصرفون على أنهم فتافيت، حتى الباشوات كانوا فتافيت، كان فيهم جهل وعنف، ولكنهم كانوا في أعماقهم ناسا طيبين ومواطنين صالحين، لم يفسد حالنا إلا عندما دخل مجتمعنا الخوازيق والعفاريت، ونحن من جانبنا نخضع اليوم لعقلية الخوازيق الذين يسرقون وينهبون ويكذبون ويخدعون ويزعمون أنهم ناس محترمون.. في آخر مرة كنت في الحجاز كنت في فندق يسمى القندرة، ورأيت نفسي وسط أربعة رجال ونسوانهم، كلهم خوازيق وعفاريت، أتوا إلى الحجاز لكي يكذبوا على الله سبحانه. كل مال معهم كان مسروقا، وواحد منهم كان يبكي خشية من الله فيما يزعم.

وكل متر أرض يملكونه كان منهوبا، كلهم كانوا تجار سوق سوداء. واحد منهم تولى بالأغلبية السياسية إدارة شركة أقطان. وسرق ونهب، وانتقل من صعلوك إلى شيء لا يصدقه العقل، كان جالسا في هيئة رجل تقي نادم بين يدى الله. كنت أنظر إليه وأقول:

معقول يا ناس؟ هذا المفلس بالأمس يصبح اليوم شيئا هائلا، يملك عمارة في الزمالك وحسابات في أكثر من بنكين؟ من أين أتته هذه الأموال؟ والدولة أين هو منه؟

بعد أن عدنا من الحجاز أقرأ فى الصحف أنه مقدم للمحاكمة يتهمونه بسرقة بضعة ملايين، ويطلبون حبسه، وهو يلجأ إلى ضبع من ضباع المحاماة ويزعم أنه كسب المال بعمله. كيف يا إنسان وأنت كنت من خمسة عشر عاما فتفوته مثلنا تسعى لرزقك؟ إنها السياسة! السياسة حشرتك في الوظائف الكبرى، وأنت شمرت عن ساعد الشر ولم تذكر الدين أو الأخلاق، ونهبت قدر ما استطعت، وتنعمت واستمتعت، وحسبت نفسك إنسانا عظيما وشخصية لها مكانها، وأنت تراني انتظر تكسيا في الطريق فتقف وتقول أتفضل، وأنا لا أتفضل لأنني أولا أعرف أن مالك هذا كله مسروق، ثم إننى أخشى أن يصيبنى الرصاص إذا أنا جلست إلى جوارك لأن أعدائك كثيرون وهم لك بالمرصاد فى كل زاوية، وكلنا نعرف أنك لا شيء، كلنا نعرف إنك خازوق وعفريت، وكل لقمة عيش تدخل جوفك حرام. وكل شربة ماء حرام وكلك خازوق ملعون.

وبعض مفكرينا يؤيدونك ويكتبون مسلسلات يجعلون أبطالها عفاريت مثلك. هذه الأيام نرى مسلسلات بطله إنسان عاطل كل ميزته أنه فيما يزعمون خفيف الظل، وهذا الشيطان يسعى للزواج من بنت طيبة غنية، وغرضه الوحيد الحصول على مالها. الرواية كلها تافهة. وقد كتبت قبل ذلك مائة مرة إنها حكاية البنت الطيبة التى تنسى أنها امرأة فتهمل هيأتها وتنصرف إلى عمل جاد هو دراسة الحشرات. المؤلف لم يختر التخصص فى الحشرات إلا لأنه ظن أن هذا عمل مضحك إذ كيف تتخصص بنت في دراسة الحشرات؟ المهم أن هذا الثقيل الرذل يحاول أن يخدع البنت وفجأة تنبهها سيدة طيبة إلى أنها بنت جميلة وأنها تستطيع أن تكون فاتنة إذا اعتنت بنفسها، وتعتنى بنفسها وتصبح فاتنة حقا. وصاحبنا تدور من حوله الدنيا. ويشعر أنه سقط فى الحضيض وهو فى الواقع لا يستحق إلا الحضيض فهو إنسان جاهل تافه. لا يعرف إلا الفكاهات السخيفة ويحاول أن يعجب البنت وكان ينبغى إلا يوفق ولكن

المؤلف خازوق. ولهذا فهو يقف إلى جانب الخازوق مثله. والرواية تصبح تمجيدا لإنسان تافه لا يستحق إلا الاحتقار.

هذا ليس تأليفا ولا فكرا أنه نصب واحتيال، ومثل هذا المؤلف كان من الممكن أن يكون فتفوتة طيبة مثلنا، ويخدم المجتمع بفنه، ولكنه لا يريد خدمة المجتمع، أو قل لا يعرف كيف يخدمه.

لأن خدمة المجتمع تضحية وقناعة وفضيلة، ومن العسير جدا أن يكون الإنسان مضحيا وقنوعا وفاضلا. وأنا شخصيا ينهبني الناس ولا أغضب، ولي عند ناس كثيرين نقود وأطالبهم بها ولا يدفعون ولا أغضب لأنني أعرف أنه ليس من السهل عليهم أن يكونوا فتافيت. وأسهل جدا أن يكونوا خوازيق أو عفاريت، لأن الأمر يتطلب هنا قلة الذمة والنصب والاحتيال. وصدقني أن ذلك أسهل من التصرف الفاضل الذى يتطلب منك قوة نفس وعزيمة وفضيلة وواحد من هؤلاء أكل عليّ مالا. ثم احتاج إليّ أن أقوم له بعمل، ووعد أن يدفع مبلغ ثلاثة آلاف جنيه ودفع ألفا. و لأننى رأيت فى العمل خدمة عامة فقد قبلت وقمت بالعمل ودفع ألفا أخرى وأكل الباقى. وصدقنى إننى لم أحزن ولم أغضب وقلت لنفسى أنه مسكين ولا يمكن ألا أن يكون هكذا. ثم أصابته نوبة قلب، ورقد فى الفراش ولم أزره لأنه لا يستحق وانفق فى العلاج فوق العشرة آلاف جنيه، وذهب إلى إنجلترا وكنت هناك فمررت عليه فى المستشفى، وقلت له إننى غير آسف على ما أصابك، فإن الله سبحانه وتعالى له أساليبه فى أن يجعل مثلك يدفع ما عليه، وأنت أنفقت فى مصر وهنا أضعاف ما أكلت منى، فتصنع أنه لا يسمع وسلمت عليه بنفس طيبة ودعوت له بالشفاء من صميم قلبى والله وخرجت، واتصل بى بالتليفون فى الفندق وقال: يا فلان لك عندى ألف جنيه ! قلت: لى عندك ألف جنيه من الصفقة الأخيرة. وستمائة قبل ذلك، ولكننى لا أطالبك بشىء، ويكفى إنك ناشر كتب وهذه فى ذاتها فضيلة. قال: أريد أن أبعث إليك بألف جنيه إنجليزى. قلت:

لا داعى لذلك يا أخى، لقد عرف الله سبحانه كيف يعاقبك، وهذا يكفينى. لأننى فى الحقيقة أغنى منك رغم أننى اسكن فى فندق درجة ثانية وصدقنى أنك فقير رغم كل شىء وكان الله فى عونك على نفسك.

إننا - نحن المفكرين والكتاب والمؤلفين - ننسى أحيانا أننا معلمون. إننا نكتب لكى نسلى الناس، ولكن التسلية ليست خدمة قومية إنها خداع ولهذا فإن كتابتنا فى أحيان كثيرة تضر الناس وتفسد المجتمع، وانظر مثلا إلى صور الناس الذين يختتنون من التهريب ومن المخدرات كيف ينتقلون من الفقر إلى مظهر غريب من الغنى: المكتب الفاخر.. السكرتيرة.. التليفونات والسيارة والخدم ووراء ذلك كله رجل أو امرأة لا يعرف أى منهما كيف يرتدى ملابسه، والحكاية تنتهى دائما بأن البوليس يكتشف السرقة، والخازوق يدخل السجن، ولكن دخول السجن فى هذه الحالة يصورونه لنا فى صورة زائفة وكل الإجراءات خطأ، والمؤلف لا يعرف القانون ولا إجراءات القانون. إنه يتظاهر بأنه مع القانون، ولكنه فى الحقيقة يؤذى القانون، ويؤذى الناس. وواحد منهم يقول أن رجلا قبضوا عليه لمجرد اتهامه بسرقة مال من دولاب، هذا خطأ طبعا ولكنه خطأ خازوق يريد أن يبدو فى نظرنا أنه فتفوته.

هذا كله فساد وإفساد. ونحن الفتافيت نعرف ذلك جيدا ونقول لأولئك الناس إنكم هلافيت وخوازيق. نحن أيها الناس لسنا فى أمريكا، هناك تجد الاجرام إجراما حقا.

والمسدس دائما في اليد، وقتل إنسان أهون من قتل ذبابة، صدقنى أن مؤلفى تلك الروايات الأمريكية أشرف من مؤلفى رواياتنا التى أشرنا إليها، إنهم على الأقل ليسوا منافقين. إنهم هلافيت وعفاريت، ولكنهم ليسوا منافقين.

○○ يقولون إن بلدنا حافل اليوم باللصوص. معقول ونحن مسئولون عن ذلك لأننا نعامل الخوازيق باحترام. واللص ينبغى أن يعاقب وأنا أرى

أن يده بل رقبته - ينبغى أن تقطع أن القانون الفرنسى الذى نطبقه لم يكتب لنا وهو غير صالح لنا لأن الذى يصلح لنا هو قانون الإسلام.. شريعة الله التى بينها لنا فى القرآن وهى شريعة عادلة وجميلة شريعة تخدم الغلابة مثلى ومثلك اذكروا دائما أن الرئيس مبارك قال فى خطابه الأخير فى ٩ سبتمبر.

إن الصرخات غير المسئولة سترتد لأصحابها.

(١٢)
إلا هذا الغلبان المظلوم*

نحن في طائرة شركة مصر للطيران، وقد أكرمونا وأطعمونا، وأعلنوا – لكي يشغلونا وننسى أننا معلقون بين السماء والأرض – أن لديهم أشياء طريفة جميلة يبيعوننا إياها بسعر مخفض، وأن الموظفين سيمرون بها علينا بعد قليل، ثم أضافوا. إن الأثمان تقبل بكل عملة على وجه الأرض إلا الجنيه المصرى، فقلت في نفسي: أيها الغلبان المسكين، حتى نحن أهلك نظلمك. ما ذنبك والله حتى نخرجك من عملات الدنيا المحترمة ونحن – دون شك – سبب بلائك وسوء حظك؟! ولو كنا قوما منتجين أعزاء عاملين لارتفع شأنك، وكنت على نفس مستوى العملات المتميزة التى يقبلون بها أسعار ما يبيعون، وما ذنبك والله حتى يساوى ثمانية منك دينارا كويتيا، وأنت والله في بلدك أعز من الدينار الكويتى فى بلده؟ فأنا ومعى جنيه واحد في مصر أغنى وأقدر على التصرف منى فى الكويت ومعى دينار كويتى لا يكفي لمجرد الإفطار.

وقد أخذت ذات مرة تكسيا من مطار الرياض إلى الفندق فدفعت خمسين ريالا سعوديا، وهذا هو السعر الرسمى الذى حددته الحكومة لهذا المشوار، أما من مطار القاهرة إلى الفندق فأنت تركب ليموزين محترمة وتدفع اثنى عشر جنيها، تستطيع أن تضيف إليها جنيها بقشيشا لو شئت، أى أن قوة الجنيه المصرى هنا ثلاثة أضعاف قوة الريال السعودى هناك، بل إن الجنيه المصرى هنا فى مصر أقوى من الدولار في واشنطون، فأنت تستطيع أن تتناول بالجنيه هنا إفطارا محترما، أما هناك فإن الدولار يشترى لك الخبز بادوبك. وفى مدريد يقولون لك إن البيزيتا

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٢ مارس ١٩٨٩م.

تساوى القرش المصرى، وهذا كلام غير صحيح، فإن الجريدة هنا بعشرين قرشا، وهي فى مدريد بستين أو سبعين بيزيتا، وأخذت مع صديق فنجانا من الشاى فى مقهى فدفعت أربعمائة بيزيتا، ونفس فنجان من الشاى فى مصر لا يساوى ربع هذا الثمن فى أغلى المقاهى والفنادق.

ثم إننا عندما أصدرنا هذا الجنيه المصرى أصدرناه ليتعامل الناس به فى مصر، وكان علينا نحن أن نجتهد ونعمل ونتقن حتى نخرج صناعات تباع بعملات أجنبية كثيرة، فترتفع قيمة الجنيه المصرى من تلقاء نفسها، ولكننا أولا كسالى ولا نعمل بما فيه الكفاية، ثم إن أحدا لم يعلمنا الاتقان، فقد رأيت فى التليفزيون بنات يصنعن بولوفرات، والواحدة منهن تصنع تسع قطع فى اليوم، ولكنها صناعة رديئة، وإذا أنت اشتريت واحدا وجدت أن كما أطول من كم، وعرض البلوفر من أعلى أوسع من عرضه من أسفل. والنتيجة أن الناس إذا ذهبت تشتري من محل كبير تحاشت هذا النوع من الملابس، وثمنها ينخفض نتيجة لذلك، والسبب إننا لم نعرف أن الإتقان له قيمة، والقيمة هنا هي بدل الوقت الذى يضيع فى التأنى وإتقان القياس والمراجعة مرة بعد أخرى، ولكن العاملة لا تعرف ذلك، فهى تصنع القطع التسع، ولو استطاعت أن تصنع عشر قطع لصنعت، ومنظرها نفسه ليس فيه إتقان ولا ذوق، فهى مبهدلة، و(عرة) وأنت إذا رأيتها لم تنتظر من يدها شيئا ذا قيمة، والمسئولية بعد ذلك ليست مسئوليتها، بل مسئولية تجار الجملة الذين يشترون منها، فلو كانوا يتسلمون القطع واحدة واحدة ويفحصونها ويراجعون مقاييسها ويردون مالا يعجبهم منها لفهمت هذه البنت أن هناك فرقا بين الإتقان و(الكروتة) وعرفت أن خمس قطع متقنة أجدى عليها من عشر غير متقنات. ومنا – فى هذا المثل الصغير – نضع أصابعنا على أسباب نكبة الجنيه المصرى، فنحن فى الحقيقة السبب. وأكثر من ذلك أن الكثيرين منا لا يبالون بأن يهبطوا بقيمة الجنيه المصرى فى سبيل كسب شخصى،

وأعرف رجلا يملك شقة معنا في البيت وهو يعرضها للإيجار، ويطلب هذا الإيجار بالدولار، والذى أعرفه انه ليس بتاجر أو صانع، أى أنه ليس بحاجة إلى الدولار بالذات لكي يستورد بضاعة أو مواد خاما لازمة لصناعته، ولكنه الطمع، فهو إذا طلب ألف دولار مثلا استطاع أن يبيعها بألفين وخمسمائة جنيه، وطبيعي أن أحدا لا يريد الإيجار منه بالدولار، لأنه إذا كان طماعا فإن الآخرين أيضا طماعون، وبين أقدام أولئك الطماعين يضيع الجنيه، فلا أحد يريد أن يتعامل به، وهذه في الحقيقة مصيبة قومية، ونحن في الحقيقة لا نستحق هذا الجنيه، لأن الجنيه لا ذنب له، ولكن الذنب ذنبنا، ولو كان الدولار هو عملتنا أساسا لمرغناه في التراب، هذا يذكرني برجل كان يسكن جوارنا أيام سكنانا في شبرا، وكانت له زوجة هي آية في الكمال والجمال والإقبال على العمل، وقد أنجبت له أربعة أولاد: بنتا واحدة وثلاثة أولاد. وهي تربيهم أحسن تربية، ولكن هذا الزوج لا يكف عن أذاها وإطلاق لسانه عليها، وهي تشكو منه وتبكي، فقلت لها: لا عليك يا أم فلانة حسبك أولادك فهم جواهر، واصرفي نظرا عن هذا الرجل الطويل اللسان، فهو لن يكف عما هو فيه قط، ودعي الزوجية قائمة لصالح الأولاد، وزوجك هذا لم ينصلح حاله أبدا، فهو هكذا (عرة) وكل شيء يصل إلى يده تهبط قيمته، وقد سمعته يشتمك فتعجبت وسألت الله لك الرحمة.

□□□

ولا أريد أن أقسو على شعبنا وأقول إنه سبب تدهور قيمة الجنيه، أو يشبه هذا الزوج الذى تحدث عنه، لأن شعبنا في الحقيقة مجتهد وشغال وذكي وقادر على الإنتاج الجيد، ولكن أحدا لا يعلمه كيف يعمل وماذا يعمل، وأظن أن هذا هو العمل الرئيسي الذى ننتظره من الدولة. فنحن لا نطالب الدولة بأن تعمل، بل نطالبها بأن تعلم الناس كيف يعملون، وماذا يعملون، ثم تعاونهم في تسويق ما يصنعون. وأظن أننا عندما أنشأنا وزارة الصناعة لم نقصد إلى أن نجعل وزير الصناعة ورئيسا لمجلس إدارة

كذا شركة، فليست رياسة مجالس إدارة الشركات عمل الوزير، وإنما عمل الوزير أن يكون معلما ومرشدا وموجها وفاتحا للطريق، فإذا كانت هناك شركة صناعات معدنية فإن عمل الوزارة هو أن تكون الموجهة لهذا الشركة أو الناصحة لها إذا طلبت النصيحة، وأهم من ذلك فإن عليها أن تيسر شئون التصدير، وتدل على الأسواق الخارجية، وليس من الضرورى أن يكون للوزارة مندوب في كل بلد، كما هو الحال اليوم، فهذا الموظف لا يزيد على أن يكون عضوا فى سفارة لا يتصرف إلا بإذن السفير أو بأمره، ولكن الأهم أن تكون في الوزارة إدارات علمية فنية، يستشيرها الناس، ويحصلون على المعلومات منها، أى أن إدارات الوزارة ينبغى أن تكون معاهد، ولابد لها أن تعاون الصناع على التصدير، فلا ينتهى الأمر بالصناع إلى أن يقف بلا حول أمام قوانين الجمارك ونظمها ورجالها، بل أنا أظن أن موظفي الجمارك في غير مصر يتقاسمون الشركات، فهناك موظف متخصص بشئون كل شركة يعرف كل شئون تصديرها، لأنه هو المسئول عن ذلك، ودون أن يكون له من الشركة على هذا أجر أو مكافأة، لأن الدولة أداة تنشيط وتيسير، وليس من عمل الحكومة أن تكون محاسبا ورقيبا على الشركات فحسب، فلا شيء يعطل الشركات مثل المحاسبين والرقباء، ويكفى أن يعرف الموظف أنه محاسب أو رقيب لكى يصبح عقبة، والمصريون بالذات إذا أصبح الواحد منهم محاسبا أو رقيبا أصبح من تلقاء نفسه خازوقا، لأنه يظن أنه ما دام قد أصبح محاسبا فقد أصبح رئيسا، وهو يحسب أن الرقيب ينبغي أن يكون ثقيل الدم ذا غلاسة وثقل ظل، وقد اشتركت في التصحيح فى الثانوية العامة مرة واحدة، ثم قلت توبة لأننى وجدت المراجع يتظر فى الورق الذى صححته ويحاسبنى كأننى أنا الطالب، وأظن أن هذا مركب نقص يظهر فى هذه الحالات، وكان عندنا ذات مرة ناظر مدرسة كان يقف وراء باب شرفة غرفته ويرقبنا نحن المدرسين ونحن داخلون كأنه يراقب متسللين وكنت أكره منه ذلك، فقررت أن أكون فى المدرسة قبله، وعندما دق جرس بداية الدراسة

خرجت أسير متمهلا نحو الفصل. وهنا وجدت سعادة البيه الناظر مقبلا من الناحية الأخرى وهو يقول بلهفة: فلان.. ألا تعرفون لماذا لم يأت؟ فقلت له: ها أنذا في خدمتك يا سعادة البيه! فقال وقد خاب ظنه وكيف لم أرك داخلا إذن؟ قلت: اللهم يا سيدى أننى هنا. وها أنا في طريقى إلى الفصل، ألا يكفى هذا؟

□□□

ولقد طالما سمعت الناس عندنا يتحدثون عن كوريا وتايوان ويبدون الإعجاب بهما كأنهما صنعتا شيئا من وراء العقول.

وأقول الحق إننى لا أرضى أن نكون مثل هذه أو تلك، وما دمنا نريد أن ننهض فلننهض بصورة محترمة، أما أن نصنع أقلاما لا تكتب، ومحركات لا تتحرك، ومسجلات لا تسجل، فأمور لا نريدها. ومادمنا نريد أن نقلد فلنقلد شيئا (عدلا) فلنقلد المخترعين أنفسهم، ولنتعلم على أيديهم، أما أن نقلد المقلدين ونسرق اللصوص فأمور لا معنى لها.

ولكننى لا أرى أن نقلد أصلا: لا (العدل) ولا الخيبان، لأن العمل ينبغى أن يصدر من داخل نفوسنا.. من ضميرنا، وينبغى أن يقوم على علمنا، ونحن إذا أردنا أن نتعلم تعلمنا، وما رأيت في الدنيا شيئا يصنعه إنسان إلا استطاع غيره أن يصنع مثله إذا أراد، وهؤلاء الأوروبيون يسبقوننا لأنهم أهل جد وعلم، فإذا علموا شيئا أقبلوا يعلمونه، ولهم فى ذلك صبر ودقة ومثابرة، وإذا أنت شهدت ألمانيًا يعمل تعجبت من انصرافه التام إلى ما يعمل، ودقته البالغة في كل شيء، وهو مع ذلك لا يتكلف الدقة أو يشكو منها، ويسجل كل شيء يعمله فى دفتر، ولا يكتفى بالقياس أو الوزن مرة واحدة قط، وهو لهذا إذا سلمك شيئا صنعه قرأت في عينيه الثقة في النفس، واللذة فى العمل، وقد تعلمت هذا منهم، وأصبحت اليوم أجد لذة في العمل معهم، ولهذا فأنا يعز على الجنيه المصرى، ولا أرضى قط أن أبيعه بأقل من الثمن الذى أقدره له، فهو –

رغم كل شيء - يساوى فى نظرى أربعة دولارات أمريكية وجنيها إنجليزيا وينسا، وهكذا. وإذا اضطرتنى الظروف فى يوم من الأيام أن أبيع الجنيه بأقل من ثمنه فأكون أنا الذى أرخصت نفسى، وأذكر اننى أشتركت مرة فى قاعة بحث فى جامعة توينجن وكانوا يتكلمون عن العلاقات بين إنجلترا وروسيا فى أواخر القرن الماضى. وتكلم أستاذ عن العلاقات بين تركيا وإنجلترا وعلاقة ذلك بالعلاقات مع روسيا، ولم يعجبنى كلامه وجرت بينى وبينه مناقشة ويبدو اننى أعجبته فطالت المناقشة بينى وبينه. وانتهى الأمر بالاتفاق على أن ندرس هذه النقطة معا، وكنت أبكر جدا فى الحضور واستأخر فى القراءة فى ا لمكتبة، فسبقته فى الجمع والترتيب، فقال لى: أظن أن الأفضل أن أدع لك هذا الموضوع برمته، وانفردت به فعلا، وأعتقد أننى أحسنت لأننى أخذت مذهب الألمان وطريقتهم فى البحث، وزدت عليهم فى ذلك، لأن العمل طريقة وصبر وحب وعشق للغاية، فإذا اجتمع هذا لك فثق أنك ستكون دائما فى المقدمة دون أن تقلد أحدا.

وفى أثناء مرورى بمصنع أجهزة اليكترونية فى الإسماعيلية - وهو مصنع تجميع - رأيت شابة تجمع القطع وتربط بعضها ببعض وهى تمزح مع زميلة لها، فقلت لها: يا ابنتى ليتك أعطيت عملك التفاتا أكثر مما أرى، فإنك إذا جمعت هذه القطع بعناية زادت قيمتها المالية، واستطعنا أن ننافس بها فى السوق المحلية على الأقل، وهذا الاستخفاف فى العمل استخفاف بكل شيء فى مصر، ونحن فى الحقيقة فى معركة، معركة إتقان ودقة، وأنت ترين السوق حافلة بأجهزة تجيئنا من بلاد وراءنا بكثير، ولكن العمل يجرى فيها على قواعد رأسمالية، وأى عامل يعمل أقل من المطلوب يعاقب أو يفصل، ولو كنا هناك لكنت وأمثالك من المفصولات، ولكنك ترين إننا فى بلد كريم طيب لا يقسو ولا يشتد، ولهذا فأنت تستهينين، وأنا لا أرى أنك تستحقين راتبك، ولكنهم لو أنقصوك قرشا قامت القيامة، وقالوا إننا نظلمك، والحق أننا فى حالة مثل حالتك

إما أن نظلمك وإما أن نظم مصر كلها، والعمل الذى تقومين به ليس بالعسير، ولكنه يحتاج إلى دقة، وهذه الدقة فى الحقيقة قيمة مالية، فما الذى يصيبك إذا أنت ركزت اهتمامك فى العمل وأخرجت لنا شيئا يسعد به من يشتريه، بدلا من أن تنسد نفسه، ويقسم ألا يشترى بعد ذلك شيئا من صناعة مصرية؟ ونظرت إلىّ البنت طويلا وقالت: لم يقل لى أحد شيئا من ذلك قبل الآن! قلت: وهذا هو الخطأ، لأننا ننسى أن عمل أمثالك جزء من رأس مالنا، وأنت لاترين فيه إلا مصدر رزق لك. ولا تعارض بين الاثنين إذا أدرك رؤساؤك ذلك، وأقبل على حديثنا مراقب أو رئيس من رؤساء القاعة، فقال: هذه من أحسن عاملاتنا، وهى أسرع من فى هذه القاعة! قلت ياسيدى، انظر فيما تعمل، انظر كيف ركبت هذا المسمار فأخذ الجهاز وأدار المسمار وقال: آه.. بسيطة! ألم أقل لك يا فلانة إن أهم شىء فى عملنا هو الدقة؟ خذى بالك من عملك أرجوك! ثم نظر إلىّ وقال: خلاص يا سيدى، ستكون أكثر إتقانا لعملها! قلت: إذن فلتراجع هذه القطع التى مرت من تحت يدها، فقال: هى ستراجعها. قلت ياسيدى إن المراجعة ليست عملها. إنها تعمل، وأنت المراجع، فنظر إلىّ وقال: وماذا ترى؟ نفصلها؟ قلت: لا ياسيدى. بل نفصلك أنت، فأنت فيما أرى مستهين بالعمل، وإذا شئت أن تأتى برئيسك ليراجع كيف تعمل عاملاتك أتينا به ليبدى فيه رأيه، وأنا يا أخى لست متفرجا بل أنا رقيب، وهذا الكلام لا يعجبنى، فقال بكل استخفاف: يا سيدى افعل ما بدا لك، فأنا لا أخشى إلا الذى خلقنى!

قلت: آه، دخلت فى العلالى! ليتك يا سيدى تخشى رئيسك أو تخاف القانون، ومع ذلك فسنرى أيها العزيز إن كان من الممكن أن تخشى شيئا آخر قبل الله سبحانه وتعالى..

وكنا مدعوين للغداء مع مدير المصنع، وهو مهندس كبير، فحكيت له الحكاية كلها قبل الطعام، ففكر الرجل طويلا ثم قال: وماذا أفعل

يا سيدى فى نظام العمل الذى نسير عليه هنا؟ كيف أعرف مستوى الإتقان عند كل عامل، وهم كما ترى كالرمل، وكل الذى أراه أنا علـب بداخلـها المسجلات، ومن المستحيل علىّ أن أفتحها علبة علبة! قالت: وما رأيك يا سيدى فى أن تطبق فى هذا المصنع نظام صناعة الأكواخ؟ قال: وما هى صناعة الأكواخ تلك؟ قلت يـا أخـى إنـها الصناعـة التـى يطلقونـها علـى صناعة الساعة فى سويسرا مثلا، وعنها نقلته اليابان وبـلاد شرق آسـيا، وخلاصتها أن الساعة مثلا تمر فـى عشـر مراحـل، وبـدلا مـن أن تقسم الساعات على الأكواخ أى البيوت، فيقوم كل بيت بصناعـة كـذا سـاعة، تقسم صناعة الساعة الواحدة على عشرة بيوت، فيتسلم البيت الأول إطـار الساعة المعدنى ومعه قرص معدنى فى وسطه ثقب ومعه مسمار صغير فـى رأسه أربعة ثقوب فى غاية الصغر، ويقوم هذا البيت بتثبيت القـرص فـى الإطار بالمسمار، ثم يضع أربعة مسامير صغيرة فى الثقوب الأربعة فى رأس المسمار الأوسط، ويثبت هذه كلها تماما ويسلمها إلى البيت المجـاور الـذى يتلقى ثلاث قطع صغيرة من قطع الساعة ليثبتها، وهـذا البيـت إذا وجـد خللا فيما يسلم له من الساعات رفض الاستلام، ومن هنا فإن البيت الأول يحرص أشد الحرص على ألا يخرج من يده شىء ألا وهو بالغ الإتقـان، وهكذا مع البيوت التالية. فالصناعة تسير أفقية لا رأسية، والعامل هنـاك يخشى جاره قبل أن يقول بالفم المليـان إنـه لا يخشـى إلا الـذى خلقـه، وعندمـا تصـل السـاعة إلى البيـت العاشـر تكـون قـد وصلنـا إلى المراجعـة النهائية، هذا البيت بيت إشـراف ورياسـة، والذيـن يعملـون فيـه رؤسـاء يعرفون مَنْ صنع ماذا، وهم لا يحيلون إلى تحقيق أو يقدمون مذكرات، بل يقررون أن البيت الفلانى أخطأ فى كذا، إذا كـان قـد أخطـأ، ونـادرا مـا يكون قد أخطأ. لأن الناس هناك أعقل وأذكى وأحرص مـن أن (يكروتـوا) وهم لهذا لا يقسمون بالذى خلقهم، ويعلنون مقامهم الرفيع علـى النـاس أجمعين، بل يتقنون العمل فحسب وهم سكوت، وإذا لاحظ أحدهم شـيئا على ما يصل إليه من القطع اتصل بجاره ونبهـه وأعـاد إليـه القطـع فـى

هدوء، ونادرا ما تقع بينهم مشادات، ونادرا أيضا ما يعمل أحد منهم وهو يرغي كما تعمل عاملتنا، وإذا نحن لم نقل بالضرورة عن هذا الإتقان هو السبب الرئيسى فى ثبات قيمة الفرنك السويسرى فلابد أن نسلم بأن له أثرا حاسما فى ذلك، والجنيه المصرى غلبان، لأننا كلنا متفرجون لا نزال تجرى على ألسنتنا العبارات الضخمة، إننا - فعلا - لا نخشى شيئا، ولا الذى خلقنا، وهل معقول أن يهبط الجنيه إلى هذا المستوى الحزين إذا كنا نحن نخشى الله سبحانه حقا؟

(١٣)
بـلدنـا والفسـاد*

أذكر أننا كنا صديقين من أيام الصبوة، فقـد كنـا زميلين فـى المدرسـة الثانوية، وكنت أعجب به، فقد كان ميسور الحال، حسن الهيئة صـادق الكلام، حسن المعاملة، وكانت لديهم سيارة لأن أباه كـان تـاجرا كبيرا، وكنا نترافق حتى باب المدرسة، ثم يركسب هو السيارة، وأمضـى أنـا إلى بيتى على قدمى، وأذكـر أننى كنـت فـى هـذه السـن «أركـب» الفـول السودانى، كنت أشتريه من دكان قرب المدرسة وأتسلى به طول الطريق..

وكنت أزوره فى بيته، وكـان بيتـا كبيرا جميـلا، لـه حديقـة وبوابـة ضخمة عليها بواب، وأذكر أن البواب مـا كـان يسمح لأحد بـأن يخطو داخل البيت إلا بعد أن يدخل ويستأذن مهما كنت معروفا له. تلك كانت التعليمات لديه. ولم يتم دراسته، فقد توفى أبوه تاركا المتجر الكبير لـه، ولأخواته البنات، فترك المدرسة وانصرف إلى التجارة، ونجح فيمـا أظـن، فإن العلاقات انقطعت بينى وبينه من ذلك الحين لأن كـلا منـا سـار فـى طريق.

والتقينا بعد سنوات اتصل بى فى الجامعة يتوسط لواحـد مـن أبنائـه، فإذا أنا أمام رجل غنى جدا، حتى الغلام الذى كان يرجو دخوله الجامعة كان يمتلك سيارة، وأنا بطبعى متطلـع، أى أننـى أتمسـك بـأن أفـهم مـا أرى، فلما زارنى الأب فى الجامعة قلت له:

– يا فلان أنا أعرف أنكم أغنياء من الأصل، هكذا كنتم أيـام كنـا فـى الثانوى، ولكنى أراك الآن غنيا بشكل غير معقول.

فنظر إلى طويلا ثم قال:

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٢ أكتوبر ١٩٨٩م.

– هي مسألة «نق» إذن؟.

– أي نق يا صديقي؟ هل تظن أنني أسألك لأنني أستكثر مالك؟ صدقني إن المال كله لا يعنيني في كثير، فنحن في الجامعة بخير والحمد لله، ونحن لسنا في حاجة إلى مزيد من المال، ولكنا أنا وأنت أصدقاء من زمن طويل، وأنا رجل أحب أن أفهم.

وماذا تريد أن تفهم؟.

– أقول إنك حر في أن تتكلم أو لا تتكلم.. هذا شأنك، ولكني أريد أن أفهم كيف يتجمع هذا المال الكثير جدا.

– إنها التجارة يا عزيزي: أحيانا أنت تشتري البضاعة وفجأة بعد ذلك يرتفع سعرها عشرة أضعاف.

قلت: هذا يكفيني، إنني غير مقتنع، ولكنه يكفيني، لأن ظاهرة ارتفاع الأسعار فجأة كما تقول عشرة أضعاف ليست محلية، إنها في العالم كله، التجارة كلها تغيرت، والتجار لم يعودوا هم التجار الذين عرفناهم في الماضي، حتى البنوك الغربية تغيرت طبيعتها، فلم تعد تستطيع معاملتها على الأساس المعقول الماضي، وأنت ترى أن اتحاد البنوك الغربية قد تحول إلى عصابة رهيبة تمسك برقاب الدول المدينة، ولو استطاعت أن تخنقها لفعلت، ولكنها لا تريد لأنها تضاعف أرباحها، وتحصل تلك الأرباح بصورة تغطي الدين نفسه، ويظل الدين كما هو، وهذه البنوك مستعدة لمواصلة الإقراض مع عجز المدينين عن السداد، ولكنها لا تعرف كيف تجد طريقة لإيقاف الدول المدينة على أقدامها للاستمرار في الاقتراض، وقد كنت أحسب أنني وحدي لا أفهم الاقتصاد المعاصر، ثم تبينت أن الدنيا كلها لم تعد تفهم الاقتصاد، أو أننا في عصرنا هذا أمام طراز جديد من الاقتصاد لا ندري كيف نسميه، على أي حال تعال ننظر في حكاية ابنك، ودعنا من الاقتصاد، فأنا كما قلت لك لا أفهم فيه،

ولكن ذهني لا يستريح لأننا لابد أن نفهم عصرنا، ولا أدرى إن كان المسئولون فى الدول الدائنة يحرصون على أن يفهموا، لأن الذى يهمهم فيما أرى هو أن يظل طريق القروض مفتوحا، وأن نظل نحن فقراء لكى نستدين، إن المسئولين فى البلاد الصغيرة يستمرون فى الاقتراض ربما كان السبب هو أنهم عاجزون عن مداواة اقتصاديات بلادهم، ولا مخرج لهم فى هذه الحالة إلا القروض، فهى مطلب سهل، وهناك فى الغرب ناس مستعدون للإقراض دائما، لأن فقر الآخرين هو رأس مالهم، وهناك وسائل معقدة للعمل الاقتصادى فى أيامنا، والمهم لدى الدول الكبرى أن تظل أموال الدول الصغرى فى الانسياب إلى الدول الكبرى، وهل تصدق مثلا أن الموتور الصغير الذى كنا نشتريه فيما مضى بخمسين جنيها أصبح ثمنه اليوم ثمانمائة دولار؟ وهذا الاضطراب فى الأسعار الذى جاءنا من الغرب كان بداية الفوضى التى شملت ميدان الاقتصاد كله.

ذلك أن الغربى سواء الأوروبى أو الأمريكى ليس قنوعا فى حياته، فهو بطبعه شديد الطموح إلى ما يمكن أن نسميه بالترف، ونحن الذين عشنا فى الغرب مع أهله نعرف أن ما نسميه نحن بالحياة البسيطة يعتبر فى نظرهم حياة فقر وتعاسة، وفى عصرنا هذا زاد ميل الغربيين إلى الترف، وكثرت المستحدثات فى حياتهم، فأصبحت حياتهم غالية التكاليف فعلا، ولهذا فهم يرفعون الأسعار، ويواجهوننا بالأسعار المرتفعة، على أنها حقيقة لا فرار منها، ومن هنا فإن التاجر المصرى الذى يقول إنه يصدر ويورد، وهو فى الواقع يستورد فقط، يقبل الوضع ويفرض الزيادة علينا، وشيئا فشيئا يفقد تجارنا السيطرة على الأسعار، ويحسون أنهم لابد أن يرفعوا الأسعار، ويفرضوا هذه الزيادة علينا، وهم واثقون من أننا لن نناقشهم، وأنا كنت أشترى رزمة الورق المسطر بحوالى ١٣٠ أو ١٤٠ قرشا، فأصبح ثمنها اليوم حوالى خمسة جنيهات، وهذا سعر غير معقول،

وليس من عادتي أن أناقش البائع، ولكني اضطررت إلى الشكوى عندما اشتريت الرزمة الأخيرة فأطلعني البائع على فاتورة الشراء، وإذا به قد اشتراها بما يزيد على أربعة جنيهات بقليل، قلت له:

- هل لا يوجد إلا تاجر ورق واحد؟..

- إنهم كثيرون، ولكن هذا هو السعر الذي يبيعون به جميعا، لأنهم كلهم يشترون من تاجر إيطالي واحد، ولا أحد عندنا يفكر في مناقشة هذا التاجر، إنهم يذهبون إلى إيطاليا وينزلون في ضيافته ويتمتعون بخيراته، والنتيجة أنهم لا يجرؤون على المناقشة، ثم لماذا يناقشون إذا كانوا يدفعون له، ويأخذون منا؟ وستستمر الزيادة طبعا لأن حياة الأوروبيين تزداد ترفا، ونحن في النهاية ندفع لهم تكاليف هذا الترف..

□□□

ومن أسابيع ضبطوا لحما فاسدا مصدرا من هولندا إلى بلاد غرب أفريقية، والفساد أتى من إصابة الحيوانات بالسموم النووية في إقليم شيرنوبل، وقد دمروا جزءا من اللحم الفاسد، أما الباقي فلا يدري أحد أين ذهب، وهذا يدلنا على أن الضمير تغير في الغرب تغيرا خطيرا، ونحن كنا في الماضي نتعلم التجارة والمعاملات من أهل الغرب ونستفيد من ذلك، أما اليوم فقد تغير الأمر تغيرا تاما، ومعظمهم في الغرب أصبحوا لصوصا، وفي كل يوم نسمع عن فضيحة في بلد أوروبي أو أمريكي حتى أصبح من العسير فعلا أن تثق في أن التاجر أو الصانع الغربي الذي تعامله شريف، وانتقلت العدوى إلى تجارنا لأنهم في الغالب يتعلمون من أهل الغرب، وشيئا فشيئا فقدنا كلنا ذلك التوازن الذي كان يسود جو المعاملات، وكل شيء على أي حال في صعود، ومن أسبوعين اشتريت - من الجمعيات الحكومية - أشياء بخمسين قرشا فاشتريتها هذا الأسبوع بخمسة وسبعين، وما كان بخمسة وسبعين أصبح بجنيه، والظاهرة التي

تثير الغضب فملا هى أن بعض الجهات أصبحت تصارحك بالقومسيون الذى لابد أن تأخذه، ورجل أعرفه باع صفقة بأربعين ألف جنيه، وعندما أتت السكرتيرة لتوقع معه العقد قالت إن القاعدة عندنا أن نأخذ عشرة فى المائة، فقال لها:

- مش معقول، إن هذا هو الربح الذى أقدره لنفسى. فقالت السكرتيرة تستطيع أن ترفع السعر إلى خمسين ألفا.

- وتوافقون على هذا السعر؟.

- سأوقع معك العقد عليه، المهم أننا لا نستطيع العمل بدون هذه العمولة، ونحن فى الإدارة كثيرون ولابد أن نعيش وأنت ترى الأسعار.

قال: إذا كان الأمر كذلك فلا مانع عندى.

ثم استأذنت السكرتيرة وتكلمت فى التليفون مع رؤسائها، ثم وضعت السماعة وقالت: وما رأيك فى أن ترفع الثمن إلى ستين ألفا؟.

يقول صديقى: وعقدنا الصفقة بستين ألفا، وصدقنى إننى غير مستريح، لأننى الآن لص بالنسبة للعميل الذى يشترى البضاعة بالقطاعى آخر الأمر ولكن قل لى ماذا أعمل؟.

والحقيقة أن هؤلاء الناس زرعوا فى نفوسنا خلقا لا نعرفه أو لم نكن نعرفه، وشيئا فشيئا انتشر هذا النوع من الفساد، وأصبحت الغالبية لصوصا بإرادتهم أو بغير إرادتهم، وكل ذلك بدأ فى أيام الانفتاح، ولا أظن أن الرئيس السادات كان يقدر أن هذا كله سيحدث. لقد كان حسن النية، ولكن الكثيرين من التجار لم يكونوا كذلك، وزادت المسألة سوءا بسبب البنوك الكثيرة الجديدة التى أنشئت، والبنوك منشآت عظيمة الأرباح ولكنها أيضا شديدة الخطورة، وإذا أنت استثنيت البنوك الأربعة الأساسية فى مصر، وهى الأهلى ومصر والقاهرة والاسكندرية، فأنت فى الواقع لا تدرى كيف تتعامل، وأنت تسمع عن الذين أخذوا من البنوك ملايين

دون ضمانات كافية، وانتهى الأمر بكوارث، وليس من الضرورى أن نشك فى ذمة أصحاب هذه البنوك، فقد تصرفوا فى الغالب بحسن نية، ولكن البنوك منشآت خطيرة، وهى تحتاج إلى أكثر من حسن النية، والغالب أن الطمع فى الكسب الكبير والسريع هو السبب فى تلك الكوارث، وأسوأ ما فى الموضوع هو أننا نحن الجمهور يسوء ظننا ويستولى علينا الخوف والشك، وقد كنا فيما مضى نقول إن صغار الموظفين عاجزون عن السيطرة على ميدان الاقتصاد، فأصبحنا اليوم نقول: إنهم جزء من الفوضى التى تسوده، ولابد على أى حال من دراسة موضوع الاقتصاد فى بلادنا ونصيب الحكومة فيه دراسة شاملة حتى تتبين أسباب ما يعانيه من مواضع النقص، وهنا فقط يمكننا العلاج، لأن الشكوى فى ذاتها تؤدى بطبعها وتكرارها إلى زيادة الفساد، لأننا نحن المصريين لسنا — بطبعنا — فاسدين فلابد أن هناك عوامل من خارج مصر تؤدى إلى الوضع الحالى.

□□□

إن هذا الوضع الحالى غير مقبول، وإلى يومنا هذا لم أجد مواطنا واحدا يقبله، ولكنى كذلك لا أعرف محاولة جادة للعلاج وخاصة من جانب الحكومة، لأن رجال الحكومة يرون أنهم على حق، وأحيانا نجدهم يظنون أن الذى يفعلونه هو خير ما يمكن عمله، وهم طبعا لا يستطيعون تأييد كلامهم هذا، ولكنهم يقولونه لكى يهربوا من المشكلة، وفى الغالب فإن هذا كله يفرض عليهم، ولا فائدة على أى حال فى مناقشة موظفى الحكومة فى هذا الموضوع أو غيره لأن فيهم جرأة عجيبة فى الكلام. والواحد منهم يتولى الوظيفة اليوم ويبدأ فى الدفاع عن الإجراءات التى تتخذ فيها منذ اليوم الأول لعمله فيها، وهذا كلام غير معقول، ولكنه هو الجارى مع الأسف والديمقراطية الجارية فى بلادنا اليوم عجيبة، لأن الذين يطبقونها ويزعمون أنهم رمز الحرية لا يعترفون لا بالديمقراطية أو الحرية، والحزب هو الحكومة، ومن هنا فهو ليس رقيبا عليها ولا مصلحا

لها، وأنا من أشد الناس حرصا على رؤية ما يعرضونه علينا من مشاهد المناقشات في مجلس الشعب، وباستثناء الجلسة التي لا تنسى والتي حدث فيها تضارب بالأيدى بين نائب ووزير، لا أذكر أنني سمعت مرة مناقشة جادة لموضوع الاقتصاد وسلامته، ومن هنا فإنني أصبحت أؤمن بأننا لو أردنا أن نصلح الاقتصاد فعلا ونوقف تيار الشك الغالب على كل شيء فلابد من سلطة جديدة تراقب وتحاسب وتصلح، أما النظام القائم حاليا فلا أمل في الإصلاح من ناحيته، وأظن أن هذا واضح، ومع ثقتنا التامة في كفاية الوزراء فإننا في النهاية لا نعرف من أين يأتي الفساد.

والحقيقة هي أننا اليوم في حاجة إلى حزب جديد لأن البلد مازال إلى يومنا هذا بخير، وما يقال عن انتشار الفوضى واللصوصية في كل ميدان مبالغات لا وجود لها في الواقع، وكل ما تسمع من الحكايات فهو إما حوادث فساد صغيرة لا تعنى أبدا أن هناك فسادا واسع المدى كالذى نجده في الكثير من بلاد الغرب، وإما أنها أكاذيب وادعاءات لا أساس لها من الصحة، والناس يرددونها دون تحقيق، لأن الكلام سهل، والفساد الحقيقي الكبير غير موجود، والموجة التى اجتاحت البلاد في أول عصر الانفتاح قد انتهت فيما أظن، زمن واجبنا أن نقرر أن الحكومة نجحت في ضبط العمل في البنوك الجديدة ولم يعد من السهل على أى نصاب أن يحصل على بضعة ملايين دون ضمانات من أى بنك، ثم يفر إلى الخارج، ولكن المأساة الحقيقية هي هذا الغلاء غير المعقول الذى يتزايد يوما بعد يوم، ونحن عاجزون حاليا عن إيقافه، ولكن تركه يسير في طريقه دون أى علاج خطر جسيم، وقد قلنا إن العامل الأكبر فيه يعود إلى الغرب، ولكن لا شك أن هناك أيضا ناسا أشرارا يستفيدون منه، ويعملون على استمراره ولا معنى أبدا لأن تستمر أسعار المأكولات والملبوسات في الزيادة على النحو الراهن، ونحن الآن نجتهد في مواجهة هذه الزيادة، ولكن اليوم الذى نعجز فيه عن المواجهة قادم ولاريب، ولابد أن نفكر في هذا

من الآن، ومن المستحيل أن ندع بلدنا هذا الذى اشتهر بالصدق والأمانة وسلامة التصرف ينحدر إلى مستوى البلاد الكثيرة العاجزة عن مواجهة الفساد الذى شمل كل نواحي الحياة فيها، وكلما حاولت حكومة إيقافه من ناحية انفجر من ناحية أخرى حتى أصبحنا نسمع اليوم عن عجائب فى تلك البلاد، ولا أريد أن أضرب هنا أمثلة حتى لا أمس بلادا تربطنا بها علاقات صداقة، ولكن القارئ يعرف ماذا أعنى، ويؤمن مثلى بأن مصر لا يمكن ولا ينبغى أن تصل إلى ذلك المستوى، لأننا تعودنا على أن نرى بلدنا محترما فى هذه الدنيا، ونحن المصريين محترمون، وفينا حياء، ولا نقبل التعامل على أساس غير شريف أو غير نظيف، ولهذا فإن الأمل عظيم فى الانقاذ، والناس عندنا فيهم خوف وحياء، وإذا نحن وقفنا فى حزم أمام أى مفسد فلن يلبث أن يتراجع، وقد حدثت بينى وبين أحد التجار فى الشهر الماضى مناقشة عنيفة حول الأسعار التى طالبنى بها، فقال الرجل: لماذا تناقشنى إذا كان مندوب الحكومة قد وافق على هذه الأسعار؟ قلت: إذن فأنا أناقش مندوب الحكومة هذا، ومضيت إليه وواجهته بما يقول التاجر فأنكر أشد الإنكار، ولاحظت من كلامه أنه استحى، فشددت عليه فخاف وقال إنه سيمر على هذا التاجر، وينظر الأمر معه، وذهب بالفعل ولكنه عجز عن أن يقنع التاجر بالتخلى عن هذه الزيادة، ولكن يبدو أنهما تفاهما على معاملتى أنا وحدى معاملة خاصة، وحصلت على البضاعة بسعر معقول، ورجانى التاجر أن يظل الأمر سرا بيننا، فقلت له: يا أخى هذه تجارة، والتجارة لها قواعد وأخلاقيات، ومن غير المعقول أن تلتزم بهذه القواعد والاخلاقيات مع عميل واحد، وأنا على أى حال لن أتعامل معك بعد الآن، ولكنى سأقول لكل الناس إننى أوقفت التعامل معك، ولابد أن يعرف الناس لماذا اتخذت هذا الموقف لأننا مواطنون إخوان، ولابد أن يسير التعامل معنا على قواعد وأخلاقيات واحدة، وأنت طبعا لن تخسر إذا اتبعت تلك القواعد مع عملائك كلهم، ولكن أرباحك ستقل، ولكن كيف تقبل أن تحصل من

الناس على مال هو ليس من حقك؟ وهل تظـن أن هـذا الطريـق يمكـن أن يعود عليك وعلى أولادك بالخير؟..

□□□

الحقيقة هي أن الفساد الشامل الذى يتحدث عنه الناس غـير موجـود في بلادنا إلى اليوم، ولاشك في أن هناك ناسا فاسدين، ولكن في حـدود المعقول أو المحتمل، ولكننا لابد في الوقت نفسه أن نتخذ إجراءات تنقـذ البـلاد، فـإن الحكومـة العاليـة.. الرياسـة والـوزراء ورؤسـاء البنـوك علـى مستوى طيـب، وحـرام أن نتسـاهل مـع الصغـار ونسـهل لهـم الرشـوة والفساد، وهذا لا يتأتى إلا إذا جاء تنظيم سياسـى جديـد فـى مصـر يؤيـد الصالحين الكبار يعاقب الصغار من أهل الفساد، وربما احتـاج الأمـر كما قلت إلى حزب جديد، لأن الأحزاب القائمة اليوم أصبحت كلها تقليدية، وهى منذ البداية لا عبقرية فيها ولا قوة، ونحن في الواقع فى حاجـة إلى فكر سياسى وإدارى عبقرى وقوى، وهو موجود فعلا ولكن أصحابه ينبغي أن ينتبهوا إلى أنه آن الأوان ليضعوا أيديهم بعضـهـا فـى بعـض ويواجـهوا مبادئ الفساد بقوة وشهامة، وماذا مثلا فى أن نبدأ بإلغاء الدعـم إلا علـى الخـبز، الخـبز وحـده وقصـر الموازنـات الحكوميـة علـى دعـم الصناعـة، وإدخال تعديل جوهرى على نظام التعليم، لأن المجانية أفسدت التعليـم؟ وطريقة تعيين أعضاء هيئات التدريس في الجامعـة علـى أسـاس درجـات الليسانس أو البكالوريوس لا يمكن أن تؤدى بنـا إلى مستويات عاليـة مـن الكفايات العلمية .

(١٤)

بين التجارة والصناعة*

يسكن معنا فى بيتنا معلم بلدى لطيف يسمى «المعلم وهدان» وأنا أحبه لأنه قال لى مرة إنه يقرأ ما أكتب وإن ما أكتبه يعجبه.. وكانت توجه إليه دائما تهمة التجارة بالدولارات ولكنى لم يسبق أن ناقشت معه الموضوع..

وفى ذات يوم قالت لى زوجتى إن المعلم وهدان يريد أن يزورنى ليتحدث معى فى أمر يهمه وإنها اتفقت معه على أن عندنا فى الساعة السادسة مساء.

وأتى الرجل فى موعده، وهو رجل أنيق يبدو عليه الغنى، ويمتاز بظرف وخفة ظل، فجلس وقال لا أدرى إن كنت ستقبل منى ذلك أو أنك لن تحب ما سأعرضه عليك؟. قلت وما هو هذا الذى تريد أن تعرضه على.

قال: أننى تعبت من ذلك النوع من التجارة الذى أمارسه من ثلاثين سنة واستقر رأيى على أن أنشئ شركة لصنع الموتورات لأننى فى الحقيقة عندما تأملت نوع التجارة التى أمارسها إلى الآن، وجدت أنها لا تفيد البلد فى شىء، وإن كانت تفيد الكثيرين من الناس وأقصد بذلك تجارة الدولارات التى كانت سببا فى حبسى مرة، فقد قبضوا على وحاكمونى وحكموا على بالسجن ستة أشهر قضيتها وخرجت لأتابع التجارة فى الدولارات كما كنت أفعل دائما، وأنا أعرف أنك لا تحب هذه التجارة، ولكنى لا أظن أنك فكرت فيها كما ينبغى.

قلت: إننى أعتبر هذه التجارة غير قانونية لأن الحكومة تقول ذلك، وأنا أؤمن بكل ما تقرره الحكومة..

---

* نشرت هذه المقالة فى ٣١ ديسمبر ١٩٨٩م.

قال لأنك يا سيدى لا تعرف موظفى الدولة تحت مستوى الوزراء ووكلاء الوزارات، لأن الثورة عندما جاءت لم تمس جسد الحكومة فظلت جثة متعبة أو قل هالكة لا يعرف متاعبها إلا الذى ساقه سوء الحظ إلى الدخول فى أعمال مع طراز الموظفين الذى أشرت إليه، وأنا أذكر أن الوزير الذى حبسونى فى أيامه وكان وزير تجارة أملى مذكرة ضدى فى غاية القسوة، واتهمنى باللصوصية، وأظن أنه طلب حبسى بضع سنوات، وأنا شخصيا لم يخطر ببالى قط أن التجارة بالدولارات فيها شىء من اللصوصية، لأن الدولار بضاعة كغيره، وهو موجود فى السوق، وأنا أتاجر فيه كما أتاجر فى غيره، ولاشك أن بلادنا منذ عرفت الانفتاح كان لابد أن تعرف تجارة الدولارات، لأن الانفتاح عندما أتى على أيام الرئيس السادات أتت معه جماعة من المستفيدين الذين أنشأوا ذلك النوع من الشركات الذى يسمى «استيراد وتصدير» وأنت فى الحقيقة لا تدرى ماذا يستوردون وماذا يصدرون ولكننى أعرف أن هذا الطراز من رجال الأعمال بالإضافة إلى الكثيرين من أصحاب المصانع الصغيرة التى كثرت هم الذين تعيش عليهم تجارة الدولارات فى أيامنا.

هذه السنوات كان أولئك الناس يترددون على إما ليبيعونى الدولارات أو ليشتروها منى، وكنت لا أجد فى ذلك بأسا ولو أن هذا الطراز من الرجال لم يعجبنى قط فى مجموعة.

قلت: ولكننى يا سيدى مادامت الحكومة تقول إن التجارة فى الدولارات بحرة فهى عندنا محرمة..

قال: لأنك كما سبق أن قلت لك لا تعرف نوع الموظفين الذين نتعامل نحن معهم، فهم فى الحقيقة جماعات من الأنانيين يندر أن تجد فيهم إنسانا تستطيع أن تحبه وتتعامل معه كما يتعامل الناس مع الناس، ولو سألت المئات من المواطنين الذين عادوا من الخارج بثروات لا بأس بها

وصدقوا ما كانت الحكومة تزعم من أنها مستعدة لبيع الأراضى لهم وتسهيل إصلاحها كجزء من عملية استصلاح الصحراء.

لو سألت أولئك المواطنين وعرفت ما قاسوا وعانوا على أيدى هذا الطراز من الموظفين لعرفت ما قاسوه وعانوه دون جدوى.

أقول أنك لو استمعت إلى حكايات أولئك المصريين العائدين من الخارج وما عانوا على أيدى أولئك الموظفين لأيقنت معى أن التجارة فى الدولارات ليست بشيء إذا هى قيست إلى ما يصنعه أولئك الناس لأنه مهما كان تصورك للأمر، إن الدولارات كما قلت لك بضاعة وهى موجودة فى السوق والحكومة قدرت سعر الدولار بحوالى ٢٦٤ قرشا، وأنا يجيئنى ناس ويبيعونى الدولارات بسعر ٢٧٠.

قلت: وأنت تبيعها بثلاثة جنيهات (٣ جنيهات) قال المعلم وهدان ولم لا؟ إذا كان هناك من يحتاج إلى الدولار فلماذا لا أبيعه إياه بثلاثة جنيهات لأنه على أى حال سيخرج أى مبلغ يدفعه لى من زبائنه.

ولكي أدلك على أننى أقول الحق أذكر أن الوزير الذى قال فى شخصى ما قال وتسبب فى حبسى تولى بعد أن ترك الوزارة - كما هى العادة - رئاسة مجلس إحدى الشركات الخاصة أى أنه أصبح تاجرا..

وفى ذات يوم أتصل بى وطلب أن أزوره فى مكتبه فقلت: له هذا يا سيدى كان عندما كنت وزيرا، أما اليوم فأنت تاجر ومادمت تاجرا فأنت الذى تأتى إلى.

وأتانى! وقال إن الشركة التى يرأسها فى حاجة إلى دولارات.

وقلت سبحان الله! أنت تأتينى لتشترى منى دولارات.

قال صدقنى أننى لم أفهم السوق ولا طبيعة العمل فيه إلا بعد أن خرجت من الوزارة.

قلت: وكم دولارا تحتاج أنت إليه الآن.

قال: مليون أو مليون ونصف.

قلت: ولا دولارا واحدا.

لأنني يا سيدى رئيس مجلس الإدارة لا أصدق ما زعمت من أنك لم تفهم السوق طالما كنت وزيرا. فأنت كنت دائما تفهم السوق وتعرف ما يجرى فيه لكنك أردت فى أيامها أن يرى الناس أنك وطنى وذكى ومخلص ومتحمس ففعلت بى وبغيرى ما فعلت.

والآن وأنت بالسوق تأتينى طالبا دولارات، وأنا عندى ما تريد وأكثر بكثير - ولكن صدقنى أنى لن أبيعك دولارا واحدا، ويكفى أن تعلم الآن أن القوانين التى يضعونها ويصرون عليها ويملئون الصحف بمقالات وأخبار تسوئ سمعة التجار الذين لا يسمون فى هذه المقالات إلا بالتجار الجشعين، هذه القوانين ليست كلها من صالح البلد، وصدقنا أن التجار لا يمكن أن يوصفوا بصورة عامة بأنهم جشعون أو مصاصو دماء أو ما شبه ذلك، وصدقنى أن تجار مصر لا يمكن أن يوصفوا بذلك.

لأن تجارنا كغيرهم من أهل بلادنا فيهم الطيبون وغير الطيبيين، وأنا قد مضيت فى السنوات الماضية على التجارة بالدولارات لأننى لم أقتنع قط بأن هذه التجارة نوع من اللصوصية، وها أنت ذا والحديث موجه إلى الوزير السابق - الآن توافقنى على رأيى.

قلت: أما أنا يا معلم وهدان.. فإننى لم أسئ الظن بك أبدا وكان رأيى فيك دائما رأيا طيبا، والآن أريد أن أعرف ما الذى تريده منى الآن.

قال: وهل مازلت تؤمن بأن كل ما يفعله موظفو الحكومة حق.

قلت: أظن ذلك.

قال: إذا كان الأمر كذلك فأعتقد أنه لا داعى لأن نتكلم، أنا أشرب الشاى وأنصرف.

فقلت له، الحقيقة يا معلم وهدان أننى ربما كنت أختلف معك فى بعض المسائل، ولكن هذا لا يمنع من أن تقول لى ماذا كنت تريد منى.

قال وهو يبتسم: لندع ذلك إلى لقاء قادم.

قلت: حسنا:

فقال: لكى أطمئنك أقول أن رأيى قد استقر على أن أغـير طريقى وأن أترك التجارة التى أسير عليها الآن سواء أكانت دولارات أو غير دولارات لكى أدخل عالم الصناعة.

قلت: وماذا ستصنع.

قال: سيدهشك أننى أنا ونفـرا من أصدقـائى قررنا أن ننشئ مصنع موتورات.

قلت: مندهشا موتورات دفعة واحدة.

قال: أى والله، لكى تعرف أننى لست من الفساد كما ظننت.

قلت: وكيف سيكون ذلك.

قال: ذلك أحكيه لك فى لقائنا القادم بإذن الله.

(١٥)
هــذا أولاً!!*

عندما قال لى إنه سئم تجــارة العملة وما يشبهها مـن الأعمـال التى يسمونها، التصدير والاستيراد، انشرح صدرى وعرفت أن الله سبحانه وتعالى قد عفا عن ذلك الرجل ومن عليه بالخير. وعندما قال لى إنـه يريد أن يدخل فى الصناعة، وفى الصناعة المالية، آمنت بأن الله يحب مصر، لأن هذا الرجل غنى جدا. إن ثروته تصل إلى ما يقرب مـن ١٠٠٠٠٠٠٠٠ (مائة مليون) جنيه ومنها طبعا دولارات.

وعندما دعانى إلى الاشتراك معـه فـى هـذه الصناعـة قلـت فـى نفسـى ولم لا؟ أننى لا أرجو نفعا ماديا وإنما أنا أرجو نفع بلادى مصر. وإذ جـاء النفع المادى، فأهلا وسهلا ومرحبا، وإذا لم يجئ فلا بأس، وأنا على أى حال لم أعمل للمال فى يوم ما، فأنا رجل قنوع وسأظل قنوعا.

فنظرت إليه طويلا ثم قلت ما رأيك يا معلم وهـدان فـى أننـى مستعد للاشتراك معك أو معكم والاتكال على الله قال لى أما وقـد فتـح الله قلبك للاشتغال معنا فسأصارحك بكل شيء.

وكنت قد طلبت له شايا فأخذ منه رشفة ثم قال: الحقيقة أننى كنـت لا أثق فى كلامك ولا أومن بما تدعو إليه من انصراف الناس عن التصديـر والاستيراد والتجارة المطلقة بغير حدود بما فى ذلك تجارة العملة.

ولكن الحظ الذى يكتبه لنا الله أراد أن ألتقى فى إيطاليا مع رجل مـن السويد كان يعمل مع الإيطاليين، ثم غدروا به، واضطر إلى الاسـتقالة من العمل، وهذا الرجل كان من حسن حظنا مـن الذيـن يعملـون فـى صناعة الموتورات، أى أنه كان اختصاصيا فى ذلك الفن، ونظرا إلى أن الإيطاليين

---

* نشرت هذه المقالة فى ٧ يناير ١٩٩٠م.

خدعوه فقد كان ميالا إلى معاونتنا وعلى فكرة لابد أن تعرف أنه لا الإيطاليون ولا الفرنسيون أو الإنجليز مستعدون لمعاونة أى بلد من البلاد الفقيرة فى معرفة أصول الصناعة الكبيرة. إنهم مستعدون لمعاونتنا فى الشكليات والصناعات الصغيرة كصناعة البسكويت والمواسير بشتى أنواعها بما فى ذلك الأدوات الصحية بكل أشكالها ومستوياتها لأن هذه كلها أعمال لا تصل بالدول إلى مستوى الدول الصناعية حقاً.

المهم أن ذلك الرجل أقصد السويدى أخلص لنا وصدقنا انتقاما من الإيطاليين، فقال لى.

هل أنت واثق أن معك النفقات اللازمة لإنشاء صناعة الموتورات فى مصر. لعلك لا تعرف أن الموتور ومهما كان مستواه يتكون اليوم من ١٠٠ قطعة بعضها من معادن صريحة معروفة كالحديد والنحاس والبرونز وبعضها تركيبات معدنية لبعض أجزاء الموتور، والموتور يتكون من تيارات كهربائية وتيارات مغناطيسية وتيارات كهرومغناطيسية؛ فإذا كنتم تريدون أن تدخلوا فى صناعتها فلابد أن تعرفوا كله ذلك وتكونوا مستعدين للانفاق بسخاء.

قلت نعم نحن مستعدون.

وقبل أن يستمر فى الكلام نظرت إليه وقلت والآن ما دخلى أنا فى ذلك كله؟.

فرشف رشفة كبيرة من الشاى وقال لى نريدك يا سيدى أن تعمل معنا.

قلت أنا مستعد للعمل معكم لأن العمل فى هذه الحالة خدمة لمصر، ولكن ماذا أعمل.

قال: يا سيدى أنت اسم معروف ولك قيمة، وكل ما نريده هو أن تكون مستشارا لرئيس مجلس الإدارة وأن تتدخل لدى الدولة لتنفيذ أعمالنا.

ففكرت طويلا ثم قلت له على بركة الله.

قال: نكتب عقدا.

قلت له: وما قيمة العقود في بلد ترفع فيه القضية اليوم ولا يصدر الحكم فيها إلا بعد خمس سنوات أو ست، وإذا صدر لم يكن حاسما ولا محدد القواعد.

قال: يا سيدى لقد بينت لك حدودك، وأنا وزملائى مقتنعون بأنك تستطيع معاونتنا.

قلت: إن شاء الله.

قال: نعطيك ألفي جنيه في الشهر.

قلت: يحدد هذا في العقد.

قال: طبعا.

□□□

وبالفعل أخذتنى الحماسة وأخلصت في العمل وكان هو وزملاؤه أغنياء جدا وسافرت مع صديقي إلى السويد ولقيت ذلك السويدى وأيقنت أنه مخلص وفي اجتماعنا معه قال لنا: إنكم لن تستطيعوا صناعة الموتورات إلا بعد سبع سنوات على الأقل، ومعنى ذلك أنكم في كل سنة تعملون السبع بحيث في نهاية السنوات السبع تستطيعون انجاز صناعة الموتورات، ولكى توفقوا فى ذلك فأنا أريد أن ترسلوا لى هنا عددا من شبابكم المهندسين والفنيين ليتعلموا أصول هذه الصناعة المعقدة..

هنا أيضا كان تدخلى لأننى حرصت أشد الحرص على أن يكون اختيار الشبان الذين سيذهبون إلى السويد اختيارا سليما أى على أساس الكفاءة، وبالفعل اخترنا كدفعة أولى عشرين شابا من خيرة شباب مصر، وكانوا جميعا متحمسين ومؤهلين فنيا، وقد تولى تدريبهم وتحديد اختصاصاتهم ذلك الرجل السويدى الذى كان يعمل معنا واجتهدنا فى أن ننشىء فى السنة الأولى الأجزاء البسيطة التى تصنع من معادن واضحة وصريحة كالحديد والنحاس والألمنيوم والبرونز.

□□□

ولكن المشكلة الحقيقية كانت موظفى الحكومة، وهؤلاء الناس يا أخى ليست لديهم أى فكرة عن صناعة أو عن وطن.. وكل منهم يتصرف على أن الدنيا خلقت له وحده وأن مهمته هو أن يكسب لنفسه ويعيش دون أن يتأثر بغلاء الأسعار أو بأى مشكلة فى مصر، وأن يشترى لنفسه شقة وكذلك لأبنائه وبناته وكانت مهمتى الرئيسية كما قلت لك وبحسب ما حددته الشركة هى أن أقابل كبار المسئولين وأحصل منهم على الموافقات على مطالب الشركة، والحق أننى لم أجد أى صعوبة من الوزراء فكل وزرائنا أفاضل وأكفاء ومخلصون لمصر، وكلهم يتبعون فى ذلك رئيسنا المجيد محمد حسنى مبارك الذى يرفع فى مصر شارات الشرف والوطنية والصدق والفضائل، ويمثل فى عالم العرب الصداقة والأخوة التى يئس العرب منها فعادت اتحادات الأخوة والعمل واختفت مظاهر الجامعة العربية التى لا يخرج نشاطها عن الكلام وعقد الاجتماعات وتحمل نفقات الرحلات والاقامات وبدلات السفر وإصدار توصيات لا ينفذ منها شىء.

وكانت مهمتها الرئيسية تنتهى عند مقابلة الوزراء والحصول على موافقاتهم والحق أنهم أعطونا ألفى فدان من الأرض الصحراوية واستصلحناها وأعددناها لتكون مدينة صناعية وبحسب إشارة مستشارنا السويدى الذى كان راتبه ثلاثة آلاف دولار فى الشهر.

ولكن مشكلتنا الكبرى كانت كما قلت لك الموظفين الصغار أى ما هو تحت الوزراء وأحيانا تحت وكلاء الوزارات.

هؤلاء أرهقونا فعلا.. وأنا لم تكن مهمتى الاتصال بهم.. كان هذا عمل زملائى الذين كانوا قبلا أصحاب شركات استيراد وتصدير، ولكن عملهم الرئيسى كان الاتجار فى العملة ويكفى أن أقول لك إن بعضهم كان يشترى المائة دولار بـ ٣٥٠ جنيها مصريا أحيانا والآن يخلصون لمصر ويجتهدون فى انشاء صناعة الموتورات بادئين بالموتورات الصغيرة أى من ١/٤ك إلى ٢ك وهذا هو طراز الموتورات المطلوب بكثرة جدا فى بلادنا

وأحب أن أضيف لك أن الذين يشترون الدولار بمبلغ ٣٥٠ قرشا هم الذين يقومون بصناعات للأطفال والأولاد، لأن الولد لا يهتم الا بأن يحصل على ما تشتهيه نفسه من البسكويت والشيكولاته والحلوى واللولى بوب واللبان وما إلى ذلك أنا لا أقول لك إن البسكويت مثلا غير مهم وكلنا نحتاج إليه وهو صناعة عظيمة ولكن الكبار إذا وجدوا أن سعره غال اقتصدوا منه أما العيل فلا يهمه سوى الحصول على ما تسهفو إليه نفسه وفى المدارس خاصة يتزاحم الأولاد على ذلك بدافع الغيرة من زملائهم، وهم يرهقون أباءهم فى الحصول على النقود، وكلنا نعرف أن الأولاد قلما يفكرون فى متاعب الآباء..

□□□

في السنة الثالثة بدأنا نعمل ١/٧ الموتور، وكنا قد أنشأنا فعلا مدينة صناعية وأقمنا المساكن والأسواق للذين يعملون عندنا وبانت مظاهر النجاح.

هذا النجاح أثار غيره فى نفوس الموظفين، وأبسط ما كانوا يرهقوننا به هو اصرارهم على أن يدخل أولادهم صناعا فى الشركة مع قلة كفاءتهم، فإذا أنت لم تقبل ابن الواحد منهم وتهيئ له الوظيفة المحترمة والمسكن الجميل فى المدينة الصحراوية انقلب عليك وأصبح عدوا لك ودولتنا دولة أوراق وتوقيعات، وإذا توقف واحد منهم عن الإمضاء على ورقة توقفت أعمالك كلها، وإذا أنت وافقت على قبول ابنه أصر على أن تأخذ أيضا زوجة ابنه، وغالبا ما تكون متخرجة فى مدرسة صناعية متوسطة، ولكنه يريدها مهندسة بمرتب لا يقل عن مائتى جنيه فى الشهر وهكذا أقول لك انك يا صديقى لا تستطيع أن تنهض بالبلاد النهضة المطلوبة مادام هذا الطراز من الموظفين موجودا.

المهم أن زملائى فى الشركة وقد قلت لك إنهم كانوا تجار سوق سوداء قبل ذلك ثم انصلح حالهم ليسوا بأسوأ من أولئك الموظفين الذين ثبت فعلا أنهم أسوأ من فى مصر وإن كانوا يزعمون أن كل ما يريدونه هو أن يعيشوا وأن يعيش أولادهم.

المهم أننا عندما وصلنا فى السنة الخامسة ونحن ننفق فى مصر والسويد لم نكن قد وفقنا إلى صناعة ٧/٢ من صناعة الموتور، وقد هلك زملائى فى الجرى وراء أولئك الموظفين.

وأخيرا جاءنى صديقى وهدان فى ذات يوم وقد بان اليأس على وجهه.

وقال لى: يا صديقى من المستحيل العمل هنا ما دامت الظروف هكذا، أريد أن أقول إن صناعة الموتور مثل صناعة الساعات والصناعات الدقيقة الشريفة تحتاج إلى أنفس شريفة وما لم توجد هذه النفوس فلا فائدة، ونحن سنكتفى بما وصلنا إليه الآن أى أننا نصنع ثلاثة أسباع الموتور ونبيعها أجزاء لمن يحتاج إليها، وهناك الكثيرون من الناس مستعدون لشراء هذه القطع ولكننا نحن يئسنا ولن نستطيع أن نستمر فى صناعة الموتور.. معنى ذلك أنكم لم تعودوا تحتاجون إلى فهز رأسه وقال: هذه هى النتيجة الحقيقة يا صديقى ومرتبك فى الحقيقة لا يتعبنا فأنا لى بضعة ملايين فى شهادات الاستثمار وآخذ منها فلوسا ولكن المهم هو أن أقول لك بدلا من أن تكتب كل أسبوع تنصح وتوجه أنه أحسن لك أن تبحث عن طريقة أخرى لكى تقنع أصدقاءك الوزراء بأن ينظروا فى أمر أولئك الموظفين وأن ينقذوا البلد من أنيابهم الحامية ففكرت طويلا ثم قلت:

ها أنتم أولاء تسمعون يا سادتى الوزراء ما يقوله ذلك الرجل وأنا الآن معه وأقول لكم إنه لابد لنا من نوع آخر من الموظفين يحبون مصر حبا

حقيقيا ويفهمون ما نريد، ونحن لا مانع عندنا من أن يكونوا شركاء في الشركات.. أن تكون فلوسهم معنا وأن يسير العمل بإيمان وذمة ونشاط ومصر لابد أن تنهض صناعيا لأنها بلد صناعية، ونحن نقول إن الصانع المصرى ممتاز ولكن اضيف أن الامتياز وحده لا يكفى لابد من اتساع الذهن والقلب لابد من الذمة والضمير.

لأن مصر لابد أن تصل إلى ما تطمح إليه.. قلت فعلا، هذا أولا.

(١٦)
وإذا لم ينفع الذوق*

المصريون – ومثلهم فى ذلك مثل كل البلاد المتخلفة – ينقسمون إلى قسمين: أقلية متعلمة وأكثرية غير متعلمة ، وليس المراد بالتعليم هنا مجرد معرفة القراءة والكتابة ، لأن الكثيرين جدا ممن يقرأون ويكتبون يظلون رغم ذلك جهلة ، بل فى غاية الجهل ، وأنا شخصيا أتعب فى تعليم المتعلمين أضعاف تعبى مع الجهلة ، ومن نحو شهر جاءنى خطاب من مصلحة حكومية ، وصدقنى إذا قلت لك إننى لم أستطع أن أقرأ إلا اسم المصلحة المطبوع أعلى الخطاب ، أما بقية الخطاب فكان مكتوبا بخط هو الغاية فى الرداءة ، بل إن بعض الحروف تركت دون نقط أصلا ، فقلت فى نفسى أذهب إلى تلك المصلحة لأستفهم ، وذهبت وقابلت المدير ورحب بى ونظر فى الخطاب وقال:

آه.. هذا خطاب من أخينا عطية مدير إدارة هنا ، الآن أطلبه هنا وتطلب إليه أن يقرأ ما كتبت يده لأننى فى الحق لم أستطع أن أقرأ أكثر مما قرأت أنت.. وجاء سى عطية ، ودعاه المدير إلى الجلوس فجلس ، وقدمنى له ثم قال له.. يا سى عطية ألا تحسن قراءة خطك.. انظر ماذا كتبت هنا.

وناوله الخطاب فأخذه وأخذ يحاول أن يقرأ ما كتبت يده فلم يستطع ، وجعلت أتأمله وهو يحاول القراءة فدهشت ، فالذى أمامى كان سنكوحا غبيا بلا أبسط ملامح الإنسانية ، ثم أنه كان قصير القامة ذا كرش رهيب ووجه قريب جدا من وجه أقبح فأر تستطيع أن تتصوره ، وكان قد أطلق لحية بشعة وبعد دقائق نظر إلينا وقال: الحق أننى لا أستطيع أن أقرأ.

---

* نشرت هذه المقالة فى ٣ يونيو ١٩٩٠م.

- ولكن هذا هو خطك.

- طبعا هذا خطى ، ولكنى نسيت سأذهب إلى مكتبى لأراجع الأوراق ثم آتيكم وأخبركم بما في هذا الخطاب. وتركنا ومضى والسيد رئيسه نظر إلى وقال:

- هذه يا سيدى هى عينة الموظفين الذين أعمل بهم ، وقل لى من فضلك ماذا كنت أستطيع أن أعمل بمثل هذا الحيوان؟

- تستطيع يا سيدى أن تعمل الكثير إذا أردت ، ولكنك تقبل وتسكت ، وأمثال هذا الرجل يظنون أنهم موظفون يعملون لأنك ساكت.

- وهل أنا أستطيع مثلا أن أفصل مثل هذا الرجل؟

- طبعا تستطيع لو أردت ، ولكنك تقول إنه سيرفع قضية ليعود ، فلماذا لا تذهب أنت إلى المحكمة ، وتدافع عن قرارك؟ لماذا لا تأخذ مثل هذا الخطاب وتريه للمحكمة وتقول: قولى لى يا محكمة هذا هو مثال الخطابات التي يكتبها حضرته ، فكيف يستمر في العمل وأذى الناس بهذا الشكل؟

- إذن فسأنفق عمرى فى جلسات المحاكم؟

- ولم لا؟ على الأقل ستعرف الدولة نوع الموظفين الذين تعينهم ، ونوع الخدمة التي يحصل عليها هذا الشعب ، وأنا شخصيا فعلت هذا من ثلاثين سنة: عينونى ناظرا لمدرسة ابتدائية ، فكان أول ما فعلت أن فصلت عشرة فراشين من اثنى عشر كانوا يعملون فى المدرسة ، وتظاهروا ولكنى لم أعدهم إلى العمل ، واستخدمت غيرهم ، ووقف معى المحافظ ، وكان باشا عظيما ، والفراشون الجدد عملوا باحترام شديد وأصلحت دورة المياه ونظمت المدرسة.

فهزّ رأسه وقال: ده كان زمان وربنا يرحم زمان.

- دلوقت كلنا نقول ربنا يرحم زمان ، وكان ماله زمان؟ غيرناه وها نحن أولاء نبكيه ، لم تكن بلدا متخلفا بالأمس ، ولكننا اليوم متخلفون.

وعاد السيد عطية وجلس وقال:

- أقول لك الحق يا سيدى المدير؟ أنا لم أستطع قراءة خطى ، ولم أتعرف على المناسبة التى كتبت فيها هذا الخطاب.

قلت: وماذا نعمل يا سى عطية؟

- مفيش.. تيجي بعد نحو جمعة كده.

- يا سيدى عطية ، هل تعرف صعوبات المجيء إلى هنا؟ إنني الآن لن أجد تكسيا لأعود إلى بيتي فكيف أعود إليك بعد أسبوع؟

- وماذا أعمل سيدى أنا لا أستطيع أن أقرأ هذه الكلمات.

- ولا عفريت في الدنيا يستطيع أن يقرأ خطك؟ ثم إنك تسمى نفسك متعلما.

- إذن فماذا أكون؟

- قلها ولا تخف.. قل إنك جاهل!

فنظر إلى مديره وقال: شاهد يا حضرة المدير؟ يقول إنني جاهل.

والمدير سكت وعطية أفندى قام وخرج وقلت للمدير:

- لماذا سكت يا سعادة المدير؟ لماذا لم تقل لهذا الرجل إنه جاهل.

- أقول لمين أو لين؟ كلهم هكذا يا سيدى هذه الأيام متعلمون أميون.

- ونحن الرعية المسكينة تروح فى داهية! لهذا نحن بلد متخلف. إن الذين يشغلون الوظائف الدنيا أميون ، والذين يشغلون الوظائف الصغرى أميون أكثر ، ومع الأسف يقولون لك إننا متأخرون مائة سنة ، وأقسم لك يا سيدى أننا متأخرون ألف سنة ، ومتأخرون ولا أمل فى تقدمنا.

□□□

والعلاج الوحيد لهذا التأخر الخطير هو استعمال العنف. إذا لم ينفع الذوق فلا يبقى إلا الضرب ، ومن أكثر من ستين سنة ونحن نقول للناس عندنا يا إخواننا لا تنزلوا فى ماء الترع ولا تغسلوا ملابسكم فيها. هذا الماء ملىء بسركاريا البلهارسيا ، وهذه البلهارسيا تصفى دماءكم وتصيب الكلى والمثانة وأحيانا الكبد. نرجوكم أيها الناس ألا تنزلوا فى الترع.

وهم يسمعون منك هذا الكلام وهم فى الطريق إلى الترعة! ولو أننا كنا نخاطب لسمع الحائط ، فماذا تعمل مع أولئك الحواشط؟ أما الذوق فهم لا يعرفون الذوق ولا يحترمونه ، إذن فليس هناك إلا الضرب ، من نجده مصابا بالبلهارسيا فقبل أن نعالجه نجلده خمس جلدات على كل ناحية من أسفل رجليه ، وتأكد أن الجروح التى سيسببها له الجلد والألم الذى سيشعر به سيجعله لا يقترب من ماء الترعة إلا ذكر ذلك كله وأحس به، سيحرم على نفسه نزول الترع ، أما نحن فنقول له بكل أدب ولطف: الآن أصبح علاج البلهارسيا بالحبوب.. أربع حبوب على أكثر تقدير وتخف وتعود كالحصان ، وهذه الحبوب نعطيها لك مجانا ، وأنا أسأل ولماذا مجانا؟ إذا كان الواحد من هؤلاء البؤساء يشترى السيجارة اليوم بخمسة قروش ، ويشرب السيجارة فى دقيقتين ، فلما إذن والله توزع عليهم حبوب البلهارسيا مجانا؟ لماذا نستدين الملايين لنعالج ناسا لا يريدون أن يشفوا ، وهذه السيجارة التى يطفحونها كم مرة قلنا لهم هذه سم ، هذه ستعطيكم سرطان الرئة لا تشربوها من فضلكم؟ ولكنهم لا يسمعون إلينا ، ويذهبون لشراء السجائر ، وأفلام التليفزيون تعطيك دائما صورة المعلم جالسا فى المقهى وفى فمه الشيشة وكل دخانها سم ، أى أننا من ناحية نحذر الناس من السجائر ، ومن ناحية أخرى ندعوهم إلى الدخان ، وأنا فى رأيى أن أى إنسان نراه يدخن نأخذه ونقول له:

دخن كما تريد ، ولكننا سنجلدك خمس جلدات عن كل سيجارة! وسترى بعد الجلد أنه لن يقدم بعد ذلك على تدخين سيجارة إلا ذكر ألم

الجلد ، ومن لا ينفع معه الذوق ينفع معه العنف ، أما أن نخاطبه بلطف، وفي المرة الثانية نخاطبه بلطف أكثر ، فكلام فارغ ، لأن هناك ناسا لا ينفع معهم الذوق ، ولابد من ضربهم ، وحتى أوروبا تؤمن بذلك الآن ، ففي إنجلترا حرموا عقوبة الإعدام ، وقالوا إنها ليست إنسانية ، وقلنا لهم: لا ياناس ! هؤلاء المجرمون أساسا غير إنسانيين ، ونحن نعفيهم من الإعدام ونجعله سجنا مؤبدا ، ونتملسل بكلام فارغ ونقول إن عقوبة الإعدام غير إنسانية ، ونحن نقول لكم بل إنسانية: رجل قتل رجلا مع الإصرار وسبق الترصد ، أليس هذا تصرفا غير إنساني؟ فكيف نعامله مع ذلك معاملة إنسانية ونقول: إننا نستبدل الإعدام بالسجن المؤبد ، ونحن نقول لكم إن هذا خطأ ، والله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز إن قتل القاتل فيه حياة للمجتمع : (ولكم في القصاص حياة) ولم تسمعوا إلينا ، فماذا كانت النتيجة؟ إن السجون في إنجلترا تضيق بالمساجين وهذا الطراز من المساجين القتلة طراز مجرم ، لا يكف عن الشغب ، ونحن نسجنهم مؤبدا، ونطعمهم ونعالجهم ، بل نعطيهم السجائر ونشتري لهم الكتب ونقول: هذه إنسانية ، وهؤلاء المجرمون لا ينفع معهم الذوق ، لأنهم قتلة مجرمون بطبعهم ، ولهذا نجد اعتصامات السجون واستيلاء المجرمين على السجون وقتلهم السجانين شائعا في إنجلترا ، وهذا يحدث كل يوم في إنجلترا ، واعتصامات المساجين هناك أصبحت داء اجتماعيا خطيرا ، وسيتزايد مع الزمن ، وإذا كانوا هناك يفكرون في بناء سجون جديدة ، فهم سيضطرون في المستقبل إلى بناء أضعاف هذه السجون ، لأننا نسجن من يستحقون الموت ، ونخالف أوامر الله سبحانه وتعالى ونقول إن هذه إنسانية.

وتصوروا إننا نكلم الناس بكل ذوق في مسائل تحديد النسل ، ومع ذلك فإن الناس ينجبون أكثر من الأرانب ، وأنت إذا كلمت واحدا منهم قال لك: يا سيدي! كله من عند الله ، وهل نحن نخلق الناس؟

- يا سيدى اسمع إن هذا الذى تعمله ليس إنسانية ، فمن الذى يطعم أولادك هؤلاء؟

- يا سيدى! إن أحدا لا ينام دون عشاء.

- ولكن هل أنت تشترى لهم العشاء؟

- يا سيدى! ربنا بيرزق الدودة فى الحجر.

- أجل ربنا سبحانه يرزقها لأنها دودة ، والدودة لم يهبها الله عقلا ، ولكنه وهبها غريزة ، أما أنت فقد وهبك الله عقلا.. وقال لك: لقد أعطيتك العقل وهو نعمتى الكبرى ، ففكر فى مشاكلك واعمل على حلها.

ooo

وتصور يا عزيزى القارئ أننا لو أخذنا سى عطية وجلدناه خمس جلدات عقابا له على كتابة خط لا يقرأ ، ألا تتصور أنه فى المرات القادمة سيحاول أن يكتب خطا أحسن بدلا من أن يقول لى:

- تعال بعد جمعة!

ولماذا أجيئه بعد جمعة؟ هل سيتعلم القراءة والكتابة فى جمعة؟ طبعا لا! ولكنها تلامة وصداغة وقلة أدب ، وصدقنى أننا لابد أن نستعمل القوة، وإلا فلا سبيل أبدا للنهوض ، ولكي تعرف أن القوة تنفع أقول لك إنهم فى إنجلترا من مائة سنة كانوا يسجنون أى إنسان يستدين شلنا ولا يرده ، فإذا فعل ذلك بخمس شلنات حكموا عليه بالإعدام وأعدموه ، فهذه الطريقة تعلم الناس هناك احترام القانون والأموال. عندما كانوا يستخدمون القوة مع من لا ينفع معهم الذوق تحسنت أحوالهم ونفعوا وخرجوا من حياة الفوضى التى كانوا فيها ، وأصبحوا أمة عظيمة ، فانظر الآن إلى أحوالهم وهم يحكمون على المجرم القاتل بالحبس مدى الحياة : أولا ساء مستوى الحياة فى إنجلترا كلها ، وأصبحت اليوم لا تجد موظفا

كبيرا إلا وجدته لصا يـأخذ الرشا ويسرق الأموال ، ومثل هذه الحال موجود فى أمريكا وفرنسا وكل بلاد أوروبا ، ثم يريدون أن نفعل فعلهم ، وبعضنا يخدعه كلام أهل الغرب ويميل إلى التساهل مع المجرمين ونحن نقول لهم:

لا والله لا نحكم على القاتل بأن يكون ضيفا على هذه الأمة بقية حياته، نطعمه ونعالجه ونشترى له الكتب ، لأن الله سبحانه وتعالى قال إن القاتل لابد أن يقتل ، فكيف نتسامح معه نحن؟ إننا لا نوافق على ما يسمونه في الغرب بحقوق الإنسان ، لأن حقوق الإنسان مسجلة عندنا فى القرآن الكريم بصورة أكمل وأتم ، والقاتل لابد أن يقتل ، والزاني لابد أن يرجم ، ونحن لا نعرف هذا العبث بالحياة والقانون ، إن القاتل ليس إنسانا ، إنه عدو.. وحش.. مجرم. ولابد من قتله فكيف تريدون منا أن نعامله بما تسمونه بالإنسانية ، وإذا كنتم جادين حقا فلماذا لا تطالبون بعقاب الإسرائيليين الذين يقتلون أطفال فلسطين بحجة المحافظة على النظام؟ هل هؤلاء القتلة هنا فوق مستوى البشر؟ أم أنكم جبناء أنذال وتريدون منا أن نكون أنذالا مثلكم. ومهما فعلتم فمازالت عقولنا فى رءوسنا ونحن لا نتصرف أبدا إلا بما فيه صالح مجتمعنا.

ومن الغريب أن أصحابنا يريدون أن تنهض بلادنا دون عقوبات ، مع أن العقاب هو أساس التربية ، ونحن عندنا كلية قانون ، ولكننا نسميها كلية الحقوق ، لأن تفكيرنا كله في الحقوق دون الواجبات ، لأن أحدا عندنا لا يفكر في الواجبات أو يرى أنها أساس العدالة ، وقد عرفت إنسانا يحمل بشدة على العقوبات ، ويقول إنها غير إنسانية.. فقلت له: يا إنسان وكيف تتصور أن العقوبات غير إنسانية مع أن هناك مادة قانونية ضخمة وبالغة الأهمية في مدرسة الحقوق تسمى قانون العقوبات ، وليست هناك مادة تسمى المجاملات أو المداعبات. فتصور أننا نريد إنهاض شعبنا

الآن بهذه العاملة التى نسميها إنسانية ، فأنت مثلا لا تستطيع أن تفصل موظفا مهما فعل ، وهذا أمر عجيب ، لأننى لا أتصور مديرا يستطيع إدارة أى مؤسسة إلا إذا كانت له القدرة على الفصل ، وأذكر أننا فى المؤسسة التى نعمل فيها عرفنا موظفا أهان رئيس مجلس الإدارة بمقال كتبه فى مجلة أخرى. وقلت لرئيس مجلس الإدارة: افصله فقال: يا عزيزى إنهم فى عصرنا هذا لا يريدون فصل أحد ، يقولون إنهم يخافون من سوء استعمال الفصل ، فقلت له: عندهم حق فى هذه المسألة الأخيرة ، ولكن يا أخى ما دام لك الحق فى أن تعطى ، فلابد أن يكون لك الحق أيضا فى أن تعاقب؟

وأذكر أننا ونحن صغار كان معنا اثنان من الأولاد.. كان أبوهما يحبهما جدا لأنهما كانا أبيضين وفى غاية الجمال ، وقد أنجبتهما له زوجة قيل له إنها تركية ، وكانت بيضاء وحريرية ، وكان قد تزوج قبلها سيدة سمراء فأنجبت له بنتا سمراء ، لهذا فعندما جاءه هذان الغلامان أحبهما جدا ، وكان فى كل صباح يذهب إليهما فى السرير ويقول لهما:

– عاوزين تروحوا المدرسة النهاردة.

فيتقلبان فى فراشهما ويقولان: لا يا بابا.

– حاضر يا حبايبى

وعندما كبرت وعينونى مديرا عاما للثقافة فى وزارة التعليم اخترت شابا لطيف الهيئة وجعلته سكرتيرا لى. وبعد أيام قال لى:

– أتعرفنى يا دكتور؟

– أظن ذلك ، فإن شكلك ليس غريبا على

فقال: آه الآن ذكرتك. ولماذا يا أخى لم تكمل دراستك؟

قال: أبى كان يدللنا وجزاه الله على سوء معاملته إيانا.

– سوء معاملة؟ الذى أذكره أنه كان يدللك مع أخيك ، وأنا شخصيا كنت أغبطك على هذه المعاملة الكريمة التى كان أبوك يعاملك بها ، ألم يكن يحمل إليك وإلى أخيك الشدة فى الفراش فى الصباح.

– نعم مع الأسف الشديد!

– عندك حق ، وأبوك أيضا عنده حق ، فقد كان يحبك مع أخيك حبا عظيما.

قال: لا يا دكتور إنه لم يكن يحبنا.. كان يحب أمنا ، ولكنه أساء إلينا، والنتيجة ما ترى؟ فها أنت بخير وأنا يا أخى سعيد بك وواثق فيك، فأنت نوع ممتاز من الشبان ، وأنا أحتاج إليك وسأحاول تعويضك على قدر الإمكان.

وهذه الحكاية تدلك على أن الذى تترفق به أكثر مما ينبغى ولا تعاقبه إذا أخطأ.. لا يكون فى النهاية شاكرا لك. وأذكر أننى عندما بدأت أدرس فى السوربون فى باريس لاحظ أستاذى أننى شديد الاجتهاد فقال لى:

– يا فلان عندنا هنا مكتبة للاستشراق فى الكلية ، وهذه المكتبة تشترى أو تستولى على كتب المستشرقين لكى تضعها فى خدمة العلماء ، ونحن نستخدم دائما شابا فى وظيفة أمين لها ، ولكنها ليست وظيفة فى الحكومة الفرنسية ، إنها أتعاب تعطى من اعتماد المكتبة.

وعرفت بعدها أن راتب الاعتماد كان يساوى خمسين جنيها إنجليزيا فى الشهر ، وذكرت عندما قالوا لى ذلك أنهم يأملون فى زيادة المكافأة مع أن كل راتب عضو البعثة المصرية فى فرنسا إذ ذاك كان واحدا وعشرين جنيها فى الشهر ، وبهذا أصبح دخلى فى الشهر ٧٢ جنيها فى الشهر ، وأحسست أننى إنسان آخر وقلت لأستاذى:

– وأين أمين المكتبة قبلى؟

– فصلناه ، فقد كان مهملا ، ثم إنه كان يميل إلى العبث مع النسوان، فقلت له : أما أنا فلن تفصلوني أبدا.

– إن شاء الله!

ولكي تعرف أهمية العقوبات بالنسبة لأوروبا وأمريكا أقول لك إن السفن التي كانت تحمل المهاجرين إلى أمريكا كانت تطلب من المهاجرين أن يحمل كل منهم طعامه إلى السفينة ، وكان الواحد منهم إذا نفد طعامه وأخذ يعتمد على التسول من الآخرين كتفوه ورموه في البحر ، وكانوا يقولون : إذا كان هذا الرجل لم يحسب حساب طعامه على السفينة فلابد أنه سيكون متسولا في أمريكا ، ونحن لا نريد متسولين هناك ، نريد مجتهدين يعملون ويكسبون. لأننا نريد قطر عظيم. والتسول والكسلان لا ينفعنا.

وقد كان هذا العنف مع المهاجرين من أكبر أسباب نجاح المهاجرين إلى أمريكا الشمالية من العالم الجديد ، لأن العقوبات تنشئ مجتمعا قويا. أما الدلع فها أنت ذا ترى ماذا ينتج. □

(١٧)

شبابنا فى حاجة إلى هذه الخدمات*

كنت أحبه لأنه كان بقالا ماهرا وما من مرة مررت به واتسع وقتى للوقوف معه دقائق إلا أطرفنى بالحديث الجميل وكان يحسن اختيار الحديث ويحسن إلقاءه وكانت حياتى أنا كلها خارج الحى الذى أسكنه فكان الرجل يضعنى فى مكانى بحديثه هذا الطريف لأنه كان مثله فى ذلك مثل كل المتكلمين مولعا بالأخبار والحوداث. وفى ذات مرة قال لى أتعرف كم شابا فى أسرتى؟ قلت ماذا تقصد أنت وامرأتك واخوتك وأخواتك وأولادهم فقال لا بل كل العائلة أقصد كل أقاربى من يسكنون منهم فى حينا هذا ومن يسكنون منهم بعيدا عنا ومن يسكنون حتى فى مدن أخرى أيضا.

فقلت له: وكانت لك طاقة على إحصائهم قال لا أدرى ولكن منذ عام خطرت الفكرة ببالى فجعلت أدون فى صفحات كراس قديم عندى أخبار كل من بلغتنى عنه أخبار من أولاد عائلتنا ، قلت إذن فأسرع وقل لى كم أحصيت؟ قال مائتان وستة شبان كلهم فوق الثانية عشرة من العمر؟.. ألا ترى أننا كثيرون جدا فسبح خيالى وظللت صامتا فقال ألا يدهشك هذا؟ ألا ترد؟ قلت يدهشنى طبعا وبعد قليل أرد عليك ولكن فكرة عجيبة خطرت ببالى وأنا أفكر فيك وفى أنك من الشباب.

فقال: وفيم فكرت؟ قلت وكم من هؤلاء على وجه التقريب يشترون منك؟ قال لا أدرى لأننى فى الواقع غير محتاج إليهم وحتى إذا هم لم يشتروا منى فإن ذلك لن يغضبنى.. الآن حال دكانى طيب والحمد لله ، قلت أنا لم أفكر فى أن يشتروا منك أولا يشتروا فأنت حالك طيب ،

---

* نشرت هذه المقالة فى ٥ يناير ١٩٩٢م .

ولا شك أن الكثير من فروع أسرتك طيبة جدا ولكن منهم الفقراء المحتاجون، وأنا أعرف أن تفكيرنا هذا ليس من الضرورى أن يأتى بنتيجة لأن العائلات الكبيرة كعائلتك تجدها متفرقة متباعدة الفروع ، وقد تكون بين أطراف العائلة خلافات ولكن ألا تتصور أنه من الممكن أن تتعاون أسرتك في شيء ما؟ أنت ترى أننا نعيش في زمن عسير جدا ولا يوجد إنسان منا إلا يحتاج إلى الآخرين ونحن فعلا يقصد بعضنا بعضا فماذا يحدث مثلا لو حاولت كل أسرة منا أن تنشئ بداخلها مركزا للتعاون؟.

وتركت الرجل ومضيت وأنا مشتغل البال بهذه الفكرة التى جاءتنى وأنا واقف عنده ، ووجدت نفسى أقول فى نفسى إن الناس فى أيامنا هذه يحتاج بعضهم لبعض أكثر مما كانوا يحتاجون فى الماضى لاختلاف التخصصات والمشاغل ، وليس من الضرورى أن تكون حاجة الناس مقصورة على الحاجة إلى المال ، وأنا أعرف أن أول ناس ينفرون من هذه الأفكار هم أصحاب المال لأنهم يظنون أن كل الناس طامعة فى أموالهم ، ولكننا نحن لا نحتاج إلى المال وإذا نحن احتجناه لا نطلبه من أقاربنا ، ولكننا نحتاج إلى مئات الأشياء الأخرى غير المال ، فنحن نحتاج إلى المعلومات نريد أن نعرف من صاحب السلطة هنا ومن صاحبها هناك نريد أن نعرف إذا كان بعض فروع الأسرة تملك كتبا مدرسية قديمة ولم تعد بهم حاجة إليها ولا مانع لديهم من إعارتها أو حتى إعطائها لقريب وبعض سيدات البيوت يملكن أشياء منزلية لم تعد إليها حاجة عندهن فلا يضرهن فى هذه الحالة أن تعطيهن لمن تحتاج إليها من سيدات الأسرة بدلا من نقلها من مكان للمهملات فى البيت إلى مكان آخر حتى تجيء الفرصة للتخلص منها ولو فى سلة المهملات ، أقول إن الأسرة شيء واسع جدا ، وإذا كان فى أسرة هذا الرجل ٢٠٦ من الشبان فلا شك أن أسرته تقترب من الألف عددا وليس من الضرورى أن تكون الحاجة إلى المال وحده إذا ارتبط أى فرع من الأسرة بفرع آخر ، ولكن هناك أشياء لا تقل

عن المال أهمية ويكفي أن تذكر حاجتنا إلى الآخرين عندما نريد أن ندخل أولادنا مدرسة سنجد أن كل ما تحتاج إليها هو معلومة وأحيانا كلمة وإذا كان أحد أقاربنا يعرف ناظر المدرسة الفلانية فإن كل ما سنحتاج إليها هو كلمة ليتسنى دخول أولادنا؟ وهذا مع العلم بأننا لن تحتاج من قريبنا أو صديقه إلا كلمة تتمشى مع القانون ولن نطالب أحدا منهم أبدا بأن يخالف القانون أو يرتكب أمرا ينكره الضمير ، فإن المدارس وجدت ليدخلها الأولاد ، وعندما يجيء وقت دخول المدارس تجد التزاحم يتوالى من كل ناحية والناظر أو المسئولون في المدرسة لا يريدون إلا اتباع القانون ونحن لا نطالبهم إلا بذلك وهم يعرفوننا ويعرفون أننا لا نقول إلا الحق وليس لديهم مانع في هذه الحالة في أن نتقدم إليهم طالبين المعاونة وهم لا يتأخرون في المعاونة ونحن نعلم أن كل الناس من حولنا يبحثون عن المعاونة لأن العلاقات بين الناس تعقدت والدنيا قد اتسعت وامتدت علاقاتنا بالناس حتى لم نعد اليوم نستغني عن المعاونة وكل يوم يأتينا طفل جديد أو نسعى بطفل آخر إلى مدرسة وبدلا من أن نطلب المعاونة ممن لا يعرفنا فلماذا لا نطلب المعاونة ممن يعرفنا ويطمئن إلينا؟

وأقول هذا لأن الدنيا تغيرت جدا في عصرنا هذا ، وأنا لا أقول إن الزمان اليوم أصبح أسوأ من الزمان فيما مضى ، ولكن الناس كثروا جدا وتعددت الحاجة والمطالب والناس من حولنا كثيرون جدا ونحن لا نستغني عنهم ولا هم يستغنون عنا ، ومهما أردنا أن نتبرأ من القرابات في العلاقات فنحن مهما فعلنا لابد أن نستعين بالغير ، والفكرة التي خطرت ببال البقال لم تكن سيئة لأنه في الواقع لم يكن يحتاج إلى شيء من أحد أقاربه ولكنها كانت فكرة طريفة في زماننا هذا.

وقد كنا في الماضي نحتاج إلى أشياء محددة لأن الدنيا أيضا محددة ، فقد كان السباك أو النجار أو الكهربائي في الماضي رجلا واحدا ، وكنا نقصده في أي شيء داخل في اختصاصه ، أما اليوم وقد أصبح السباكون

عشرة تخصصات وتنوعت أشكال النجارة حتى أصبحنا نحتاج إلى عشرة نجارين أو عشرة كهربائيين فإننا فعلا نحتاج في زماننا هذا إلى أضعاف من كنا نحتاج إليهم في الماضي ، ويكفي أن نذكر أننا دخلنا من سنوات قصيرة في عصر الكومبيوتر ، ونحن نظن أن هذا الكومبيوتر شيء بسيط مع أنه في غاية التعقيد ، بل إن ماكينة الكتابة دخلت حياتنا فتعلمها منا من يستطيع وعاش بها ، ولكن أحدا منا لا يستطيع أن يستغني اليوم عن الكومبيوتر لأنه داخل حياتنا من نواح شتى ولابد أن نتعلمه لنستعمله ، وهو يدخل اليوم في كل شيء سواء في الإحصائيات أو التحليلات ، فإنك إذا أدخلت أولادك في المدرسة فقد اكتتبوا في كومبيوتر المدرسة ، وأنت لا تستطيع أن تبحث عنهم في قوائم المدرسة ، وأي طبيب يرسل أوراق مريض للتحليل في معامل الكومبيوتر ، وهو لا يستغني عن أوراق التحليل أبدا ، وإذن فنحن محتاجون إلى الكومبيوتر في كل أركان حياتنا، وإذا كان لديك إحصاء لأسرتك فأنت ستحتاج إلى هذا الإحصاء في كل حين ، ومهما كانت عائلتك فلابد في عصرنا هذا من أن يعرف الكومبيوتر بعض أهل أسرتك ، وأنت تستطيع أن تستفيد من هذا التريب ليخدمك والدنيا في اتساع دائما ومصالحك تتوسع ، وإذن فإن ما أشار إليه البقال ينفعك ، وإذا كنا نستطيع أن نجعل الدنيا أسهل مما هي عليه فلماذا لا نجعلها أسهل ، وأنا شخصيا عندما فرغت من الجامعة ومضيت أبحث عن وظيفة لم أجد الدنيا باتساع اليوم واستطعت أن أجد الوظيفة التي أبدأ منها ، لأن الدنيا لم تكن بهذا الزحام البشع أو الصعوبة القاسية التي نراها من حولنا ونحن إذن في حاجة شديدة جدا للمعاونة وعصرنا هو الذي يملي عليك هذه الحاجة ولابد أن نجد حلا لهذه المشكلة. وإلى جانب ذلك فإن حاجات الناس من الدنيا كانت بالأمس أقل بكثير مما هم يحتاجون إليه اليوم وإذا كنا نحتاج اليوم إلى حذاء فانظر كم تدفع اليوم في الحذاء أو البذلة أو الجلباب إن نسبة الغلاء لا تصدق وأنا من أسبوعين احتجت إلى شيء من إصلاح الكهرباء في بيتي ، فاستقدمت

الرجل - وكنت أعرفه قبلا - وعرضت عليه ما أريد ، فكشف على الكهرباء في بيتي وقال: مع الأسف الشديد ، لابد أن أقرر أن قدر الإصلاح الذي تحتاج إليها في بيتك أضعاف ما ظننت ، فإن كل أسلاكك الكهربائية تحتاج إلى تبديل ولابد من تغييرها ، فقلت له : هذه أول مرة أسمع فيها هذا الكلام ، وأنا في الواقع مندهش مما تقول ، فقال: إن الإصلاح الكهربائي في شقتك يتكلف ٧٠٠ جنيه ! فلم أقل شيئا وظللت أنظر إليه في ذهول فقال: إن كل أسلاكك الكهربائية فاسدة وأنا لابد أن استخرج كل أسلاك بيتك واستبدلها بغيرها، فقلت له بعد تفكير: يبدو يا صديقي أنك حسبتني أغني مما أنا عليه الآن، فأنا رجل أكسب ما يغطي حاجاتي عن وسع ولكن لست غنيا ، ومهما أنا بحثت فإنني لن أجد عندي ما تطلب! فقال لي: إذن أدعك لكي تفكر! فقلت: فيم أفكر؟ قلت لك إن كل ما عندي يغطي نفقاتي الضرورية ولكنه - مهما أفكر - لن يصل بي إلى ما تريد ، فلا ظل كما أنا الآن وأمري إلى الله ، فنظر إلى طويلا ، ثم ابتسم ومضى ، وأنا جلست على كرسي ومضيت أفكر في سوء حالي وأدبر نفسي في أمر نفسي ، فأنا لم يحدث قبل ذلك أن خطر ببالي أنني سأطالب يوما بهذا المال الجسيم.

وذهبت إلى كهربائي آخر وعرضت عليه الأمر ، والرجل نظر إلى طويلا وقال: إن كثيرين من آل بيتك فعلوا هذا الذي أشار إليه الكهربائي الآخر، لأن الرجل الذي بني بيتكم أخطأ في هذه النقطة بالذات! فقلت له : إذن فأنت ترى أنه على حق؟ فقال : ربما! قلت ، وهل أنا إذا طلبتك ارتفع سعر الإصلاح إلى هذا المبلغ؟ قال: ربما! قلت لقد قلت إن نفرا من الذين اشتروا في هذا البيت مثلي يشكون من نفس المشكلة؟ قال: لا أدرى. قلت له مع الأسف الشديد فأنا لا أستطيع أن أجرى هذا الإصلاح في بيتي الآن، فهل تستطيع أن تعطيني أسماء بعض جيراني الذين أجروا هذه العملية لكي استشيرهم ، فقال: أعطيك اسم فلان وفلان.

وأول جار من هذين لم يعجبني بل أغضبني لأنه ظن أنني أفكر في أذى الكهربائي ، فأراد أن يطمئن قبل أن يجيب ، ثم تلعثم بعض الشيء في ردوده فقلت له : يا صديقي هذا رجل أعرفه منذ زمن ، ولقد تعاملت معه قبل ذلك في عمليات كثيرة معظمها صغير ، وقد قلت لك إنه لو كان عندي هذا المبلغ فربما كنت أجريت الإصلاح الذي يشير به وفرغت من ذلك ، ولكنك تعرفني فأنا رجل أعمل وأكسب ، ولكن كسبي لا يكفي هذه المرة لتغطية نفقات عملية كهذه ، وكنت أظن بعد أن صارحتك بهذا كله – أن تبادر إلى معاونتي ، فإن ٧٠٠ جنيه مبلغ ضخم ، وحتى لو أردت دفعه فإنني لا أستطيع فنظر إلى طويلا وقال: أقول لك الحق إنني أعطيته قرابة هذا المبلغ ولكن ليس في هذه العملية وحدها ، فقد كان إلى جانبها عملية أكبر منها ، ولكن قل لي: فيم طلب منك هذا المبلغ؟ فقلت: يقول إن كل سلوك الكهرباء في الشقة لابد من تغييرها ، لأنها تالفة ، ففكر لحظات ثم قال: لا أظن أن هذا ممكن ، فهذا البيت ما زال حديث البناء ثم إن والدي – وكان هو المقاول الذي بنى البيوت واشترينا منه – كان شديد التدقيق في مسائل الكهرباء ، وأنا هنا لم أغير كل السلوك ، ولو أني أردت تغييرها فلابد لي من كهربائي أكبر من هذا ، ولا أظن يا فلان أنك تحتاج إلى ذلك، دعك منه الآن ودعه لي.

وأحسست أنني لا أحتاج إلى تلك العملية في ذلك الحين فصرفت نظري عنها وإن لم أفهم صديقي ودون أن أعرف السبب الذي جعل الكهربائي يطالبني بهذا المبلغ الكبير ، ولكنني وجدت نفسي أقول في نفسي بعد حين: هذا أمر غير ممكن أو معقول إن هؤلاء الناس يحسبون أن المال لا قيمة له عندنا أو أننا نحصل عليه دون تعب ، لو كان لنا مجلس أسرة من الطراز الذي أشرت إليه فلابد أن عائلتنا كانت تضم أكثر من كهربائي ما بين رجل عامل في الكهرباء فعلا ومقاول يفهم في هذه

الأمور، وفى هذه الحالة لم يكن يعسر على أبدا أن أعرف ما ينبغى عمله فى ذلك الظرف. وأنا الآخر سأكون على قائمة العائلة مستعدا للخدمة فيما يحتاجون للخدمة فيه إذا أرادوا لأنه حتى فى الأوقات التى لا يقصدنى فيها أقاربى فإن الناس لا يعفوننى أبدا ولا يمضى أسبوع دون أن يقصدنى رجل - قد يكون معرفة بسيطة جدا - ويطلب إلى أن أكلم له فلانا أو علانا ، وأنا تثقل عليّ هذه الخدمات ، ولكن أحيانا لا يكون أمامك مفر من التعب إلا إلى المزيد من التعب.

وقد حدثت بعض أصحابى فى فكرة اتحادات الأسرات ، تناقشنا فيها وعرفوا أن مجلس العائلة ليس مجرد مدفع تطلق منه القذائف على الآخرين وإن الواحد منا لن يتحول إلى متسول لا يكاد يلقى إنسانا إلا تقدم إليه برجاء ، بل إن مجلس الأسرة لن يكون مجلسا على الإطلاق.

وإنما هو فى الحقيقة سيكون مركز استعلامات لخدمة الشباب من المدارس إلى الوظائف إلى الزواج لأن الشباب فى صباهم وفى أوائل سنوات التخرج لا يكاد يعرف أحدا ، ثم إن المعلومات فى ذاتها تنفعه ، ثم إن بعض الشباب يكونون عاجزين فعلا عن الاتصال بالآخرين ويطول بهم الأمر فى البحث عن الوظائف دون نتيجة ولابد من معاونتهم ، وفى ذات مرة زارنى صديق من الجزائر ليحدثنى فى أمر مؤتمر سيعقدونه هناك وتغدينا معا ، ثم قال لى فى نهاية الغداء ، لابد أن أذهب غدا إلى وزارة التعليم فإننا فى حاجة إلى عدد من المتخصصين فى علوم الزراعة ، فقلت له إذا كنتم تحتاجون هؤلاء المدرسين بكلية أو معهد عال فالأفضل لك أن تقصد إحدى الجامعات فقال لى: أظن ، لأن الذى يريدونه هو إنشاء معاهد زراعة متوسطة اقترحها علينا الفرنسيون ، وقدموا لنا الاختصاصيين وبقى علينا عدد من مدرسى الزراعة فى تخصصات مثل الرياضيات والكيمياء والطبيعة واللغة الفرنسية ، قلت وكم عدد المطلوبين تقريبا؟ فقال: ما بين خمسة وعشرين وثلاثين ، قلت وهل طلبوا منك أن تسلم هذا

الطلب إلى أحد بعينه قال: لا والله ، ولكنهم متعجلون ويريدون افتتاح هذه المدارس في أقرب فرصة.

وانقطع الحديث في هذا الموضوع وأنا الآن أفكر في أنه لو كان لأسرتنا اتحاد أو مجلس لشغلت هذه الوظائف المطلوبة في الحال ، لأنني كنت سأتصل بمندوبي الأسرة وأبلغهم الخبر وأنقل إليهم الطلب وشباب الأسرة. سيفترس الوظائف المطلوبة افتراسا ، وقد أطال بي خاطري الفكر في موضوع الأسرة وشبابها فوجدت أن مثل هذا الاتحاد لابد أن يكون موجودا بصور شتى في كل بلاد الدنيا لأنه لابد من معاونة الشباب في الحصول على الوظائف ، بل لابد من تخصيصهم في التخصصات المطلوبة إذا لم يكونوا متخصصين ، المهم أن يكون لديهم الأساس العلمي الذي تحتاج إليه الوظائف ، وأنا وأفراد دفعتي عندما تخرجنا وتطلعنا من حولنا وجدنا أن الدنيا تحتاج ولكننا لابد أن ندرس المزيد من اللغات والجغرافية والجيولوجيا وتفاصيل اللغات كالنحو والصرف واللغة اللاتينية ، وقد أعطونا الوظائف بشرط إتقان هذه الدراسات فأقبلنا عليها ، وفي عامين كنا قد أتقنا معظم المطلوب ، وسرنا في طريقنا ونحن مستعدون لأي شيء، وأذكر أن أستاذا نمساويا حضر إلى القاهرة لتحقيق الوثائق والمخطوطات العربية ، والحقوني به لكي أعارنه وأتعلم ولكن الرجل كان أنانيا نفورا ، وقد نفر مني نفورا شديدا ، وكان يسكن في شارع حسن الأكبر الذي كان يصب في باب الخلق ، وكانت شقته عالية جدا ولكنها واسعة وتطل على قصر عابدين ، وكانت كتبه كثيرة جدا ، ولكنه يطلب مني أن آتيه حوالي الرابعة بعد الظهر ، ولكنه هو لم يكن يأتي إلا في السادسة ، وقد تعبت جدا من سلوكه هذا وأشرت إليه مرة إلى أن الجامعة أحالتني عليه لأتعلم منه ، فقال لي في غاية العنف لم يقولوا لي عندما تعاقدوا معي أنني سأعلم، فقلت له إذن فهم تعاقدوا معك على أن يدفعوا لك شيء ولا تعطي مصر شيئا؟ لا تنس يا سيدي أنني من هذا البلد ، وأن الذي يهم أهل بلدنا أن أتعلم أنا ومن هم مثلي ، فنظر إلي طويلا ثم قال: ليس عندي

ما أقوله لك ، فقلت له أما أن أرتد إلى الجامعة دون نتيجة فمستحيل ، لا تطالبني بأن آتيك بخطاب خاص بي من الجامعة ، فقد فهمت أنهم لن يكتبوا خطابا ، فأنا هو الخطاب وأنت رجل تعمل.. فما يضرك أن تطلعني على ما تعمل.. إنني هنا لكي أتعلم منك ، أليس هذا واضحا.

وتركني الرجل في الصالة أمام كتاب ودخل هو حجرته وأغلق بابها عليه. ولم يضايقني ذلك منه ، فالواقع أنني كنت متضايقا منه كله — من أوله إلى آخره ، واستمررت آتي كل يوم. وبعد يومين وأنا في الانتظار من الرابعة إلى السادسة أتت شابة ألمانية تبينت من إصبعها أنها متزوجة ، وقالت إنها متخصصة في الحبشية واللغات السامية ، وإنها ستعمل مع الأستاذ وهو الذى طلبها من ألمانيا ، وكانت السيدة لطيفة جدا ، وقالت في أثناء الكلام إنها لابد أن تتعلم العربية وهي في حاجة إلى مدرس في اللغة العربية فعرفتها بنفسي ثم سألتها إن كانت توافق على أن أكون مدرسا لها فرحبت ، واتفقنا في النهاية على أن نتبادل الدروس والمعاونات، هي تدرس لى الحبشية والعبرية وما أحتاج إليه من اللغات السامية ، وأنا أدرس لها العربية وأترجم لها كل ما تحتاج إليه من النصوص ، وسرنا في هذا الطريق دون أن نقول للأستاذ ، وبعد ثلاثة شهور كنت قد دخلت في اللغات السامية ، ربما بصورة أحسن مما كان من الممكن أن يعملها معي الأستاذ.

على أى حال شعرت في هذه السنوات كلها أن الشباب في حاجة إلى معاونة ، وهأنا ذا الآن أعود إلى نفس الفكرة بعد أن تعقدت شئوننا وزاد عددنا ، وأحب أن أرجوك أن تعرف أن هذه الصعوبات موجودة في الدنيا كلها اليوم ، والشباب يحتاج إلى المعاونة من كل ناحية ، وفكرة جمعية العائلة فكرة قومية فنحن من زمن طويل معتمدون على الشئون العائلية فما رأيك.

(١٨)
الإنتــاج «منين»*؟

فى هذا الشهر يونيو ١٩٩٢م وهو يقابل ذا الحجة ١٤١٢ أخذنا خمسة أيام إجازة العيد الكبير يضاف إلى ذلك ثلاثة أيام جمعا وأحيانا ٣ أيام خميس أيضا فيكون مجموع أيام الإجازات التى أخذناها فى شهر واحد ثمانية أيام أو ١١ يوما يعنى ربع الشهر أيام بطالة ثم نقول نريد زيادة الإنتاج إزاى؟ إذا كنا نضيع ربع الشهر إجازات رسمية فحتى لو كنا شغالين ومجتهدين فإن الإنتاج لابد أن يكون منخفضا ، ونحن اليوم نعيش فى عالم مجنون بالعمل والإنتاج ويكفى أن تنظر فى المحلات لترى أن أوربا وأمريكا واليابان تعمل بجنون فالمحلات ملأى بكل شىء مستورد ، والرجل فى بلاد مثل سويسرا والدينمارك وهولندا والسويد والنرويج يعمل على الأقل ثمانية ساعات فى اليوم وهو يعمل أعمالا متقنة تفتح النفس ورجال الحكومة هناك عندهم إحساس كامل بالواجب والأشياء تخرج من المصنع اليوم وتصدر فى الغد والعملاء ينتظرون خارج الحدود وأموال الدنيا كلها تنصب فى البلد ، كل ذلك من العمل والعمل المنتظم المستمر وأذكر أننى كنت مرة فى ألمانيا وتعرفت على عامل مهندس يعمل فى ورشة أقلام وكنت عضوا فى وفد مصرى من وزارة التربية لنشترى الأقلام.

وهذا المهندس كان من المشرفين على بيع منتجات الشركة وقد كنت أدهش لأن هذا المهندس كان يعمل كل يوم من الثامنة صباحا إلى الخامسة بعد الظهر وكان يحفظ كل شىء فى ذهنه ولا يمكن أن يدع العمل جانبا وينصرف إلى الحديث مع زميل له أو معى ، كان يعمل باستمرار وبالضبط

---

* نشرت هذه المقالة فى ١٢ يوليو ١٩٩٢م .

وكان أحلامه كلها إنتاج وقد خجلت منه فقد اشترينا من شركته أدوات كتابية بثلاثين مليون دولار من أموالنا المصرية وأعطيناهم إياها وكنت أقول في نفسي هكذا يكون العمل ، وهكذا تكون الحياة أما نحن فإننا فعلا غلابة ومساكين والإنتاج عندنا كلام والبلد معظم سكانها شحاذون لا يكادون يأكلون شيئا محترما ونحن طول النهار نضحك وتغني لأننا غلابة ننسى الدنيا بالضحك والهزار وقلت في نفسي إذا كان الحال هكذا فلماذا نتكلم على الإنتاج إذا كنا نأخذ ربع الشهر إجازات ومعظم الوقت نحن في المكاتب نضحك ونهزر فمالنا والإنتاج بل مالنا والعمل؟ إننا ناس غير جادين عندنا معاهد ومدارس وكليات فماذا نتعلم فيها؟ ولا شيء كله كلام والشيء الوحيد الجاد الذى نعمله هى الزراعة نعم زراعة القطن والقمح والفول والأذرة والأرز فهذه على الأقل أشياء نأكلها ونحن نزرع البرسيم والشعير لحيواناتنا أما الصناعة فلا حق لنا في الكلام عنها هنا نلعب ولا يمكن مقارنتنا بالبلاد الصناعية.

وقد ابتكر ناس من المصريين صناعات تكميلية نقوم بها أى نستورد القطع ونركبها آلات في مصر أو نصنع بعضها في مصر كويس مش بطال المهم أن نعمل المهم أن ننتج أى شيء أما اللعب أما إجازة ربع الشهر فهذا كلام فارغ وغير ممكن أن نصبح بلدا صناعية بهذه الطريقة. والغريب عندنا أن الذين يعملون ويجتهدون هم التلاميذ والطلاب هؤلاء يذاكرون ويعملون الواجبات ويدخلون امتحانات وينجحون أو يسقطون المهم أنهم يعملون فإذا تخرج أولئك الطلاب بعد غلب السنين في المذاكرة وتوظفوا ودخلوا المكاتب فقد دخلوا عالم الكسل والإهمال واللعب والرغي ، انتهى العمل بالنسبة لهم لأن الدولة ليس لديها نظام يرغم الناس على العمل وفى حياتي ما رأيت إنسانا مصريا يعاقب لإهماله في العمل والغريب أنهم يقولون عندنا لا يمكن إيقاف المرتب مهما بلغ إهمال الموظف لابد من

إعطائه المرتب قد نعاقب عندما يثبت إهماله ولكن مرتبه يمشي لأننا في الحقيقة ليس لدينا نظام عمل مع أن المصانع التى زرناها فى ألمانيا لا يمكن أن يعرف موظف مرتبه إلا إذا صدرت له شهادة من مكتب مراقبة أعلي تقول إنه يعمل بجسد وينتج ويستحق المرتب ولا يهمهم هناك أن يموت الموظف من الجوع مادام مهملا لأن العمل أساس الحياة أما عندنا فإن الأكل أساس الحياة والحكومة لابد أن «توكل» الناس ربما كانت الصناعات الخاصة استثناء وصاحب المصنع الخاص يطرد أى موظف لا ينتج وهذا عدل لأن صاحب المصنع لم ينشئه ليطعم الناس وأؤكد لك أننى عندما كنت فى الجامعة كنت أعمل بعد الظهر فى ورشة ميكانيكا لكى آخذ مرتبا أنفق منه على نفسى وقد سعدت جدا بهذا العمل فى الورشة إلى درجة أننى بعد أن تخرجت كان من الممكن أن أستمر فى العمل فى الورشة وبالفعل عرض على صاحبها ذلك ولكنى من ناحية أخرى كنت قد رتبت عملي الجامعي فسرت فيه وتركت الورشة آسفا.

والحقيقة أن أحدا لا يعرف لذة العمل إلا إذا جربة فإن شر ما يمكن أن يصيب الإنسان هو التعطل وألذ ما يسعدك هو العمل هو الإقدام على العمل وإنفاق يومك فيه وأنا شخصيا لا أجد لذة فى الحياة أكبر من العمل فأنا أحقق الآن أصلا قديما هو كتاب «طبقات الأمم» لصاعد بن أحمد القرطبى الأندلسي وهو كتاب صعب مجهد ولكنه عظيم فهذا رجل يكتب تاريخ الإنسانية على أساس المساهمات العلمية فالأمم التى شاركت فى العلوم وخلفت للإنسانية تراثا هى الجديرة بالذكر أما الأمم التى لم تشارك فى العلم مثل الأتراك فى رأيه فقد شاركت فى تاريخ الإنسانية ولكنها ليست قائده ولا تقارن بقدماء المصريين أو اليونان أو الفرس أو الهنود والكتاب صعب جدا فكله أسماء أعلام إما علماء أو أمم ثم إنه حافل بأسماء العلوم والكتب وأنا أعانى من تحقيقه ولكنى أجد فى ذلك لذة كبرى وأنا أعرف أن أهل العلم فى الدنيا ينتظرون له طبعة عربية ولكن هذه الطبعة صعبة

جدا ولهذا فإن أحدا من العرب لم يقدم على نشره إلا الأب اللبنانى لويس شيخو وطبعته مع ذلك حافلة بالأخطاء والكتاب كله لا تزيد صفحاته على مائة وثلاثين ورقة ولكن كل سطر فيها مشكلة.

ولعل القارئ لا يعلم أننا نحن المشتغلين بالعلم لا نكاد تحصل على رواتب ذات قيمة ، فنحن فى الغالب لا نحصل إلا على قروش ونحن نعاني في عيشتنا ولكننا سعداء بالعمل في حد ذاته وكل الذين يعملون يشاركونني في هذا الرأى.

والعمل اليدوى عندنا في مصر يكسب أكثر من غيره سواء أكان عمل عمال مثل السمكرية أو الكهربائية أو المبلطين أو عمل مهندسين وأطباء فهؤلاء يكسبون الوفا ولكنى أقول لك إن الألوف ليست هى دافعهم إلى العمل وأنا أعرف أطباء جراحين كثيرين يعملون العملية سواء دفع المريض أو لم يدفع والدكتور إبراهيم بدران أتاه رجل مسكين يعاني من شيء في معدته وكان هذا المريض قد ذهب إلى طبيب آخر فطلب منه خمسة آلاف جنيه ورفض أن يمسه فأتانى يأخذ رأيى فقلت له : اذهب إلى الدكتور إبراهيم بدران والرجل ذهب إلى إبراهيم بدران فكشف عليه ثم قال له : تدخل الآن المستشفى فأنا سأعمل لك العملية وأنت لن تدفع إلا أجر المستشفى وثمن الأدوية وهذا مثال من حب رجل العلم للعمل.

ولكن أمثال إبراهيم بدران عباقرة ونحن يهمنا عامة الناس عباقرة وغير عباقرة والدولة عندنا عندما تنادى بالإنتاج فهى تريد عامة الناس وأنا شخصيا لو كنت رئيس الوزراء للجأت إلى إرغام الناس على العمل والإنتاج لأن الناس عندنا مدللون وهم لا يعملون إلا أقل العمل وأنا عندما اشتغلت بالتدريس وجدت الأولاد لا يعملون فقلت لهم لابد من العمل ومن لا يعمل سيضرب واخترت عددا من الفراشين جعلتهم مساعدين لى وصرت أضرب أى طالب لا يعمل كان الفراشون يبطحونه ونجلده على ظهره بضعة جلدات والأولاد اشتغلوا وآمنوا بالعمل وبعضهم امتنع عن المجيء إلى

المدرسة وقال لأبيه إننا توقفنا عن العمل وأنا ذهبت إلى بيوتهم وقابلت آباءهم وكسبتهم إلى جانبي والآباء شاركوني في ضرب أولادهم الذين لا يعملون والنتيجة أن المدرسة أصبحت ميدانا نشيطا للعمل لأنني أعلم أن المصريين بطبعهم مدللون وأنا لا يعجبني الإهمال أو الكسل وقد تعلم الأولاد العمل على يدي وأصبحوا مجتهدين ونجحوا في مستقبلهم والكثيرون منهم ممن ضربتهم أصبحوا شاكرين لي طوال حياتهم وقد ظلوا شاكرين بعد أن أصبحوا رجالا وأصبحوا بدورهم معلمين لمن أصغر منهم بالعنف والضرب.

ولهذا فإنني أقول: إذا كنا نريد زيادة الإنتاج وزيادة قيمته فإننا لا يمكن أن نحصل على مواطنين عاملين إلا بالقوة والعقاب في حالة الإهمال وبطبيعة الحال فإن العقاب لا يكون شديدا بل يكون عادلا وهذا هو الذي ينبغي علينا أن نعمله فلا يجوز أبدا أن يكون هناك ثمانية أيام إجازات في شهر هذا حرام ولا يمكن أن ننهض ببلدنا إذا كانت هذه سياستنا لابد أن نعلم مواطننا العمل ، لأن العمل أساس الحياة ، لا يجوز أساسا أن تأخذ إجازة ثلاثة أيام في العيد الصغير وأربعة في العيد الكبير، وقد لقيت ناسا يقولون إن الناس في أوربا يأخذون إجازة يومين في الأسبوع – السبت والأحد ، وهذا ممكن ولكن الناس هنا يعملون الأيام الخمسة الباقية من الأسبوع ثمانية ساعات بالضبط في اليوم من الثامنة أو التاسعة صباحا إلى الرابعة والخامسة بعد الظهر.

وأنا عشت في أوربا سنوات ورأيت كيف يعمل الناس ، وعملت معهم ولم أعرف هناك الكسل أو الإهمال وأذكر أنني أخذت حذائي مرة إلى الجزمجي لإصلاحه ، فطلب مني أربعة عشر فرنكا سويسريا فقلت له: أليس هذا كثيرا؟ قال: إنني لا يمكن أن أعمل فعلا شريفا بأقل من ذلك ، وقد استوقف انتباهي قوله : فعلا شريفا »وهو يريد فعلا متقنا وقد وافقت

وأعطيته الحذاء فأصلحه وأعاده إلى كأنه جديد ، وقد أعجبت بعمله: وقلت بارك الله فيكم أيها السويسريون ، إنكم تتقنون العمل ، ولهذا فإن لكم في الدنيا مركزا عظيما ، وأنتم أغنى بلاد الدنيا بسبب العمل ، والعمل عندكم كأنه دين. وقد دخلت مصنعا فإذا الناس جميعا يعملون ولا يتكلم منهم أحد ، وذكرت أننا نحن في مصر لا نكف عن الكلام في وقت العمل وبالفعل لا تزيد مدة عملنا في اليوم عن دقائق.

حقا إن إنتاجنا زاد في الفترة الأخيرة ، وهذه الزيادة نتيجة عمل نفر مجتهدين من العمال المصريين في المعامل ، أما بقية الناس فهم طول الوقت في كلام ورغي وأكل ولعب. وهذا ظلم ، ناس يعملون وينتجون والباقي يلعبون ، وأنا في رأيي أن نأخذ أولئك المهملين فنضربهم أو نعاقبهم أي عقاب كما فعلت أنا مع التلاميذ لقد أنقذتهم من الكسل وعلمتهم الاجتهاد ، وهأنت قد رأيت أن الكثيرين منهم ظلوا يشكرونني طوال أعمارهم ، وأنا لا أحب مكاتب الحكومة عندنا لأن الموظفين فيها لا يعملون كما ينبغي بل إن الكثيرين منهم لصوص. وأذكر أنني قرأت في الأهرام خبر رجل سرق الملايين من أموال الدولة وقد تعجبت كيف يمكن أن يسرق رجل هذه الملايين ، وكان من رأيي ألا يقتصر العقاب عليه بل لابد أن ينال كل زملائه ورؤسائه.

ثم نقول إننا نريد زيادة الإنتاج كيف؟ إن الناس عندنا مدللون ونحن نستطيع أن ندفعهم إلى العمل دفعا. وكان هذا يعمل عندنا في الماضي ، ولهذا فإن إنتاجنا في الماضي كان أكثر وأحسن من إنتاجنا الآن. وأنت إذا ذهبت إلى الدينمارك أو هولندا أو بلجيكا أو السويد أو النرويج لتتعجب فهذه بلاد قليلة السكان جدا ، والدينمارك لا يزيد سكانها على ستة ملايين ولكن الناس هناك يعملون طول النهار ، من الساعة الثامنة صباحا إلى الخامسة بعد الظهر ، وهم يعملون عملا جادا ولا يعرفون الرغي في وقت العمل. والعمل عندهم منظم جدا ، فالمصنوعات تخرج من المصانع إلى

مراكز التصدير ومراكز التصدير إما أن تكون مدنا صغيرة مؤهلة بكل ما يلزم للتصدير أو موان على البحر تقف فيها السفن والناس تصدر دون أن تتدخل الحكومة في أعمالهم ، فالناس هناك أمناء ، فهم بعد التصدير يقدمون قوائم بما صدوره إلى الحكومة ، وبعد قليل يدفعون للحكومة ضرائب قيمة ما صدوره ، والناس هناك معتدلون ! فى كل شىء ، وقد نزلت هناك فى قرية صغيرة. وكنت ألاحظ أننا جميعا ننام حوالى العاشرة، والراديو والتليفزيون ينتهى عملهما في الحادية عشرة ليلا فالبلد كله مصنع وهو فى غاية النظافة ، والأوتوبيسات هناك تعمل طول النهار بكل نظام ، والمحطات جميلة ومنظمة أو سيارة الأوتوبيس تجىء وتقف نصف دقيقة والناس يركبون أو ينزلون ، والركوب من الباب المجاور للسائق ، والراكب يضع النقود فى صندوق إلى جوار السائق ، وعندما يضع النقود تخرج له التذكرة فيقرأ رقمها ويمضى ويجلس وعندما تجىء محطة نزوله يضع التذكرة في صندوق قرب الباب الخلفى وينزل. وهذا يستمر طول النهار ، وكل الناس هناك يقرأون والواحد منهم يجلس ثم يفتح كتابا أو مجلة ويقرأ، ولا أحد يكلم أحدا إلا فى وقت الضرورة. فقارن هذا بما عندنا من كلام الناس وهيصتهم والكومسارى الغلبان ينادى ويطالبه بالأجر والنظام والهدوء طول النهار.

ومن الواضح أننا لا نعمل بما فيه الكفاية وأن إنتاجنا ليس على ما يرام، ومن المعروف أن هناك بلادا قليلة فى مصر يعمل أهلها كما ينبغى ومنها دمياط ، ودمياط مركز صناعى ، ما فى ذلك شك ، وقد عشت فيها سنوات لأن والدى كان موظف حكومة ، والحكومة كانت تنقله كما تشاء أو كان هو رجلا جريئا وقحا فكان يلقى برأيه فى وجوه الناس فتكون النتيجة أنهم يعاقبونه بالنقل إلى بلد بعيد ، ولهذا فقد نقلوه إلى دمياط مرتين وإلى السويس - وفيها ولدت - وإلى أسوان. وكنت سعيدا جدا فى دمياط ، فإن أهل دمياط ناس فيهم جمال ، ونسوانهم حلوين ، حلوين جدا ، وهم أهل نظافة وكنت هناك فى المدرسة الابتدائية ، وكانت إلى

جوار مدرستنا مدرسة بنات ، والبنات كن فى غاية الجمال ، وقد أعجبتنى مرة واحدة متهن فكنت أجلس على صخرة قرب تلك المدرسة وانتظر حتى تمر البنت فأظل أتأملها فتمر بى وعينى فيها ، وأظل أتأملها حتى تختفى عن بصرى ، وقد أحببتها وقلت لواحد من أصحابى إننى سأغامر وأكلمها! فقال لى: إذن فأنت لن تراها بعد ذلك ، وأنت لو تعرف الدمياطيات إنهن فى غاية الفتنة والأدب. كفاية عليك أن تراها ، فهذه البنت لن ينال أحد منها شيئا إلا زوجها. وأخذت برأيه وظللت أتمتع برؤية البنت حتى نقلنا من دمياط إلى القاهرة.

ودمياط هذه كانت فيها صناعات كاملة وممتازة: صناعات الألبان: الجبن والزبد والقشدة واللبن الزبادى ، وطبعا اللبن نفسه. وكانت فيها صناعة الموبيليا. أجمل أصناف الموبيليا كانت تصنع فى دمياط وكنت أنا أمر بمصنع موبيليا فى حى يسمى الخمس ، بضم الخاء وكنت أتعجب من أصناف الموبيليا وأشكالها وصنعتها. وصناعة الأحذية. كانت دمياط أعظم مصنع للأحذية فى مصر ، ومصانع الأحذية هناك كانت تصنع كل أنواع الأحذية من الصنادل إلى البوت. ونسج الحرير ، فكانت دمياط تصنع أجمل الحرير المصرى وأجمل ملابس الحرير ، زرت مرة مصنع حرير ورأيت صاحب المصنع يعمل وسط العمال بكل اجتهاد ثم سمعت أن هذا المصنع سينقل إلى حلوان فذهبت وقلت لصاحب المصنع : لماذا ستنتقلون إلى حلوان؟ أنتم لن تجدوا بلدا أعظم من دمياط فقال لى: ومن قال لك إننا ننتقل من دمياط برغبتنا نحن؟ إنها الحكومة يا سيدى هى التى أمرت بالنقل. الحكومة تخرب كل شيء فى مصر أن رجال الحكومة مستبدون ، ونحن سعداء هنا ، ولكن ماذا نعمل؟

والغريب أن الدمايطة أنشأوا هذه الصناعات بالذكاء والعمل فإن منطقة دمياط ليست منطقة مسراع للبقر والجاموس ، ولكن الدمايطة يربون الجاموس والبقر والغنم والأعناز ويحصلون على الألبان ودمياط ليست منطقة أخشاب ولكنهم يستوردون الأخشاب من بلاد الشام.

وهم يشترون الجلد من الدقهلية وكفر الشيخ. وهم كذلك يستوردون الحرير ، وينشئون تلك المصانع وأهم من ذلك أن لهم نظاما عظيما للتصدير، فهؤلاء الناس كانوا يصدرون إلى السعودية والكويت وتركيا ويحصلون على ملايين ، وكنت أنا معجبا بالدمايطة جدا ، ولو بيدى ما تركنا دمياط أبدا ، وكان من رأيى أن تحول دمياط إلى شبه جمهورية مستقلة داخل مصر ، فقد كانت فعلا بلدا عظيما ، ولا أدرى كيف حالها الآن وقد بلغنى أنها تدهورت وهذا أمر مؤسف وأرجو ألا يكون صحيحا.

المهم أن واجبنا الآن هو تحويل البلد إلى مصنع وهذا بيدنا فننتج كل شيء إنتاجا متقنا وكثيرا ونصدره لأن مصر مركز صناعى عظيم وبلدنا يقع في وسط الدنيا بين ثلاث قارات: أفريقية وآسيا وأوربا ثم إن الناس عندنا يزدادون زيادة مخربة ، قد حاولنا تحديد السكان ، ومن الممكن أن ننجح فى ذلك فى يوم من الأيام ولكننا الآن نزداد وعدد سكان مصر بلغ الآن ٥٨ مليون نفس ، وهذه مشكلة لابد من علاجها ونحن لا نستطيع الاعتماد على النصائح ، فالنصائح لا تحل المشكلة ، لابد من العمل ، ولابد من أن يضرب الناس حتى يعملوا ، والضرب للعمل حق للأب على أبنائه وحق الحكومة على الناس ، ونشر العمل والإنتاج فى مصر سيغير طبيعة البلد ، كل الناس لابد أن يعملوا ، وكل ما نصنعه ينبغى أن يكون قابلا للتصدير ولابد أن تكون هناك موان كثيرة للتصدير لأن مصر لابد أن تكون من أغنى بلاد الدنيا ، وكما قلت لك لابد أن نستعمل الضرب أو العنف لأن الناس عندنا مدللون ، ولكنهم قادرون على العمل وعندهم استعداد للتعلم ، والدنيا كلها ستشترى إنتاجنا وثروتنا ستزداد ، ومن العيب أن نعتمد على الديون ، بل سيجىء وقت لا نجد فيه من يقرضنا ونحن الآن مع الأسف خاضعون لأمريكا وجورج بوش يصدر أوامر إلينا ونحن نطيع وهذا عيب بل عار ولابد أن نصنع ونبيع ونكسب ونرفع سعر الجنيه ، فمن العيب أن يكون الدولار مساويا لثلاثة جنيهات ونصف ، لماذا؟ لابد من أن يرتفع

سعر الجنيه فإن أصل سعر الجنيه خمسة دولارات تصور الحق أننا مهملون ولابد أن نغير سياستنا ولابد أن نستعمل القوة في ذلك ، لابد أن يقوم نظام حكومتنا على تحويل مصر إلى بلد صناعي تجارى ، وذلك كما قلت لك ممكن. أما تدليل الناس فكلام فارغ ، ولابد أن يعرف الناس أن العمل والإنتاج أساس الحياة. لابد أن تصبح مصر دمياطا كبيرة تصنع صناعة متقنة وتصدر لابد من ذلك ، لابد.

فهرس

١/٩٨/٦٦
طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

صور من الحياة المصرية

إن شخصية الدكتور حسين مؤنس كباحث وأستاذ.. تختلف عن شخصيته ككاتب مقال سياسي أو اجتماعي. فهو بالشخصية الأولى عالم مدقق منقطع الصلة بالحاضر تقريبا.. وهو بالشخصية الثانية مفكر وناقد وأديب غارق في هموم المجتمع ومعايش للناس العاديين في الحارة والقرية والمدينة. ويجعل قلمه صوتا للحق. لا يحيد ولا يجامل ولا ينافق.

وفي مناخ الحرية الذى تحقق للصحافة المصرية أطلق الدكتور حسين مؤنس لقلمه العنان وأصبح بذلك نموذجا للكاتب الذى لا يخشى شيئا ولا يتردد في قول الكلمة والتعبير عن رأيه.

دار المعارف

٠١/٤٤ - ٠٣٥